

حائزة على جائزة نوبل للآداب

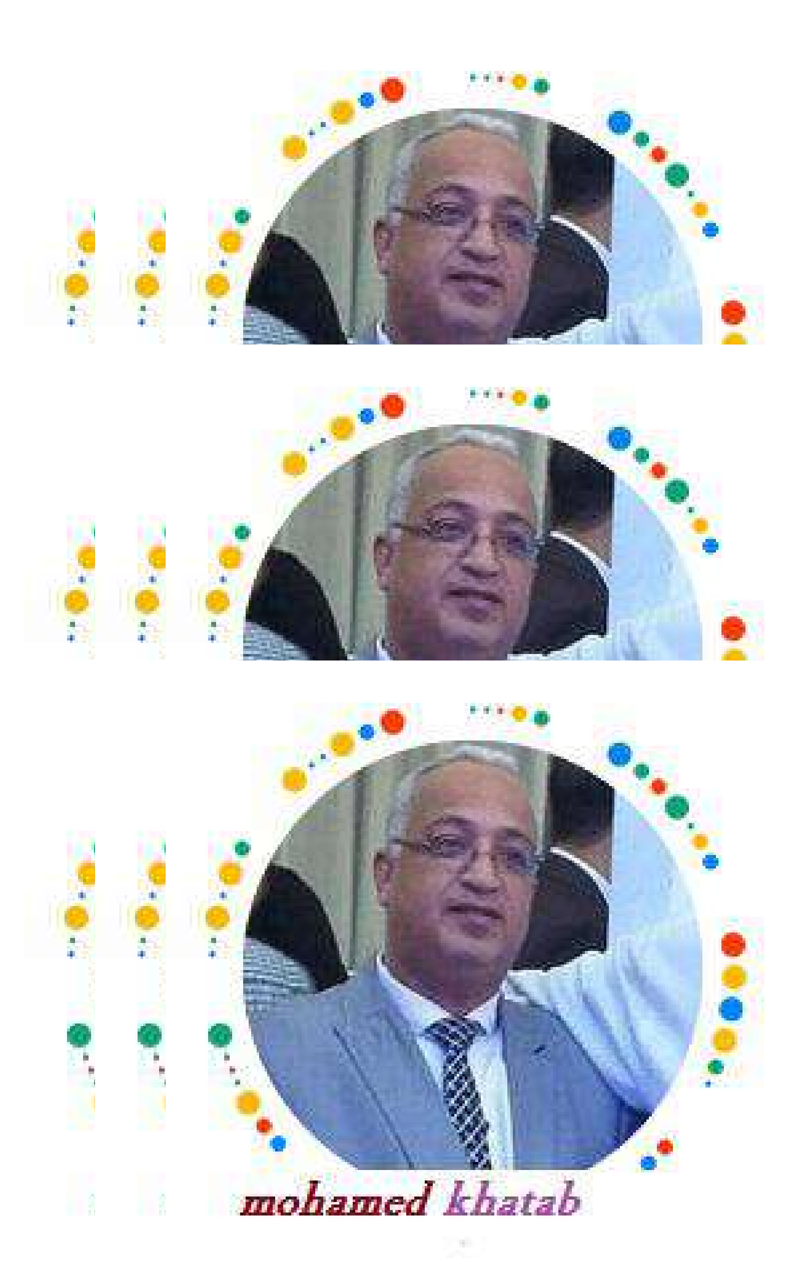
جر محراثك فوق عظام الموتى

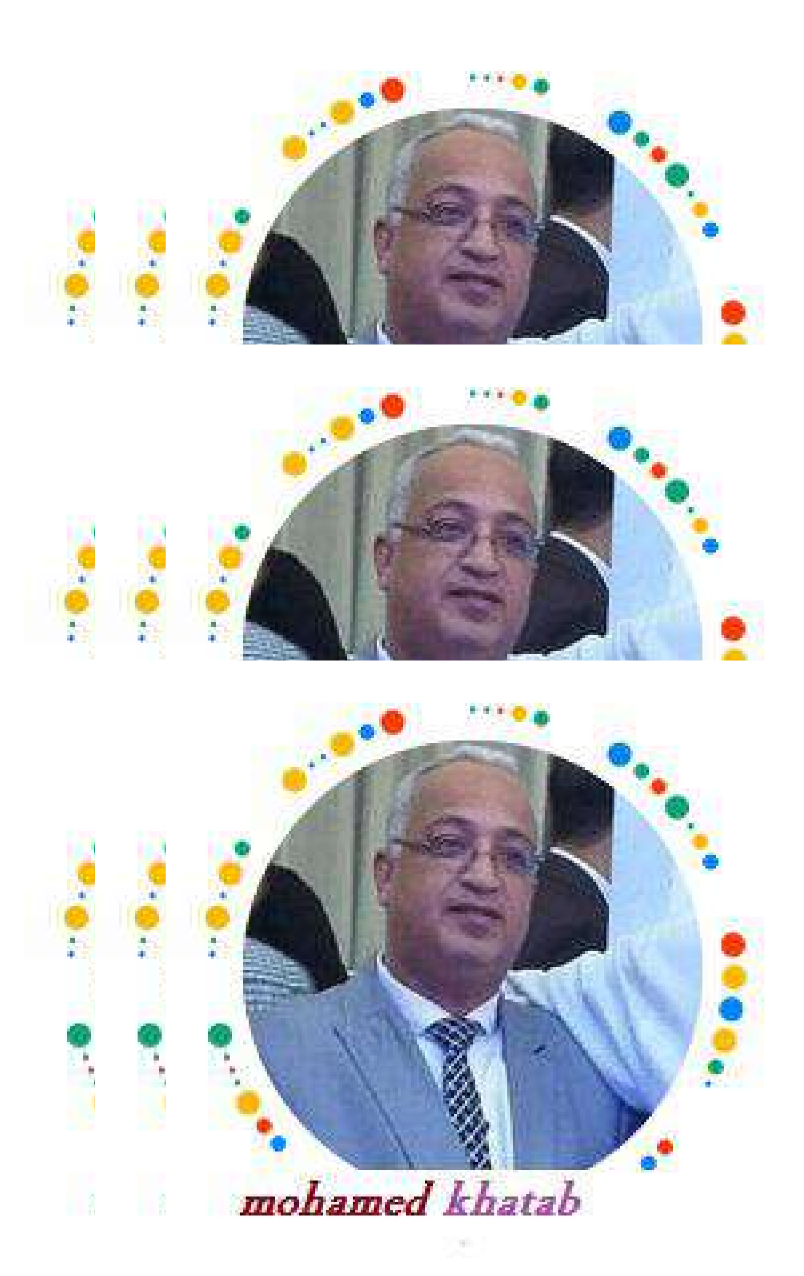
رواية

أولغا توكارتشوك

مكتبة

التنوير


mohamed khatab


mohamed khatab

أولغا توكارتشوك

جرّ محراثك فوق عظام الموتى

ترجمة

إيهاب عبد الحميد



تُرجمت هذه الرواية عن النسخة الإنكليزية التي أنجزتها
المترجمة أنتونيا لويد-جونز Antonia Lloyd-Jones
بعنوان: *Drive Your Plow Over the Bones of the Dead*.

I

الآن انتبهوا

يومَ طَرَقَ الصِّدِّيقُ الوديعُ
دربَ الأخطارِ المديد
مضى قُدمًا في وادي الهلاك، لا يحيد.

صرتُ في سنٍّ ووضعٍ يجعلانني أضطر دائمًا إلى غسلِ قدميَّ جيّدًا قبل النوم، تحسبًا لأن تأتيَ عربة إسعاف وتحملني في الليل.

لو كنت راجعت «التقاويم الفلكية» ذلك المساء لأنظر ماذا يحدث في السماء، لما ذهبتُ إلى الفراش أصلًا. بيد أنّي سقطتُ في نوم عميق؛ كنت قد استعنت بمنقوع حشيشة الدينار، وتناولت حبتيّ فاليريان. وهكذا، عندما أيقظني في منتصف الليل قرعٌ على الباب -عنيف، طائش، ومن ثم مشؤوم- لم أستطع العودة إلى رشدي. فزعتُ من رقادي ووقفت إلى جوار السرير، مترنّحة، حيث عجز جسدي النعسان المرتجف عن القفز من براءة النوم إلى اليقظة الكاملة. شعرتُ بأني ضعيفة وبدأت أتمايل، وكأني على وشك فقدان الوعي. لسوء الحظ صار ذلك يحدث لي كثيرًا مؤخرًا، وله علاقة باعتلالاتي. تعيّن عليّ أن أجلس وأقول لنفسي مرارًا: أنا في البيت، ونحن في الليل، وأحدهم يدقّ الباب. عندها فقط استطعت السيطرة على أعصابي. وإذ أخذت أبحث عن خُفّي في الظلام، سمعتُ ذلك الذي يدقّ الباب، أيًّا من كان، يدور حول المنزل، مدمدمًا. في الطابق السفلي، في علبة عدّادات الكهرباء، أحتفظ برشّاش

الفلفل الذي أعطاه لي ديزي حماية من الصيادين غير الشرعيين، وذلك ما خطر ببالي وقتها. في الظلام، استطعت العثور على العبوة المألوفة الشبيهة ببخّاخات التبريد، وإذ تسلّحتُ بها، أضأت المصباح الخارجي، ثم نظرت إلى الشرفة من نافذة جانبية صغيرة. سمعت صوت انسحاق الثلج، وفي مجال بصري ظهر جاري، الذي أسميه «غريب الأطوار». كان يلفّ نفسه بذيل معطفه القديم المصنوع من جلد الغنم، الذي سبق ورأيته يرتديه أحيانًا أثناء عمله أمام بيته. وتحت المعطف رأيت منامته المخطّطة وحذاءً ثقيلًا مخصّصًا لمشي المسافات الطويلة.

قال: «افتحي».

باندهاش لم يُخْفِه، ألقى نظرة على بدلتي الكتّانية (أنام في ذلك الزي الذي أراد «البروفيسور» وزوجته التخلّص منه الصيف الماضي، والذي يذكّرني بموضة أيام زمان وسنوات شبابي –وبهذه الطريقة أجمع بين العملي والعاطفي) ومن دون أن يقول «بعد إذنك»، دخلَ البيت.

«من فضلك ارتدي ملابسك. ‹القدم الكبيرة› مات».

لبرهة ظل لساني معقودًا من الصدمة؛ من دون كلمة انتعلتُ حذاء الثلوج الطويل، وارتديتُ أول رداء صوفي صادفَته يدي على شمّاعة المعاطف. في الخارج، وسط بركة الضوء المنبعث من مصباح الشرفة، كان الثلج يتساقط بطيئًا ناعسًا. وقف غريب الأطوار إلى جواري في صمت، طويلًا ونحيلًا وبارز العظام، مثل «سكيتش» رُسم سريعًا بالقلم الرصاص. وكلما تحرك، تساقط الثلج عنه كما يتساقط السكّر الناعم عن الفطائر الحلوة.

«ماذا تقصد بمات؟»، أخيرًا سألته، وحلقي ينقبض، وأنا أفتح الباب، لكنّ غريب الأطوار لم يجب.

هو قليل الكلام عمومًا. لا بد أن عطارد لحظة ميلاده كان في أحد الأبراج الكتومة، ربما في الجَدي أو على أطرافه، في وضع تربيع مع

زُحل أو ربما في وضع تقابُل معه. أو ربما كان عطارد في حالة تراجُع - إذ يُسفر هذا عن ميل للتحفّظ.

خرجنا من البيت فغمرَنا البرد المألوف على الفور؛ هواء رطب يذكّرنا كل شتاء بأن العالم لم يُخلق لبني البشر، ويُظهر لنا، على مدار نصف العام على الأقل، كم هو شديد العدائية تجاهنا. انقضّ الصقيع بوحشية على خدودنا، وصارت سحابات من البخار الأبيض تتدفّق من فمونا. انطفأ ضوء الشرفة آليًا ومضينا نسير وسط الثلج الهش في ظلام مطبق، لا يضيئه إلا مصباح رأس غريب الأطوار، يشقّ الظلمة الحالكة في بقعة واحدة لا تَني تتبدّل، أمامه مباشرة، بينما جعلتُ أنا أتعثّر في سيري في العتمة من ورائه.

سألني: «هل عندك مصباح يدوي؟».

بالطبع عندي مصباح يدوي، غير أني لن أعرف مكانه إلا في الصباح، في ضوء النهار. من سمات المصابيح اليدوية أنها لا تظهر إلا في النهار.

كان بيت القدم الكبيرة الريفي ينهض على بعدٍ قليلٍ من الطريق، أعلى من بقية البيوت. كان واحدًا من ثلاثة بيوت تظل مسكونة طوال العام. فقط هو، وغريب الأطوار، وأنا كنا نعيش هنا بلا خوف من الشتاء؛ أما بقية السكان، فأحكموا إغلاق منازلهم في أكتوبر، وأفرغوا المواسير، وعادوا إلى المدينة.

الآن، انعطفنا عن الطريق الذي أزيل جزءٌ من ثلوجه، والذي يشقّ ضيعتنا، ثم يتفرّع إلى مماشٍ، يؤدي كل منها إلى بيت من البيوت. كان ممشًى مغمور بالثلوج، تظهر فيه آثار أقدام، يقود إلى بيت القدم الكبيرة؛ ممشًى شديد الضيق على نحو يضطرّك إلى وضع قدم أمام الأخرى وأنت تحاول الحفاظ على توازنك.

«لن يكون منظرًا جميلًا»، هكذا حذّرني غريب الأطوار، وهو يدير وجهه إليّ، ويُعمي أنظاري للحظة بمصباح رأسه.

لم أتوقّع خلاف ذلك. لبرهة ظل صامتًا، ثم، وكأنما ليشرح، قال: «شعرت بالقلق عندما ارأيت نور مطبخه وسمعت الكلبة تعوي بأنين قوي. ألم تسمعيها؟».

لا، لم أسمع. كنت نائمة، مخدَّرة بحشيشة الدينار والفاليريان.

«أين هي الآن، الكلبة؟».

«أخذتُها بعيدًا عن هنا -إنها في بيتي. أطعمتها وبدا لي أنها هدأت».

سادت برهة أخرى من الصمت.

«كان دائمًا يطفئ النور ويذهب إلى الفراش مبكرًا لتوفير النفقات، لكن هذه المرة ظل النورمضاءً. بارقة ساطعة وراء الثلوج. منظورة من نافذة غرفة نومي. وهكذا ذهبت إلى هناك، ظانًّا أنه شربَ حتى السكْر، أو أنه يضرب الكلبة، لكي تعوي بهذه الطريقة».

مررنا بحظيرة متداعية، وبعدها بلحظات التقط مصباح غريب الأطوار من وسط الظلام أربع عيون لامعة، خضراء شاحبة وفلورسنتيّة.

«انظر، غزلان»، قلتها بهمسة عالية، وأنا أشدّه من كُم معطفه. «لقد اقتربوا من البيت كثيرًا. أليسوا خائفين؟».

كان غزالان يقفان والثلوج تصل إلى بطنيهما. حدّقا فينا بهدوء، وكأننا فاجأناهما أثناء ممارسة طقس لا نستطيع إدراك كنهه. كانت السماء مظلمة، فلم أعرف إن كانا الفتاتين اللتين سبق أن جاءتا إلى هنا من التشيك في الخريف، أم إنهما غزالان جديدان. ثم لماذا أتحدّث عن اثنين فقط؟ تلك المرة كان هناك على الأقل أربعة منهم.

«ارجعوا إلى دياركم»، كذلك قلت للغزلان، وجعلتُ ألوّح بذراعيّ. انتفضوا لكنهم لم يتحركوا من مكانهم. ظلوا يحدّقون فينا، طوال الطريق إلى الباب الأمامي. وسَرَت في جسدي رعشة.

في هذه الأثناء كان غريب الأطوار يدقّ قدميه لينفض الثلج عن حذائه خارج البيت الريفي المهمَل. كانت النوافذ الصغيرة محكمة الإغلاق

بالبلاستيك والورق المقوّى، والباب الخشبي مغطًّى بورق القطران الأسود.

كانت أخشاب الوقود مكدَّسة بحذاء حوائط الصالة؛ كتل خشبية متفاوتة الأحجام. أما الداخل فكان بغيضًا، قذرًا، ومهمَلًا. في كل مكان انتشرت رائحة الرطوبة، رائحة خشب وتربة، مخضّلة بالماء ونهِمة للمزيد. وكانت نتانة الدخان، الذي يبلغ من العمر سنوات، قد استقرّت على الحوائط في طبقة شحمية.

كان باب المطبخ مواربًا، وسرعان ما رأيتُ جسد القدم الكبيرة راقدًا على الأرض. وما إن وقعت عليه نظرتي، حتى ارتدّت بعيدًا عنه. ومرّت برهة قبل أن أتمكن من النظر إليه ثانية. كان منظرًا مروِّعًا.

كان يرقد ملتويًا في وضعية غريبة، يداه على عنقه، وكأنه يصارع ليمزّق ياقةً تعتصر رقبته. تدريجيًّا، اقتربتُ منه، وكأني مُسرنَمة. رأيت عينيه المفتوحتين مثبّتتين على نقطة ما تحت الطاولة. كانت صديريته القذرة قد شُقّت من عند الحلق. بدا وكأن الجسد دخل في صراع مع نفسه، ثم خسر المعركة، ولقي مصرعه. جعلني ذلك أشعر ببرودة من فرط الرعب - تجمّد الدم في عروقي وشعرتُ أني أنسحب إلى أعماق جسدي. بالأمس فقط، رأيت هذا الجسد حيًّا.

غمغمت متسائلة: «يا ربّي! ما الذي حدث؟».

هز غريب الأطوار كتفيه.

«لا أستطيع الاتصال بالشرطة، إنها الشبكة التشيكيّة مرة أخرى».

أخرجت هاتفي المحمول من جيبي وضربت الرقم الذي حفظته من التلفاز -997- وسرعان ما أجابني صوت تشيكيّ آليّ. هذا ما يحدث هنا. تَشرد الإشارة، بلا اعتبار للحدود القومية. أحيانًا يربُض الخط الفاصل بين مشغليّ خدمة الهاتف في مطبخي لساعات لا تنتهي، ومن

حين لآخر يتوقّف بالقرب من بيت غريب الأطوار، أو في شرفته لعدة أيام. من الصعب التكهّن بنزواته.

نصحته بعد فوات الأوان، «كان الأجدر بك أن تصعد التل وراء البيت».

«سيصير يابسًا مثل لوح خشبي قبل وصولهم»، هكذا قال غريب الأطوار بنبرة لم أكن أحبّها فيه على وجه الخصوص - وكأنه يمتلك إجابات على كل شيء. خلع معطفه المصنوع من جلد الغنم وعلّقه على ظهر كرسي. «لا نستطيع أن نتركه هكذا، منظره فظيع. لقد كان جارنا في نهاية المطاف».

وإذ نظرتُ إلى جسد القدم الكبيرة البائس الملتوي، لم أصدق أني، بالأمس فقط، شعرت بالخوف من هذا الشخص. لم أكن أحبّه. بل لعلّ عبارة لم أكن أحبه تلطّف كثيرًا من مشاعري. ينبغي أن أقول إني كنت أجده منفّرًا، فظيعًا. في الحقيقة لم أنظر إليه حتى بوصفه إنسانًا. وها هو الآن يرقد على أرضية ملطّخة في ملابس داخلية متّسخة، صغيرًا ونحيفًا، رخوًا ومسالمًا. مجرد قطعة من المادة، قلّصتها عمليةٌ لا يمكن تخيلها إلى شيءٍ هشٍّ، منفصل عن كل شيء آخر. جعلني ذلك أشعر بالحزن، بالهلع، فحتى شخص خبيث مثلما كان لا يستحق الموت. ومَن ذا الذي يستحق الموت بأي حال؟ إن المصير نفسه ينتظرني، وينتظر غريب الأطوار، والغزلان في الخارج؛ ذات يوم سنصير جميعًا جثثًا هامدة.

ألقيت نظرة على غريب الأطوار، على أمل أن أتحصّل منه على بعض العزاء، لكنه كان قد انشغل بتسوية الفراش المجعّد، مَضجَع على أريكة متضعضِعة قابلة للطيّ، لذا فعلتُ ما بوسعي لمواساة نفسي. ثم خطر ببالي أن موت القدم الكبيرة قد يكون أمرًا حميدًا على نحو ما. لقد حرّره من حياته الفوضوية المضطربة. وحرّر مخلوقات حيّة أخرى منه. آه، أجل. لقد أدركتُ فجأة أيَّ خير يمكن أن يمثّله الموت، أيّ عدل وإنصاف، مثل

سائل مطهّر، أو مكنسة كهربائية. أعترف بأني فكّرت على هذا النحو، ولا زلت أفكر على هذا النحو إلى الآن.

كان القدم الكبيرة جاري، بيته يبعد عن بيتي مسافة نصف كيلومتر فقط، مع ذلك لم أتواصل معه إلا نادرًا. لحسن الحظ. عوضًا عن ذلك كنت أراه من بعيد - هيئته المصغّرة، النحيفة، المترنحة قليلًا دائمًا، تتحرّك وسط المنظر الطبيعي. كان يدمدم لنفسه وهو يمشي، وأحيانًا كانت الطبيعة العاصفة للهضبة تنقل إليّ شذرات من تلك المناجاة، البسيطة في طبيعتها، التي لا تتغير. كانت مفرداته تتكوّن بالأساس من لعنات، يدسّ وسطها بعض أسماء الأعلام.

كان يعرف كل شبر من هذه المنطقة، إذ يبدو أنه وُلد هنا ولم يذهب قطّ إلى أبعد من كودزكو. كان يعرف الغابة عن ظهر قلب - أي أجزاء منها يستطيع استغلالها لكسب المال، ما الذي يستطيع بيعه ولِمَن. الفِطر، العنب البرّي، الخشب المسروق، هشيم الأغصان لإشعال النار، المصائد، الرالي السنوي للطرق الوعرة، الصيد. لقد احتضنَت الغابة هذا العفريت الصغير. لذا كان الأجدر به أن يحترم الغابة، لكنه لم يحترمها. في شهر أغسطس من إحدى السنين، عندما ضرب الجفاف أراضينا، أشعل النار في رقعة كاملة غنيّة بالعنب البري. هاتفتُ المطافئ، لكن لم يتسنَّ إنقاذ الكثير. لم أعرف أبدًا لماذا فعل ذلك. في الصيف كان يخرج ليتسكّع وفي يده منشار، يقطع الأشجار المليئة بالنَّسغ. عندما نبّهته بأدب، مع أني وجدت صعوبة في السيطرة على غضبي، أجابني بأبسط الكلمات: «اغربي عن وجهي، يا حَيْزبون». لكن بلفظ أكثر وقاحة. كان يخطِّط دائمًا لسرقة ما، اختلاس ما، تحايل ما، لكي يدبِّر لنفسه مالًا إضافيًا؛ عندما يترك نزلاء الصيف مصباحًا يدويًا أو مقصَّ تقليم أشجار في الفناء، كان القدم الكبيرة يتشمّم الفرصة على الفور وينهب تلك الأغراض التي يستطيع بيعها في المدينة بعد ذلك. في رأيي كان ينبغي

إنزال عقوبات عدة به، بل وإرساله إلى السجن. لا أعرف كيف أفلَتَ بكل أفعاله تلك. ربما كان بعض الملائكة يحرسونه، إذ يتواجد هؤلاء في الجانب الخطأ أحيانًا.

كذلك عرفت أنه كان يمارس الصيد الجائر بكل طريقة ممكنة. كان يعامل الغابة باعتبارها مزرعته الشخصية - كل شيء هناك ملكه. كان سلّابًا نهّابًا.

بسببه، جافاني النوم لياليَ طويلة. كنت أرقد مستيقظة من قلّة الحيلة. وفي عدة مرات هاتفتُ الشرطة - عندما يجيب الهاتف أخيرًا، كانت شكواي تُستقبل بأدب، لكنٍ لا شيء يحدث بعد ذلك. يواصل القدم الكبيرة جولاته المعتادة، معلِّقًا مجموعة من المصائد على ذراعه، وهو يطلق صرخات مشؤومة. مثل جنّي صغير شرير، خبيث يصعب توقّع أفعاله. كان دائمًا مخمورًا بدرجة ما، ولعل ذلك ما حفّز مزاجه اللئيم. يمضي وهو يغمغم ويضرب جذوع الأشجار بعصًا، وكأنما ليزيحها عن طريقه؛ وبدا أنه قد وُلد في حالة من السكْر الخفيف. كثيرًا ما مشيتُ في أثره أجمع المصائد السلكية البدائية التي ينصبها للحيوانات، الأنشوطات المربوطة إلى أشجار صغيرة ثُنيت بطريقة تجعل الحيوان الواقع في المصيدة يُقذف إلى أعلى، وكأنما بمنجنيق، ليتدلى في الهواء. أحيانًا كنت أجد حيوانات ميتة - أرانب برية، وغرير، وغزلان.

قال غريب الأطوار: «يجب أن ننقله إلى الأريكة».

لم تعجبني الفكرة. لم تعجبني فكرة لمسه.

قلت: «أظن الأفضل أن ننتظر الشرطة».

غير أن غريب الأطوار كان قد أفرغ بالفعل مساحة على الأريكة القابلة للطي، وكان يشمِّر كمّي سترته. رمقني بنظرة ثاقبة بعينيه الشاحبتين هاتين. «لن تحبّي أن يعثروا عليكِ هكذا، أليس كذلك؟ في تلك الحالة. إنه أمر غير إنساني».

آه نعم، جسد الإنسان غير إنساني بلا ريب. خاصة وهو ميت.

أليس من قبيل المفارقة المشؤومة أن نضطر الآن إلى التعامل مع جسد القدم الكبيرة؛ أنه ترك لنا هذه الورطة الأخيرة؟ نحن، جيرانه، الذين لم يُبدِ لنا أي احترام، ولا أي حب، ولا شغَلَ نفسه بنا بأيّ قدر.

الموت، في رأيي، ينبغي أن يعقبه اندثارٌ للمادة. كان ذلك سيصير الحل الأفضل للجسد. بهذه الطريقة، ترجع الأجساد المندثرة مباشرة إلى الثقوب السوداء التي جاءت منها. وتسافر الأرواح في الضوء بسرعة الضوء. إن كان ثمة وجود للأرواح.

تغلّبتُ على نفور هائل، وفعلتُ ما طلبه غريب الأطوار. أمسكنا بالجسد من الساقين والذراعين ورفعناه إلى الأريكة. لدهشتي وجدته ثقيلًا، ليس هامدًا بالكامل، لكنه متيبس بعناد، مثل ملاءة سرير منشّاة خرجت للتو من ملّاسة الثياب. كذلك رأيت جوربه، أو ما كان في قدميه بدلًا من الجورب - أسمال قذرة، لُفافات أقدام مصنوعة من ملاءة مُزقت إلى شرائط، وقد صارت الآن رمادية وملطّخة. لا أعرف السبب، غير أن منظر تلك اللفافات صدمني بقوة في صدري، في الحجاب الحاجز، في جسدي بأكمله، حتى لم أعد قادرة على كتمان نشيجي. رماني غريب الأطوار بنظرة باردة عابرة، تحمل توبيخًا واضحًا.

«يجب أن نُلبسه قبل وصولهم»، كذلك قال غريب الأطوار، ولاحظت أن ذقنه ترتعش هي الأخرى لرؤية هذا البؤس الإنساني (وإن رفض الاعتراف بذلك لسبب ما).

هكذا، حاولنا أولًا أن نخلع عنه صديريته، القذرة ذات الرائحة النتنة، لكنها رفضت بعناد أن تُسحب من فوق رأسه، لذا أخرج غريب الأطوار مطواة متعدّدة الاستخدامات من جيبه ومزّق القماش فوق الصدر. الآن، صار القدم الكبيرة راقدًا نصف عارٍ أمامنا على الأريكة، مُشعرًا مثل غول، تملأ الندوب صدره وذراعيه، وتغطيه الوشوم؛ وشوم لم أستطع فهم أيٍّ

منها. كانت عيناه تضيقان على نحو ساخر بينما جعلنا نفتِّش في دولاب الملابس المكسور بحثًا عن شيء لائق نُلبسه إياه قبل أن يتيبّس جسده إلى الأبد ويرجع إلى ما كان عليه حقًّا - مجرد كتلة من المادة. وبرز لباسه الداخلي الممزق من سروال رياضي فضّي جديد تمامًا.

بحرص، فككتُ لفافات القدم الكريهة، ورأيت قدميه. أصابتني بالذهول. لطالما اعتبرتُ الأقدام الجزء الأكثر حميمية وشخصية من أجسادنا، لا الأعضاء التناسلية، ولا القلب، ولا حتى المخ، وهي أعضاء بلا أهمية كبيرة يُسبغ عليها الناس قيمة لا تستحقها. الأقدام هي المحلّ الذي تختبئ فيه كل معرفة الإنسان؛ إليها يتقاطر من الجسد إدراكٌ عظيم المغزى حول طبيعتنا الحقّة وعلاقتنا بالأرض. في لمسة الأرض، في نقطة تماسها مع الجسد، يكمن اللغز بأكمله -حقيقة كوننا مجبولين من المادة، وفي الوقت نفسه غرباء عليها، منفصلين عنها. الأقدام- هذه هي قابسنا الذي يَدخل في المِقبس. والآن، منحتني هاتان القدمان العاريتان دليلًا على أن أصله مختلف. لا يمكن أن يكون إنسيًّا. لا بد أنه هيئة لا اسم لها، واحدة من تلك التي -كما يخبرنا بليك- تذيب المعادن إلى اللانهائية، تحوّل النظام إلى فوضى[1]. ربما كان شيطانًا من نوع ما. المخلوقات الشيطانية تُعرف دائمًا من أقدامها، تَدبّ على الأرض بأثر مختلف.

---

(1) تذيب المعادن...: الإشارة إلى مقطع من قصيدة «زواج الجنة والجحيم» -المعقدة ذات المعاني الملتبسة- لوليام بليك، التي يصف فيها، على غرار دانتي في «الكوميديا الإلهية» ومِلتون في «الفردوس المفقود»، ما رآه في الجحيم. وتستلهم الراوية هنا وصفه للحجرتين الخامسة والسادسة من «مطبعة» في الجحيم، حيث رأى في الرابعة «أسودٌ من لهيب متأجج» تذيب المعادن وتحوِّلها إلى «سوائل حية»، وفي الخامسة «هيئات لا اسم لها»، تَسبك من تلك المعادن مدًى شاسعًا لا حدود له. (المترجم)

هاتان القدمان -الطويلتان جدًا إنما ضيقتان، ذواتا الأصابع النحيلة والأظافر السوداء الشائهة- بدا وكأنهما خُلقتا للتعلّق بالأشجار. كان الإصبع الكبير ينتصب بمعزل عن بقية الأصابع، مثل إبهام في اليد. كانتا مغطاتين بشعر أسود كثيف. هل رأى أحدٌ شيئًا مثل هذا من قبل؟ تبادلنا النظرات أنا وغريب الأطوار.

في دولاب الملابس الخالي تقريبًا وجدنا بدلة بلون القهوة، مبقّعة بعض الشيء، لكن من الواضح أنها لم تُلبَس كثيرًا. لم يسبق لي أن رأيته فيها. كان القدم الكبيرة يتجوّل دائمًا في حذائه اللبّاد الغليظ وبنطاله المهترئ، الذي كان يرتدي معه قميصًا بمربّعات وصديرية مبطّنة، في جميع أوقات السنة.

كان إلباس الميت أشبه بملاطفةٍ من نوع ما. لا أظنه تمتّع بلمسات حنون كهذه في حياته. رفعناه برقّة من الذراعين وأدخلنا لباسه من رأسه وسحبناه إلى أسفل. عندما استراح ثقله على صدري، وبعدما ضربتني موجة من التقزّز الطبيعي الهادئ فأصابتني بالغثيان، خطر لي فجأة أن أحتضن هذا الجسد، أن أربّت على ظهره، أن أهدهده وأقول له: لا تقلق، كل شيء سيكون على ما يرام. لكن، نظرًا لوجود غريب الأطوار لم أفعل شيئًا من هذا. إذ لربما ظنّني منحرفة.

هكذا، تحوّلت إيماءاتي المجهضة إلى أفكار، وبدأت أشعر بالحزن على القدم الكبيرة. ربما هجرَته أمه، وعاش تعيسًا طيلة حياته البائسة. سنوات الشقاء الطويلة تجعل الشخص يتردّى أسوأ من مرض عضالٍ. لم يسبق لي قط رؤية زوّار في بيته، ولم يظهر له لا أقارب ولا أصدقاء. حتى جامعي الفِطر لم يتوقّفوا أمام بيته للحديث معه. كان الناس يخافونه ولا يحبونه. ويبدو أنه لم يرافق إلا الصيادين، لكن حتى ذلك كان نادرًا. أستطيع القول إنه كان في نحو الخمسين من عمره؛ وكنت مستعدة لأن

أدفع الكثير لأعرف منزله الثامن، وما إن كان نبتون وبلوتو مقترنَيْن هناك في «مجانبة»، مع وجود المريخ في مكان ما في البرج **الصاعد**[1]، إذ كان يذكّرني، حين يحمل ذلك المنشار المسنّن بيديه قويّتَي العَصَب، بوحش مفترس لا يعيش إلا لكي ينشر الموت ويوقع العذاب.

لكي نلبسه سترته، رفعه غريب الأطوار إلى وضعية الجلوس، وعندها لاحظنا أن لسانه الكبير المنتفخ يحبس وراءه شيئًا داخل فمه. لذا، بعد تردد قصير، وبعد أن عضضت على أسناني في تقزز وسحبت يدي عدة مرات، التقطتُ بحرص طرف شيء ما، تبيّن لي أنه عَظْمة صغيرة، طويلة ورفيعة، حادة مثل خنجر. انبعثَت قرقرة من حلق الميت، مصدرة صفيرًا خفيضًا، أشبه بتنهيدة. قفزنا إلى الوراء بعيدًا عن الجثة، وإني واثقة أن غريب الأطوار شعر بنفس ما شعرت به: الرعب. خاصة بعدها بثوانٍ، عندما ظهر دمٌ أحمر داكن، أسود تقريبًا، في فم القدم الكبيرة. وراحت تسيل منه قطرات بغيضة.

تجمدنا في مكاننا مذعورَيْن.

«طيّب، لم يسبق لي أن...»، ارتعش صوت غريب الأطوار. «لقد اختنق. اختنق بعظْمة، العظمة انحشرت في حلقه، العظمة علقت في حلقه، لقد اختنق»، ظلّ يكرّرها بعصبية. ثم قال، وكأنما ليهدئ نفسه: «لنرجع إلى العمل. ليست مهمة سارّة، لكنّ واجباتنا تجاه جيراننا ليست سارّة دائمًا».

لاحظت أنه نصّب نفسه مسؤولًا عن وردية هذه الليلة، فسايَرته.

---

(1) المنزل: مثلما يقسم الفلكيون السماء إلى بروج، يقسمونها أيضًا إلى منازل (بيوت)، ويتحدّد منزل الشخص الأول بلحظة ومحلّ ميلاده، ومن ثم تُحسب منازله التالية (عادة ما تكون 12 منزلًا)، ويستخدم الفلكيون هذه المنازل والكواكب الموجودة فيها للتكهن بالسمات الشخصية. البرج الصاعد: الذي يظهر في الأفق لحظة الميلاد. (المترجم)

انصرفنا كليًا إلى تلك المهمة المجحودة، المتمثّلة في حشر القدم الكبيرة داخل البدلة التي بلون القهوة، وإرقاده في وضعية تحفظ كرامته. كان قد مرّ وقت طويل منذ آخر مرة لمستُ فيها جسد شخص آخر، ناهيك عن جسد ميت. شعرتُ بالهمود يسري فيه سريعًا فيصير أكثر تصلبًا لحظة بعد أخرى؛ لذا، كنا في عجَلة من أمرنا. وإذ صار القدم الكبيرة مستلقيًا هناك في أبهى حلله، كان وجهه قد فقد أخيرًا كل تعبير إنساني – صار جثة، من دون شك. فقط سبابته اليمنى رفضت الانصياع للوضعية التقليدية المهذّبة حيث تتشابك اليدان، وظلت تشير إلى أعلى، وكأنما لتلفت انتباهنا وتوقِف جهودنا المتوتّرة، المتعجّلة، للحظات. قالت السبابة: «الآن انتبها! الآن انتبها، ثمة شيء لا تريانه هنا، نقطة البداية المحورية لسيرورة خفية عنكما، لكنها تستحق أكبر قدر من الانتباه. بفضلها تقابلنا جميعًا هنا في هذا المكان في هذا الوقت، في بيت ريفي صغير فوق الهضبة، وسط الثلج والليل – أنا كجسد ميت، وأنتما كائنين من البشر التافهين الشائخين. لكنها مجرد بداية. الآن فقط يبدأ كل شيء».

هناك وقفنا في الغرفة الباردة الرطبة، في الخواء الصقيعي المهيمن في هذه الساعة البليدة الرمادية من الليل، وخطر ببالي أن الشيء الذي يغادر الجسد يَشفط قطعة من العالم وراءه، وسواءً كان صالحًا أم طالحًا، سواءً كان مذنبًا أم بريئًا طاهرًا، يخلّف وراءه فراغًا كبيرًا وعظيمًا.

نظرتُ من النافذة. كان الفجر يبزغ، وكانت نِدَف كسولة من الثلج تملأ العدم تدريجيًا. تتساقط ببطء، تتمايل في طريقها وسط الهواء وتدور حول محاورها مثل الرِّيش.

الآن، كان القدم الكبيرة قد رحل عن عالمنا، لذا صار صعبًا أن أشعر تجاهه بأي قدر من الشفقة أو الكراهية. كل ما تبقى كان ذلك الجسد، الخالي من الحياة، المكسو بالبدلة. الآن بدا هادئًا وراضيًا، وكأن الروح

صارت سعيدة لأنها تحرّرت أخيرًا من المادة، وصارت المادة سعيدة لأنها تحررت أخيرًا من الروح. في هذه المسافة القصيرة من الزمن كان طلاقٌ ميتافيزيقيٌّ قد وقع. النهاية.

جلسنا في مدخل المطبخ المفتوح، وتناول غريب الأطوار زجاجة فودكا نصف ممتلئة كانت على الطاولة. عثر على كوب صغير نظيف فملأه - لي أولًا، ثم لنفسه. خارج النوافذ المغطاة بالثلج، كان الفجر يُشقشق تدريجيًا، أبيض حليبيًا مثل مصابيح المستشفيات، وفي وهجه رأيت أن غريب الأطوار لم يكن حليقًا؛ كانت لحيته النابتة في بياضِ شَعري، ولم تكن المنامة المخطّطة الباهتة، البارزة من تحت معطفه المصنوع من جلد الغنم مُزرَّرة، بينما كان المعطف نفسه ملوثًا بكل ما يمكن تخيّله من أصناف البقع.

كرعتُ جرعة كبيرة من الفودكا، دفّأتني من الداخل.

«أظن أننا أنجزنا واجبنا تجاهه. مَن غيرنا كان سيفعل ذلك؟»، كذلك قال غريب الأطوار، لنفسه أكثر مما لي. «كان ابن حرام صغيرًا شقيًا، لكن ما الفارق؟».

صبّ لنفسه جرعة أخرى وشربها دفعةً واحدةً، ثم ارتجف مشمئزًا. بدا واضحًا أنه غير معتاد عليها.

قال: «سأجري تلك المكالمة»، ثم خرج. ظننتُ أنه لا بدّ يشعر بدوخة.

نهضتُ، وشرعتُ أتفحّص الفوضى الرهيبة على أمل العثور على بطاقة هوية القدم الكبيرة. أردت أن أعرف تاريخ ميلاده، لكي أحسب حاصل نقاطه.

فوق طاولة مغطاةٍ بمفرشٍ بالٍ من المشمّع رأيت صينية شواء تحتوي على قطع محترقة من حيوان ما؛ في طنجرة صلصة إلى جوارها كان بعضٌ من حساء جذور الشمندر، تغطّيه قشرة رقيقة من الدسم الأبيض. شريحة

من رغيف خبز، زبدة ملفوفة في ورق ألومنيوم ذهبي. على الأرض، المغطاة بمشمّع ممزّق، تناثر المزيد من رفات الحيوان؛ لقد سقطت من فوق الطاولة، ومعها صحن، وكوب وبعض البسكويت المكسّر. وكل ذلك داسته الأقدام فَهَرسته في الأرضية القذرة.

في تلك اللحظة، على صينية من القصدير فوق عتبة النافذة، وقع بصري على شيء استغرق عقلي بعض الوقت لتمييزه، وسط مسعاه للتهرّب؛ كان رأس غزال قُطع بمهارة. وإلى جواره أربعة حوافر صغيرة. لا بد أن العينين نصف المفتوحتين ظلتا تتابعان جهودنا عن كثب طوال الوقت.

آه، نعم، كانت واحدة من هاتِه الفتيات الجائعات اللاتي يستسلمن في الشتاء لغواية التفّاح المجمَّد، فيَعلِقن في المصائد ويَقضين في عذاب، بعد أن يختنقن بالأسلاك.

وإذ أدركتُ شيئًا فشيئًا ما حدث هنا، بدأ الرعب يجتاحني. لقد اصطاد الغزالة بمصيدة، وقتلها، ثم ذبحها، وشواها وأكل جسدها. مخلوق التهم مخلوقًا آخر، في صمت الليل وسكونه. لم يعترض أحد، لم تَنزل صاعقة. مع ذلك حلّ العقاب بالشيطان، ولو من دون يدٍ تُوجّه الموتَ وترشده.

سريعًا، بيدين مرتعشتين، لملمتُ الرفات، هذه العظام الصغيرة المسكينة، في بقعة واحدة، في كومة، لكي أدفنها لاحقًا. عثرتُ على كيس قديم، وشرعت أضع هذه العظام الصغيرة، واحدة بعد أخرى، داخل الكفن البلاستيكي. ثم وضعت الرأس بحرص في الكيس.

كنت متلهِّفة لمعرفة تاريخ ميلاد القدم الكبيرة، فشرعت أبحث في عصبية عن بطاقة هويته - فوق الخوان الجانبي، بين بعض الأوراق، وصفحات من روزنامة، وجرائد، ثم داخل الأدراج؛ هذا هو المكان الذي تُحفظ فيه الوثائق في البيوت الريفية. وبالفعل كانت هناك - في

غلاف أخضر مهترئ، وقد انتهت صلاحيتها الآن بكل تأكيد. في الصورة كان القدم الكبيرة في العشرينيات من عمره، له وجه مستطيل، مقسوم إلى نصفين غير متماثلين، وعينان تخزِّران أمام الكاميرا. لم يكن شكله يسرّ الناظرين، حتى في ذلك الزمن. بعَقِب قلم رصاص دوّنتُ تاريخ ومحل الميلاد. وُلد القدم الكبيرة في 21 ديسمبر 1950. هنا، في هذا المكان ذاته.

وينبغي أن أضيف أني وجدت شيئًا آخر في ذلك الدُّرج: رزمة من الصور الفوتوغرافية، حديثة نوعًا ما، بالألوان. جعلت أقلِّب فيها، فقط بوحي من العادة، غير أن إحداها لفتت انتباهي. أمعنت النظر فيها، وكدت أضعها جانبًا. واستغرقتُ لحظة لكي أفهم ما أنظر إليه. فجأة حلّ صمت مطبق، ووجدتُني وسط المشهد مباشرة. حدقتُ في الصورة. توتَّر جسدي، صرت جاهزة لخوض معركة. بدأ عقلي يدور، وارتفع أنين مُقبض في أذني، هدير، وكأن جيشًا من آلاف الجنود يزحف من وراء الأفق - أصوات بشر، صلصلة حديد، قعقعة عجلات في البعيد. **الغضب** يجعل الذهن صافيًا وماضيًا، أحدّ رؤية. يعصف بالمشاعر الأخرى ويسيطر على الجسد. **الغضب**، من دون شك، هو مصدر كل حكمة، إذ يمتلك **الغضب** القدرة على تجاوز كل الحدود.

بيدين مرتعشتين وضعتُ الصور في جيبي، وعلى الفور سمعتُ كل شيء يتقدم إلى الأمام، محرّكات العالم تدور وآليّاته تنطلق - صرّ بابٌ، وقعَت شوكةٌ على الأرض. سالت الدموع من عينيّ.

كان غريب الأطوار يقف بالباب.

«لم يكن يستحق دموعك». كانت شفتاه مزمومتين وهو يركّز على ضرب الرقم. قال: «ما زلنا مع مشغّل الخدمة التشيكي. سيكون علينا أن نصعد التل. هل تأتين معي؟».

أغلقنا الباب خلفنا بهدوء ومضَيْنا قدمًا، نخوض في الثلوج. على قمة

التل، بدأ غريب الأطوار يدير مِحوره وهو يمسك بهاتف محمول في كل من يديه المرفوعتَيْن، بحثًا عن إشارة. كان وادي كودزكو بأكمله ينبسط أمامنا، مغمورًا بوهج الفجر الفضي الشاحب.

«ألو، يا ولدي»، كذلك تحدّث غريب الأطوار في الهاتف. «أتمنى ألا أكون أيقظتك من النوم».

ردّ عليه صوت مكتوم بجواب لم أتبيَّنه.

«المسألة أن جارنا مات. أظنه اختنق بعظْمة. قبل قليل. أثناء الليل».

تحدث الصوت على الطرف الآخر مجدّدًا.

«لا. سأتصل بهم الآن. لم تتوفر إشارة. السيدة دوشيكو وأنا ألبسناه بالفعل، إنها جارتي الأخرى» -عند تلك النقطة رمقني بنظرة- «لكي لا يتيبّس...».

سمعتُ الصوت مجددًا، وقد بدا أكثر عصبية.

«طيّب، على أي حال، إنه في بدلة الآن...».

ثم بدأ الشخص على الطرف الآخر يبربر طويلًا، وهكذا أبعد غريب الأطوار الهاتف عن أذنه، وهو ينظر إليه في نفور.

بعدها، اتصلنا بالشرطة.

II

توحُّد التستوستيرون

كلبٌ تركه سيِّده يتضوَّرُ بالباب
يُنذر الدولة كلّها بالخراب.

امتننتُ لدعوته كي أتناول مشروبًا ساخنًا في بيته. كنت أشعر بأني مستنزَفة تمامًا، وفكرة اضطراري للعودة إلى بيتي البارد الخالي جعلتني أشعر بالحزن.

قلت أهلًا لكلبة القدم الكبيرة، التي ظلّت مقيمة عند غريب الأطوار طيلة الساعات القليلة الماضية. تعرَّفَت عليَّ وظهر عليها السرور لرؤيتي. هزت ذيلها - بعد مرور ذلك الوقت، لعلها نسيت أيام كانت تهرب مني. بعض الكلاب تتصرّف بسخف أحيانًا، تمامًا مثل البشر، وهذه الكلبة كانت بالتأكيد واحدة من هؤلاء.

جلسنا في المطبخ إلى طاولة خشبية، نظيفة جدًّا حتى إنك تستطيع أن تضع خدّك عليها. وهذا ما فعلتُه.

سألني: «هل أنت متعَبة».

كل شيء هنا كان نظيفًا ولامعًا، دافئًا وحميمًا. يا لها من بهجة في الحياة أن يكون لديك مطبخ نظيف، دافئ. لم أتمتّع بمثل ذلك قط. لم أكن ماهرة قط في تنظيم الأشياء من حولي. أمر سيئ للغاية - غير أني تصالحت معه.

قبل أن تسنح لي فرصة النظر حولي، كان كوبٌ من الشاي قد وُضع

أمامي. كان داخل سلّة معدنية صغيرة لها يد صغيرة، وفوق صحن صغير. وكانت ثمة مكعبات سكّر في السكّرية - وهو منظر ذكّرني بساعات طفولتي السعيدة، وحسَّن بحقّ من مزاجي الكئيب.

«ربما ما كان ينبغي علينا تحريكه من مكانه»، كذلك قال غريب الأطوار، وفتح دُرْجًا في الطاولة ليُخرج ملعقتين.

ظلت الكلبة بالقرب من قدميّ غريب الأطوار، وكأنها ترفض أن تتركه يغادر مدار جسدها الصغير المهزول.

«ستجعلينني أسقط»، قال لها بمودّة فظّة. أدركتُ أنها المرة الأولى التي يستضيف فيها كلبًا، وأنه لا يعرف كيف يتصرّف.

«ماذا ستسميها؟»، كذلك سألته عندما أدفأتني أولى رشفات الشاي من الداخل، وبدأ خليط المشاعر العالق في حلقي يذوب قليلًا.

هز غريب الأطوار كتفيه. «لا أعرف، ربما رهوانة، أو رمّانة».

لم أقل شيئًا، لكن لم يعجبني ذلك. لم تكن أسماءً مناسبة لهذه الكلبة، بالنظر إلى تاريخها الشخصي. ينبغي التفكير في شيء آخر.

يا له من فقر في الخيال أن يتّخذ الناس أسماءً وألقابًا. لا أحد يتذكرها، فهي منبتّة الصلة عن الشخص، وشديدة السخف كونها لا تذكّرنا به على الإطلاق. وفوق ذلك، يخرج كل جيل باتجاهاته الخاصة، فنجد الجميع وقد صاروا فجأة يسَمّون ماغدالينا، أو باتريك، أو -حاشا لله- جانينا. لهذا السبب أبذل قصارى جهدي كيلا أستخدم الأسماء والألقاب أبدًا، بل أفضِّل الكُنى التي تخطر ببالي من تلقاء نفسها فور أن أرى شخصًا ما. وإني متأكدة أنها الطريقة الصحيحة لاستخدام اللغة، بدلًا من إلقاء كلمات مجرّدة من كل معنى هنا وهناك. غريب الأطوار، مثلًا، لقبه شفيرستنزكي - هذا هو الاسم المكتوب على بابه الأمامي، بادئًا بحرف Ś. هل يصح أن يبدأ الاسم حقًّا بحرف Ś؟ كان يقدّم نفسه دائمًا باسم شفيرستنزكي، لكنه لا ينتظر منا بكل تأكيد أن نلوي ألسنتنا لكي نحاول

نطقه. أعتقد بأن كلًّا منا يرى الشخص الآخر بطريقته الخاصة، لذا ينبغي أن نعطيهم الاسم الذي نعتبره مناسبًا ولائقًا. إذًا فنحن متعددو الأسماء. لدينا أسماءٌ بعدد البشر الذين نتفاعل معهم. اسمي الخاص بشفيرستنزكي هو غريب الأطوار، وأظنه يعكس خصائصه على نحو جيد.

لكن الآن، أول ما خطر ببالي وأنا أحدق في الكلبة كان اسمًا بشريًّا، ماريسيا. ربما تيمنًا بالطفلة اليتيمة في قصة الأطفال الكلاسيكية - كانت ضامرة ومهزولة.

سألته: «لن تسميها ماريسيا، أليس كذلك؟».

أجاب: «ربما. نعم، صحيح. اسمها ماريسيا».

تسمية القدم الكبيرة حدثت بالطريقة نفسها. كانت مسألة بسيطة ومباشرة - اقترح نفسَه عليّ عندما رأيت آثار أقدامه الكبيرة في الثلج. بادئ ذي بدء، كان غريب الأطوار قد أطلق عليه اسم «الأشعث»، بيدَ أنه استعار مني اسم القدم الكبيرة لاحقًا. معنى ذلك أني اخترت له الاسم الصحيح.

لسوء الحظ، لم يسعني اختيار اسمٍ لائق لنفسي. أنظر إلى الاسم المكتوب في بطاقة هويتي باعتباره خطأً سافرًا، وظلمًا بيّنًا - «جانينا». أظن اسمي الحقيقي إيميليا، أو جوانا. أحيانًا أظنه أشبه بـ إرمترود أيضًا. أو بيلونا. أو ميديا.

من ناحية أخرى، صار غريب الأطوار يتجنّب مناداتي باسمي كما يتجنّب الطاعون. وهذا يعني لي الكثير. على نحو ما، يجد دائمًا طريقة لمخاطبتي بضمير «أنتِ».

سألني: «هل تنتظرين معي إلى أن يصلوا».

«بالتأكيد»، سارعتُ بالموافقة، وأدركت أني لم أجد الشجاعة في نفسي من قبل لكي أخاطبه باسم غريب الأطوار في وجهه. جيران القُربى لا يحتاجون إلى أسماء لمخاطبة بعضهم بعضًا. عندما أمر به وأراه يزيل

الحشائش في حديقته الصغيرة، لا أحتاج إلى اسمه كي أتكلم معه. إنها درجة خاصّة من الألفة.

تتألف ضيعتنا من بضعة بيوت قائمة فوق **الهضبة**، بعيدًا عن بقية العالم. **الهضبة** هي ابنة العم البعيدة جيولوجيًا **للجبال المسطحة**، تباشيرها القَصيّة. قبل الحرب كانت مستعمرتنا تسمى لوفتسوك، بمعنى «تيار الهواء»، وإلى الآن لا تزال تحمل هذا الاسم على نحو غير رسمي، لأننا لا نمتلك اسمًا رسميًا. كل ما تستطيع رؤيته على الخريطة طريقٌ وبضعة بيوت، لا حروف. والجو هنا عاصف دائمًا، حيث تنقضّ كتلٌ هوائية على الجبال من الغرب إلى الشرق؛ من جهة التشيك. في الشتاء تصير الريح عنيفة ومجلجلة، تعوي في المداخن. في الصيف تتناثر بين أوراق الشجر وتخشخش - لا يصير الجو هنا هادئًا أبدًا. كثيرون لديهم من المال ما يسمح لهم بامتلاك بيت في المدينة، يقضون فيه العام، البيت الرسمي، وآخر -يشبه بيتًا عابثًا، طفوليًا- في الريف. وعلى هذا النحو أيضًا تظهر البيوت - طفولية؛ صغيرة ومدكوكة، لها أسقف شديدة الانحدار ونوافذ بالغة الصغر. أقيمت كلها قبل الحرب وشيّدت بالطريقة نفسها: جداران طويلان يواجهان الشرق والغرب، وجدار قصير يواجه الجنوب، وآخر، تتصل به حظيرة، يواجه الشمال. وحده بيت «الكاتبة» يشذّ بعض الشيء - أُلحقت به شرفات وبلكونات من كل جانب.

ولا عجب أن معظم الناس يغادرون **الهضبة** في الشتاء. إذ تصير المعيشة هنا صعبة بين شهري أكتوبر وأبريل، مثلما أعرف جيدًا. كل عام تنهمر ثلوج كثيفة، وتَنحت منها الريح ركامات وكثبانًا. ولقد جعلَت التغيرات المناخية الأخيرة كل شيء أدفأ، إلا **هضبتنا**. بل بالعكس، خاصة في فبراير، عندما يهطل الثلج بكثافة أشدّ ويبقى في مكانه لمدة أطول. في مناسبات عديدة أثناء الشتاء تنخفض درجة الحرارة إلى

عشرين تحت الصفر، ولا ينتهي الموسم حقًّا إلا في أبريل. الطريق سيئ، والصقيع والثلج يدمران كل ما يحاول المجلس المحلي إصلاحه بموارده المحدودة. من أجل الوصول إلى الأسفلت ينبغي عليك قيادة سيارتك لمسافة أربعة كيلومترات على طريق ترابي مليء بالحفر، لكن لا داعي لذلك على كل حال، فالحافلة المتجهة إلى كودوفا تغادر كل صباح من أسفل التل وترجع بعد الظهر. في الصيف، عندما يحصل الأطفال المحليون الشاحبون القلائل على عطلتهم المدرسية، تتوقّف الحافلات عن المسير. في القرية ثمة طريق سريع يحوِّلها بخفّة، مثل عصًا سحرية، إلى ضواحي بلدة صغيرة. فإن أردت، يمكنك أن تسلك ذلك الطريق السريع إلى فروتسلاف أو التشيك.

لكنها ظروف مثالية للبعض. وسوف نجد الكثير من الفرضيات إن أردنا تسلية أنفسنا بالنظر في الأمر. وسوف يقترح علم النفس وعلم الاجتماع الكثير من مسارات الاستقصاء الممكنة، غير أني لا أجد الموضوع مثيرًا على الإطلاق.

مثلًا، أنا وغريب الأطوار نقابل الشتاء بوجه جريء. يا لها من عبارة سخيفة: «نقابل بوجه جريء»؛ الحقيقة أننا نمدّ فكّنا السفلي وكأنما نستعد للعراك، مثل هؤلاء الرجال الذين يقفون فوق الجسر في القرية. إذا استفزّتهم عبارة تفتقر إلى اللياقة، يردّون بعدوانية: «ماذا تقصد؟ هِه؟». بطريقة ما، نحن نستفز الشتاء أيضًا، لكنه يتجاهلنا، تمامًا مثل بقية العالم. عجائز غريبو الطباع. بوهيميّون مثيرون للشفقة.

هنا يؤدّي الشتاء عملًا رائعًا، يتمثّل في لفّ كل شيء بصوف قطني أبيض، وتقصير النهارات بقدر الإمكان، لذا إذا أخطأتَ وظللتَ ساهرًا إلى وقت متأخر، ربما استيقظتَ في غبشة عصر اليوم التالي، وهو الأمر الذي ظل يحدث لي -أعترف صراحة- على نحو متزايد منذ العام الماضي. هنا، تمتد السماء فوق رؤوسنا داكنة وواطئة، مثل شاشة

متّسخة تتقاتل عليها السحابات في معارك حامية الوطيس. وهذه فائدة بيوتنا - تحمينا من السماء، وإلا كانت ستتغلغل في أعماق أجسادنا، حيث تستقر روحنا، إن كان لذلك الشيء من وجود، مثل كرة زجاجية صغيرة.

لا أعرف ما الذي يفعله غريب الأطوار في الشهور المظلمة، فالتواصل بيننا ليس قويًا، ولو أني سأكون صريحة وأقول إني كنت أتمنى المزيد. نتصادف مرة كل بضعة أيام، وعندها نتبادل بضع كلمات كتحية. لم ننتقل إلى هذا المكان لكي نتبادل دعوات الشاي. اشترى غريب الأطوار بيته بعد أن اشتريتُ بيتي بعام واحد، ويبدو أنه كان قد قرر بدء حياة جديدة، مثل أي شخص نفدت أفكاره وحيَله للحياة القديمة. والظاهر أنه كان يعمل في سيرك، وإن كنت لا أعرف إن كان محاسبًا هناك أم لاعب أكروبات. أفضّل الاعتقاد بأنه كان لاعب أكروبات، وكلما رأيته يَعرج في سيره، تخيلته في ذلك الزمن البعيد، في السبعينيات الجميلة، أثناء أداء حركة معيّنة، وقد حدث شيء جعل يده تخطئ القضيب، فسقط من حالقٍ على أرضية مغطاة بنشارة الخشب. لكن عندما أفكر أكثر، لا بد لي من الاعتراف بأن المحاسبة ليست وظيفة سيئة، وأن الولع بالنظَام الذي يُعَدّ من السمات النموذجية للمحاسبين يحظى من جانبي بكل قبول واحترام. والحق أن ولع غريب الأطوار بالنظام واضح جلي، تراه كل عين في فنائه الأمامي الصغير: حطب الشتاء يستوي مكدّسًا في مكاييل بديعة المنظر، مرتَّبة في شكل لولبي. والنتيجة مخزون أنيق ذو أبعاد ذهبية. تنظر إليه فتظنه عملًا فنيًا محليًا. عن نفسي، تصعُب عليّ مقاومة نسقها اللولبي الجميل. وكلما مررت من ذلك الطريق، أتوقّف لبرهة لكي أمتّع ناظريَّ بذلك التناسق البديع بين اليدين والعقل، الأمر الذي يعكس، ولو في شيء تافه مثل الحطب، حركة الكون المثالية.

الممشى المؤدّي لبيت غريب الأطوار مفروش بالحصى على نحو

بالغ الأناقة، وكأنه نوع خصوصيّ من الحصى، مجموعة من الأحجار الصغيرة المتطابقة، المنتقاة باليد في مصنع صخري تحت الأرض يديره عفاريت أقزام. كل طيّة من الستائر النظيفة المسدلة على النوافذ لها نفس العرض بالضبط؛ لا بد أنه يستخدم جهازًا خاصًا لذلك. والزهور في حديقته أنيقة ومنسّقة، تنتصب مستقيمة ورشيقة، وكأنها اعتادت ارتياد صالات الألعاب الرياضية.

الآن، بينما جعل غريب الأطوار يتحرّك بهمّة ونشاط في مطبخه، رأيت الترتيب البديع الذي صُفّت به الأكواب في خزانة أطباقه، والمفرش النظيف الناصع المفرود فوق ماكينة الخياطة. إذًا، لديه ماكينة خياطة أيضًا! ضغطتُ يديّ بين ركبتيّ في خِزي. كان قد مر وقت طويل منذ أن كرّستُ لهما أي عناية خاصة. آه، طيّب، لدي شجاعة الاعتراف بأن أظافري كانت قذرة بكل بساطة.

وإذ كان يُخرج الملعقتين، انكشف دُرجُه أمامي للحظة قصيرة، وعجزتُ عن إزاحة عينيّ بعيدًا عنه. كان واسعًا وقليل العمق مثل صينية. وبالداخل كانت أدوات مائدة من كل صنف ونوع، وغير ذلك من لوازم المطبخ، مرتبةً بحرص في حُجيرات منفصلة. كل منها في موضعه، ولو بدا معظمها غير مألوف لي. اختارت أصابع غريب الأطوار النحيلة عامدةً اثنتين من الملاعق سُرعان ما وُضعتا فوق منديلين أخضرين بلون الصفصاف إلى جوار كوبيْنا. جاء ذلك بعد فوات الأوان، لسوء الحظ، إذ كنت قد بدأت أشرب كوبي.

لم تكن إقامة حوار مع غريب الأطوار بالأمر اليسير. كان رجلًا نادر الكلام، ما يجعل المرء يضطرّ إلى الصمت في حضرته. والحق أن الكلام يصير مهمة عصيبة مع بعض الناس، غالبًا مع الذكور. لديّ نظرية في هذا الشأن. مع التقدّم في السن، يُصاب الكثير من الرجال

بتوحّد التستوستيرون، ومن أعراضه التراجع التدريجي في الذكاء الاجتماعي والمقدرة على التواصل الشخصي، وكذا نقص القدرة على صياغة الأفكار. الشخص الذي يُبتلى بذلك الاعتلال يصير صموتًا ويبدو هائمًا في تأملاته. يزداد اهتمامًا بالأدوات والأجهزة المختلفة، وينجذب إلى الحرب العالمية الثانية والسير الذاتية للمشاهير، وبخاصة الساسة والأشرار. قدرته على قراءة الروايات تتبخّر بالكامل تقريبًا؛ إذ يشوّش توحُّد التستوستيرون الفهم النفساني لدى الشخصية. أظن بأن غريب الأطوار كان يعاني من ذلك الاعتلال.

بيد أنه كان من الصعب مطالبة أي امرئ بطلاقة اللسان في فجر ذلك اليوم. إذ كانت عزيمتنا محطّمة تمامًا.

على الجانب الآخر، شعرت براحة عظيمة. أحيانًا، عندما يفكّر المرء بصورة أشمل، متجاهلًا تفضيلاته الذهنية المعتادة، ويضع في اعتباره الناتج الإجمالي لأفعال شخص ما، قد يَخلص إلى أن حياة ذلك الشخص لا تعود بالخير على الآخرين. أظن بأن الجميع سوف يتّفقون معي في ذلك.

طلبت كوبًا آخر من الشاي، فقط لكي تسنح لي فرصة تقليبه بالملعقة الجميلة.

قلت: «ذات مرة أبلغتُ الشرطة عن القدم الكبيرة».

للحظة توقّف غريب الأطوار عن تجفيف صحن البسكويت. سألني: «بسبب الكلبة؟».

«نعم. والصيد الجائر. وأرسلت فيه شكاوى أيضًا».

«وماذا حدث؟».

«لا شيء».

«هل تقولين إن موته أمر طيب؟».

العام الماضي، قبل الكريسماس، توجّهت بنفسي إلى الإدارة المحلية

لتقديم بلاغ في هذا الشأن. حتى ذلك الوقت، كنت قد أرسلت لهم خطابات. ولم يجبني أحد، ولو أنهم، في حقيقة الأمر، ملزمون قانونًا بالرد على استفسارات المواطنين. تبيّن أن مركز الشرطة صغير، يشبه البيوت المخصّصة للأسر المفرَدة التي شُيّدت في الحقبة الشيوعية من مواد لُملمَت من هنا ومن هناك - قبيح وحزين. وكذلك كان الجو السائد بالداخل. الجدران، المطلية بالزيت، كانت مغطاة بأوراق، كلها تحمل عناوين «إشعارٌ عمومي»؛ ويا لها من عبارة بغيضة بالمناسبة. تستخدم الشرطة الكثير من المفردات المنفّرة، مثل «جثمان» أو «معاشرة».

في معبد بلوتو هذا[1]، حاول أولًا شاب يجلس وراء حاجز خشبي أن يتخلّص مني، ثم حاول رئيسه الأكبر أن يفعل المثل. أردت أن أرى المأمور، وأصررت؛ كنت واثقة أن صبرهما سينفد في نهاية المطاف ويقودانني إلى حضرته. كان عليّ الانتظار لوقت طويل؛ وخشيت أن يغلق متجر البقالة قبل مغادرتي، وكنت أريد التسوق. إلى أن حل الغسق في النهاية، ما يعني أن الساعة كانت الرابعة تقريبًا، وأنني انتظرت لأكثر من ساعتين.

أخيرًا، قبل موعد إغلاق المركز، ظهرت امرأة شابة في الطُّرقة وقالت: «بإمكانك الدخول، يا مدام».

عندها كنت قد سرحت في أفكاري، لذا وجدت صعوبة في الرجوع إلى رشدي. تدريجيًا، لملمت شتات نفسي وأنا أتبع المرأة إلى مقابلة رسمية في الطابق العلوي، حيث يقع مكتب المأمور.

كان المأمور رجلًا بدينًا في مثل عمري تقريبًا، لكنه خاطبني وكأني

---

(1) معبد بلوتو: معبد خُصص للإله بلوتو، إله العالم السفلي، في مدينة هيرابوليس (في تركيا حاليًا). وقد شُيد فوق كهف تنبعث منه غازات سامة، فسادَ اعتقاد بأنه بوابة مرور إلى العالم السفلي. وكانت تُقدّم فيه قرابين حيوانية. والكهف صغير لا يتسع لدخول أكثر من شخص واحد. (المترجم)

أمه، أو حتى جَدّته. رماني بنظرة عابرة وقال: «اقعدي». وإذ أحسّ بأن هذه الصيغة كشفت عن أصوله الريفية، تنحنح وصوّب نفسه: «تفضلي بالجلوس، يا مدام».

سمعتُ أفكاره تقريبًا - في عقله كنت بكل تأكيد «عجوزًا ضئيلة»، وفور أن بدأ خطابي الاتهامي يستجمع قواه، «شمطاءَ سخيفة»، أو «حيزبونًا مخبولة»، أو «امرأة مجنونة». استشعرتُ اشمئزازه وهو يراقب حركاتي ويصدر حكمًا (سلبيًا) على ذوقي. لم تعجبه طريقة تصفيف شعري، ولا ملابسي، ولا افتقاري للخنوع. راح يدقّق في وجهي بنفور متزايد. غير أني عرفت عنه الكثير أيضًا - ظهر لي أنه حادّ الطباع، يشرب كثيرًا، ولديه ضعف تجاه الأطعمة الدسمة. أثناء حديثي راح رأسه الأصلع الكبير يحمرّ تدريجيًا من مؤخرة عنقه إلى قمّة أنفه، وظهرت عُقد ملحوظة من الأوعية الدموية المتمدّدة على خديه، مثل وشم غريب من تلك التي يرسمُها المجنّدون في الجيش على جلودهم. لا بد أنه اعتاد أن يأمر فيُطاع، وأنه ينجرف بسهولة مع الغضب. شخصية لها سمات المُشتري.

كذلك رأيت أنه لا يفهم شيئًا مما أقوله - أولًا، لسبب واضح: إني كنت أستخدم حججًا غريبة عليه، لكن أيضًا لأنه لا يمتلك إلا مفردات محدودة. ولأنه من ذلك النوع من الأشخاص الذين يحتقرون أي شيء لا يستطيعون فهمه.

«إنه يمثّل خطرًا على العديد من المخلوقات، البشرية وغير البشرية»، هكذا ختمتُ شكواي حول القدم الكبيرة، التي وصفتُ فيها ملاحظاتي وشكوكي.

لم يكن المأمور واثقًا إن كنت أسخر منه أم إنه يتعامل مع امرأة مجنونة. لم يكن ثمة احتمال آخر. رأيت الدم يغمر وجهه لبرهة - كان بلا شك من النوع الشحيم، الذي سوف يقضي نحبه يومًا ما بسكتة دماغية.

قال من وراء أسنان مطبَقة: «لم نعرف أنه يمارس الصيد غير المشروع. سننظر في الأمر. من فضلك ارجعي إلى بيتك، ولا تقلقي. أنا أعرفه جيدًا».

«طيّب»، قلتها في نبرة تصالحية.

لكنه كان الآن واقفًا على قدميه، مادًّا يده فوق طاولة مكتبه، في إشارة واضحة إلى انتهاء المقابلة.

فور أن نصل إلى سنٍّ معيَّنة، يصعب علينا التصالح مع الحقيقة الجديدة: إن الناس سوف يعاملوننا دائمًا بصبر نافد. في الماضي، لم أدرك قط وجود ومعنى إيماءات من قبيل الموافقة المتعجّلة، وتجنّب التقاء العيون، وتكرار «نعم، نعم، نعم» بشكل آلي. أو النظر إلى الساعة، أو حكّ الأنف - تلك الأيام صرت أفهم تمامًا هذا الأداء بوصفه تعبيرًا عن العبارة البسيطة: «ارحميني أرجوكِ، أيتها الشمطاء». كثيرًا ما تساءلت إن كان شابٌ وسيم مفتول العضلات سيُعامل على ذلك النحو إذا قال نفس ما أقوله؟ أو سمراء فاتنة؟

لا بد أنه كان ينتظر مني أن أقفز من على مقعدي وأغادر الغرفة. لكن كان لديَّ شيء آخر، لا يقل أهمية، لأبلغ عنه، ما أجبره على الجلوس ثانية.

«ذلك الإنسان يحبس كلبته في سقيفة طوال اليوم. ليست فيها تدفئة، لذا تظل الكلبة تعوي في الداخل من قسوة البرد. هل يمكن للشرطة التعامل مع الأمر بأن تصادر منه الكلبة، وتعاقبه لتجعل منه مثالًا؟».

نظر إليّ لبرهة في صمت، وكان الملمح الذي عزوته إليه في البداية، وأسميته احتقارًا، واضحًا جليًّا على وجهه الآن. التوت زاوية فمه لأسفل، وانعقدت شفتاه قليلًا. كذلك رأيته يبذل جهدًا للسيطرة على تعبيرات وجهه. غطّاه بابتسامة صفراء، كشفت عن أسنانه الكبيرة، الملطخة بالنيكوتين.

قال: «هذا ليس من شؤون الشرطة، يا مدام. الكلب كلب. والريف ريف. ماذا تتوقعين؟ الكلاب تُستبقى في أوجار ومربوطة بسلاسل».

«أنا، ببساطة، أبلغ الشرطة أن الرجل يرتكب إثمًا. لمن ألجأ، إن لم ألجأ إلى الشرطة؟».

أطلق ضحكة مبحوحة.

«إثم، تقولين؟ ربما يجدر بك الذهاب إلى كاهن!»، قالها هازئًا، مسرورًا بحِسّ الدعابة لديه، لكنه أدرك بعدها أني لم أجدها نكتة مسلّية، لأن وجهه عاد إلى جدّيته على الفور. «لا بد أن هناك جمعية لرعاية الحيوانات، أو شيئًا من هذا القبيل في مكان ما. سوف تعثرين عليهم في دليل الهاتف. ‹رابطة حماية الحيوانات› – هذا هو المكان الذي يجب أن تلجأي إليه. نحن شرطة من أجل الناس. برجاء الاتصال بهم في فروتسلاف. لديهم هناك مراقبو حيوانات، أو ما شابه».

صرختُ: «في فروتسلاف؟ كيف تقول هذا؟ هذه مسؤوليات الشرطة المحلية – أنا أعرف القانون».

قال، وهو يبتسم ساخرًا: «آه! إذًا فأنت تعلّمينني مسؤولياتي الآن، هه؟».

بعين عقلي استطعت رؤية قوّاتنا العسكرية مشدودة القامة في السهل، مستعدة للمعركة.

«نعم، ويسعدني جدًا أن أفعل ذلك»، قلتها وأنا أهيئ نفسي لخطبة أطول.

فزِعًا، نظر إلى ساعته وكبح بغضه لي. «نعم، طيّب، سنبحث في الأمر»، قالها بلا مبالاة، وشرع يلملم أوراقه ويضعها في حقيبة. لقد أفلَتَ مني.

عند تلك النقطة خطر لي أني لا أحب هذا الرجل. بل أكثر من ذلك: شعرت بدفقة مفاجئة من الكراهية تجاهه، حادة كسكين.

وقف مجدّدًا بحسم، ولاحظت أن حزام زيّه الرسمي الجلدي كان أقصر من أن يطوّق كرشه الضخم. كان الكرش، من فرط شعوره بالعار، يحاول إخفاء نفسه بالأسفل، في التخوم المنسية، غير المريحة، لأعضائه التناسلية. وكان رباطا حذائه مفكوكَيْن؛ لا بد وأنه قد خلع حذاءه تحت المكتب. الآن عليه أن يحشر فيه قدميه في عجالة.

«هل لي أن أعرف تاريخ ميلادك؟»، سألته بأدب، وقد وصلتُ إلى الباب.

توقف من المفاجأة. سألني بارتياب، وهو يمسك الباب مفتوحًا لأجلي: «لماذا تريدين معرفته؟».

أجبته: «أنا أحسب **الطالع**. هل تريد أن أحسب **طالعك**؟ أستطيع أن أقرأه لك».

وَمَضَت على وجهه ابتسامة متسلّية. «لا، شكرًا لك. لست مهتمًّا بالتنجيم».

«ستعرف ماذا ينتظرك في الحياة. ألا تحب ذلك؟».

عند تلك النقطة ألقى بنظرة ذات مغزى إلى الشرطي الجالس وراء مكتب الاستقبال، وبابتسامة ساخرة، وكأنه يشارك في لعبة أطفال مرحة، أعطاني كل التفاصيل. دوّنتُها، وشكرته، ورفعت قلنسوتي، واتجهت إلى المخرج. في مدخل الباب سمعتهما يشخران من الضحك، وسمعت الكلمات التي توقعتُها بالحرف: «امرأة مخبولة».

ذلك المساء، بعد الغسق مباشرة، بدأت كلبة القدم الكبيرة تعوي من جديد. كان الهواء قد صار مقبِضًا، حادًّا كشفرة موسى. ملأه العواء الغوير الضعيف بنذائر الخطر. الموت على الأبواب، هكذا فكرتُ. بيدَ أن الموت يقف بأبوابنا دائمًا، في كل ساعة من كل نهار وليل، هكذا خبّرت نفسي. إذ إن أجمل الحوارات هي التي تجريها بينك وبين نفسك.

على الأقل لن تجازف بسوء التفاهم. تمدّدتُ على الأريكة في المطبخ ورقدت هناك، عاجزة عن فعل أي شيء سوى الإنصات لذلك النحيب الثاقب. قبلها بعدة أيام، عندما ذهبتُ إلى بيت القدم الكبيرة لكي أبدي اعتراضي، رفض ذلك الوحش إدخالي، وطلب مني ببساطة ألا أقحم نفسي في شؤون الآخرين. الحقيقة أنه أطلق سراح الكلبة لبضع ساعات بعدها، لكن منذ ذلك الوقت جعل يحبسها في السقيفة المظلمة ثانية، لذا، في تلك الليلة، راحت تعوي من جديد.

هناك رقدتُ، على الأريكة في المطبخ، أحاول التفكير في شيء آخر، لكن بالطبع لم تكن هناك فائدة. أحسست بطاقة مهيّجة نابضة تتغلغل في عضلاتي - إذا زادت قليلًا ستفجّر ساقيّ من الداخل.

قفزتُ ناهضة، وانتعلت حذائي ولبست سترتي، وأخذت مطرقةً وقضيبًا حديديًّا وكل أداة أخرى وجدتها أمامي. بعدها بدقائق كنت أقف، مقطوعة الأنفاس، أمام سقيفة القدم الكبيرة. لم يكن بالداخل، كانت الأضواء مطفأة، ولم أرَ دخانًا ينبعث من المدخنة. لقد حبس الكلبة واختفى. من يعرف متى سيرجع؟ لكن حتى لو كان في البيت، كنت سأفعل الشيء نفسه. بعد بضع دقائق من العمل، صرتُ غارقة في عرَقي، غير أني استطعت فتح الباب الخشبي - تفكّكت الألواح على جانبي القفل، وتمكنتُ من فتح المزلاج. بالداخل كان الجو مظلمًا ورطبًا؛ كانت بعض الدراجات الصدئة قد أُلقيت هنا، وكانت ثمة براميل من البلاستيك وغيرها من النفايات متناثرة في المكان. كانت الكلبة واقفة فوق كومة من الألواح الخشبية، مربوطة إلى الجدار برسَنٍ حول رقبتها. وما جذب عينيّ فورًا بخلاف ذلك كانت كومةً من الروث - واضح أنها كانت تضطر إلى قضاء حاجتها في البقعة نفسها دائمًا. هزّت ذيلها في حيرة. نظرَت إليّ بعينين مبلّلتين، بفرح. قطعتُ الرّسن، وأخذتُها بين ذراعيّ وذهبنا إلى البيت.

لم أعرف ساعتها ماذا أفعل بها. أحيانًا، عندما يشعر الإنسان بالغضب، يبدو كل شيء بسيطًا وواضحًا. الغضب يضع الأمور في نصابها ويُظهر لك العالم في قشرة جوز، الغضب يُعيد إليك موهبة وضوح الرؤية، التي يصعب بلوغها في أيّما حالة أخرى.

وضعتُها على أرض المطبخ وعجبتُ عندما رأيتها صغيرة ضئيلة إلى ذلك الحد. من صوتها، من ذلك العواء الكئيب، كان المرء لينتظر كلبة بحجم سلالة «سبانيل» على الأقل. لكنها كانت واحدة من تلك الكلاب المحلية، المعروفة باسم «هجين الجبال المسطحة القبيح»، لأنها ليست فاتنة. كلاب صغيرة، لها قوائم رفيعة، عادة ما تكون مقوَّسة، وشعر رمادي وبنّي، ونزوع لاكتساب الوزن، وفوق كل شيء لها فكّ علوي بارز. لنكتفي بقول إن تلك الشادية الليلية لم تكن تتمتّع بنعمة الجمال.

كانت قلقة، جسدها كلّه يرتعش. شربَت نصف ليتر من الحليب الدافئ، ما جعل بطنها تستدير ككرة، كما تقاسمتُ معها بعضًا من الخبز والزبدة. لم أكن أنتظر ضيفًا، لذا كان برّادي ناصع الخواء. تحدثتُ إليها لأهدّئ من روعها، أعطيتها تقريرًا عن كل حركة من حركاتي، وظلت تراقبني متسائلة، وقد بدت مذهولة من ذلك التغيير المفاجئ في الظروف. ثم رقدتُ على الأريكة، مقترحة عليها أن تذهب لتعثر هي الأخرى على مكان تستريح فيه. في النهاية، اندسَّت تحت جهاز التدفئة، وراحت في النوم. لم أرغب في تركها تقضي الليل في المطبخ وحدها، فقررتُ البقاء مكاني على الأريكة.

نمت نومًا متقطعًا؛ لا بد أن الاهتياج كان لا يزال يجيش بداخلي. واستحضر أحلامًا متصلة عن أفران متأججة تنفث حرارتها، وحجرات غلّايات لا متناهية لها جدران حمراء ساخنة. وكان اللهب المحبوس في الأفران يهدر مطالبًا بإطلاق سراحه، لكي يندفع في التو واللحظة، وبانفجار هائل، إلى العالم الخارجي، فيحرق كل شيء ويصيّره رمادًا.

لعل تلك الأحلام كانت عَرَضًا من أعراض الحمّى الليلية وثيقة الصلة باعتلالاتي.

استيقظتُ قبل الفجر، والسماء لا تزال مظلمة تمامًا. كانت رقبتي قد تيبّست من النوم في وضعية غير مريحة. وجدتُ الكلبة تقف بجوار مسند رأسي، تحدّق فيّ بإلحاح، وتطلق أنينًا مثيرًا للشفقة. متأوّهةً، نهضتُ لكي أخرجها - كل ذلك الحليب الذي شربَته كان بحاجة إلى مَخرج في النهاية. هبّت من الباب المفتوح عصفة من الريح الرطبة الباردة المحمّلة برائحة التراب والعفن - وكأنها آتية من القبر. اندفعت الكلبة إلى الخارج مثل قذيفة وتبوّلَت، رافعة إحدى قائمتيها الخلفيتين في الهواء على نحو هزلي، وكأنها لم تستطع أن تحدّد إن كانت ذكرًا أم أنثى. بعدها نظرَت إليّ بحسرة -بل نظرت في أغوار عينيّ- ثم انطلقت راكضة إلى بيت القدم الكبيرة.

وهكذا، عادت إلى سجنها.

كانت تلك آخر مرة رأيتها. ناديتها، وأزعجني أن سمحت لنفسي بالانقياد خارج مساري بهذه السهولة، وعلى هذا النحو العاجز، قبالة آليات عمل الاسترقاق الخبيثة. شرعت في انتعال حذائي، غير أن ذلك الصباح الرمادي الفظيع أشعرني بالخطر. أحيانًا أشعر وكأننا نعيش داخل مقبرة، مقبرة كبيرة فسيحة تتسع لعدد كبير من البشر. نظرت إلى العالم المطوّق بالعتمة الرمادية؛ العالم البارد الكريه. السجن ليس في الخارج، بل بداخل كل منّا. ربما لا نعرف كيف نعيش من دونه.

بعدها ببضعة أيام، قبل انهمار الثلوج الكثيفة، رأيت سيارة شرطة أمام بيت القدم الكبيرة. أعترف أني سُررت لرؤيتها. أجل، شعرتُ بالرضا أن الشرطة زارته أخيرًا. لعبتُ دَورَيْن «سوليتير»، ونجحتُ فيهما. تخيلتُ أنهم سيوقفونه، سيخرجونه مقيدًا بالأغلال، سيصادرون مخزونه من

الأسلاك ويأخذون منه منشاره (هذه الأداة على وجه الخصوص ينبغي أن تتطلب تصريحًا، مثل البندقية، إذ إنها تعيث خرابًا وسط النباتات). بيدَ أن السيارة غادرت من دون القدم الكبيرة، وحلّ الغسق بسرعة وبدأت الثلوج في التساقط. وظلت الكلبة، التي حُبست مجددًا، تعوي طوال المساء. في الصباح التالي، كان أول ما رأيته على الأرض البيضاء الناصعة، الجميلة، آثار أقدام القدم الكبيرة المترنحّة ومساراتٍ صفراء من البول حول شجرة التنّوب الفضّية في حديقتي. عاودني كل ذلك ونحن جالسان في مطبخ غريب الأطوار. وعاودتني ذكرى صغيرتيّ.

أثناء سماع قصتي، جعل غريب الأطوار يجهّز بيضًا نصف مسلوق، قدّمه في كؤوس بيض من الصيني.

قال: «لا أشاطرك ثقتك في السلطات. ينبغي على المرء أن يفعل كل شيء بنفسه».

ولم أفهم ماذا قصد بذلك تحديدًا.

III

النور السرمدي

كل ما وُلد من ميلادٍ فانٍ
لا بدّ يومًا أن يأكله التراب[1].

عندما رجعتُ إلى البيت، كان الصبح قد أصبح، وكنت بين اليقظة والنوم، ومجدّدًا، تخيلتني أسمع دبيب صغيرتيّ على أرض الردهة، وأرى نظراتهما المستفسرة، جبينيهما المكسوّين بالفرو، ابتساماتهما. وعلى الفور جعل جسدي يتأهب لطقوس الترحاب، للحنان.

غير أن البيت كان مهجورًا. كان بياض الشتاء ينسكب عبر النوافذ في موجات ناعمة، وفضاء الهضبة الشاسع المفتوح يشق طريقه بإلحاح إلى الداخل. أودعتُ رأس الغزال في الكراج، حيث كان الجو باردًا، وزوّدت الموقد بالحطب. ثم ذهبت إلى الفراش في ملابسي، ونمتُ كالأموات.

«سيدة دوشيكو، جانينا!».

وبعد وقفة، مجدّدًا، بصوت أعلى: «سيدة دوشيكو، جانينا، جانينا!».

أيقظني الصوت في الصالة. خفيض، ذكوري، ومتردّد. كان ثمة شخص هناك، يناديني باسمي الأول البغيض. شعرتُ بضيق مضاعف:

---

(1) لجأنا في هذا المقطع إلى ترجمة «حاتم الجوهري» (بقليل من التصرّف)؛ وليام بليك: «أغنيات البراءة والتجربة»، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ص 156. (المترجم)

إذ أُقلق نومي مجددًا، وثانيًا، كنت أنادَى بذلك الاسم، الذي لا أحبه ولا أقبله. لقد أُعطي لي بمحض الصدفة، من دون تفكير. هذا ما يحدث عندما لا يفكر الشخص في معنى الكلمات، وفي الأسماء على وجه الخصوص، بل يستخدمها جزافًا. لا أسمح لأحد أبدًا أن يناديني جانينا.

نهضتُ وسوّيتُ ملابسي، التي بدت في حالة مزرية -إذ نمتُ فيها ليلتين- وخرجتُ من الغرفة. في الصالة، وسط بركة من الثلج الذائب، وقف رجلان من القرية. رجلان طويلان، عريضا الكتفين ومُشوْربان. دخلا لأني لم أوصد الباب، وربما لذلك السبب راودهما إحساس مبرَّر بالذنب.

قال أحدهما في صوت غوير: «هل يمكن أن تأتي معنا إلى البيت الريفي من فضلك؟».

ابتسما ابتسامة اعتذار، ولاحظتُ أن أسنانهما متطابقة. تعرفتُ عليهما - كانا حطّابيْن. سبق ورأيتهما في متجر القرية.

غمغمتُ قائلة: «لقد عدتُ لتوي من هناك».

قالا إن الشرطة لم تصل بعد، وكانا ينتظران الكاهن أيضًا - كانت الطرق قد اكتست بالثلوج أثناء الليل؛ حتى الطريق إلى التشيك وفروتسلاف كان متعذّر الاجتياز، وعَلقَت لوريّات الشحن في اختناقات مرورية طويلة. لكنّ الأخبار تنتقل بسرعة في أرجاء الضيعة، وهكذا، جاء بعض أصدقاء القدم الكبيرة سيرًا على الأقدام. سرّني سماع أنه كان يتمّتع ببعض الصداقات. وبدا لي أن الظروف المناخية المعاكسة تحسّن مزاجهما. التأقلم مع عاصفة ثلجية أسهل من التأقلم مع الموت.

سرت وراءهما، أخوض في الثلج المنفوش ناصع البياض. كان طازجًا وأضفَت عليه شمس الشتاء الخفيضة مسحةً وردية. كان الرجلان ينتعلان حذاءً مطاطيًا بطبقة علوية من اللباد، وهي الموضة الشتوية

الوحيدة للرجال في هذه المنطقة. باستخدام نعال حذائيهما العريضين، شقّا لي قناة صغيرة.

وجدت رجالًا آخرين يقفون أمام البيت الريفي، يدخّنون السجائر. انحنوا بتردّد، متجنبين التواصل بالعيون. موتُ امرئ تعرفه يكفي لحرمان أي شخص من الثقة بالنفس. كانت لهم جميعًا النظرة نفسها على الوجوه –نظرة الوقار الطقوسي والحزن الشعائري الرسمي. كانوا يتبادلون الحديث بنبرات مخنوقة. وكل مَن ينتهي من التدخين، يرجع إلى الداخل.

كلهم، من دون استثناء، كانوا من أصحاب الشوارب. وقفوا والكآبة مرتسمة على وجوههم، متحلقين حول الأريكة القابلة للطي حيث يرقد الجسد. وبين حين وآخر كان الباب ينفتح ويصل المزيد من الرجال، يحملون الثلج ورائحة الصقيع المعدنية إلى داخل الغرفة. معظمهم كانوا عمالًا سابقين في المزارع الحكومية، الآن يعيشون على الإعانات، ولو أنهم يُوظَّفون من حين لآخر لقطع الأخشاب. بعضهم كان قد ذهب للعمل في إنكلترا، لكنهم رجعوا سريعًا، خوفًا من العيش في بلد أجنبي. أو كانوا يديرون بمثابرة وإصرار مزارع صغيرة غير هادفة للربح تتعيَّش على الدعم الذي تتلقاه من الاتحاد الأوروبي. لم يكن في البيت إلا رجال. كانت الغرفة مشبّعة بالبخار المنبعث من أنفاسهم، والآن أمكنني أن أشمّ نفحة خفيفة من الكحول الذي شربوه، والتبغ، والملابس الرطبة. كانوا يلقون نظرات محمومة، سريعة على الجسد. وسمعتُ نشيقًا، ولو لم أعرف إن كان بفعل البرد، أم إن الدموع قد طفرت بالفعل من عيون هؤلاء الرجال الضخام الأشداء، لكنها، إذ لم تجد لها مخرجًا، سالت إلى داخل أنوفهم. لم يكن غريب الأطوار هناك، ولا أي شخص أعرفه.

أخرج أحد الرجال من جيبه حفنةً من الشموع المستديرة المسطحة،

المصبوبة في حاويات معدنية صغيرة، وأعطاها لي بتلك الإيماءة الواضحة التي جعلتني أتناولها بشكل آلي، بيدَ أني لم أعرف بالضبط ماذا يُفترض أن أفعل بها. فقط بعد وقفة طويلة أدركتُ ما في ذهنه. آه، نعم -عليّ أن أضع الشموع حول الجثة وأشعلها؛ ستصبح الأمور جليلة وشعائرية. لعلّ لهيبها يسمح للدموع أن تنساب وتُخضّل الشوارب الكثّة. وذلك سوف ينعم عليهم جميعًا بالراحة. هكذا، تحركتُ بهمّة حاملة الشموع، وأنا أفكر أنهم لا بد يمتلكون فكرة خاطئة عن علاقتي بالفقيد. اعتبَروني قائدة المراسم، كبيرة المشيعين، إذ فورَ أن أُشعلت الشموع، ران عليهم صمت مفاجئ وثبّتوا عليّ أنظارهم الحزينة!

«من فضلك ابدئي»، هكذا همسَ لي رجل ظننت أني أعرفه من مكان ما.

لم أفهم.

«من فضلك ابدئي الغناء».

سألته، وقد فزعتُ بحق: «ماذا أغنّي. لا أعرف كيف أغنّي».

قال: «أي شيء. الأفضل أغنية ‹الراحة الأبدية›».

سألت في همسة جَزِعة: «ولماذا أنا؟».

في تلك اللحظة، أجاب أقرب الرجال إليّ بحزم: «لأنك امرأة».

آه، فهمت. هذا هو نظام اليوم إذًا. لم أعرف ما علاقة جنسي بالغناء، غير أني لم أكن لأتمرّد على التقاليد في لحظة كهذه. «الراحة الأبدية». أتذكر تلك الترنيمة من الجنازات التي حضرتها في طفولتي؛ لم أعد أذهب إليها منذ البلوغ. لكني كنت قد نسيت الكلمات. مع ذلك، تبيّن أن كل ما عليّ هو الغمغمة بالبداية، وعلى الفور انضمت إلى صوتي الواهن جوقة كاملة من الأصوات الغويرة، منتجةً توليفة متردّدة متعدّدة الأصوات كانت نشازًا، لكنها ظلت تكتسب قوة مع كل إعادة. وفجأة شعرت براحة

أنا نفسي، اكتسب صوتي ثقة، وسرعان ما تذكّرت الكلمات البسيطة حول «النور السرمَدي» الذي، مثلما نعتقد، سوف يغمر القدم الكبيرة هو الآخر.

ظللنا نترنّم على هذا النحو قرابة الساعة، نعيد الأنشودة نفسها مرة بعد مرة، حتى لم يعد للكلمات أي معنى، وكأنها حصوات في البحر، تتقاذفها الأمواج بلا نهاية، إلى أن صارت مستديرة ومتشابهة كحبّات الرمال. وقد أسبغَت علينا، بلا شك، قدرًا من التفريج، وفقدت الجثة التي ترقد هناك واقعيتها رويدًا رويدًا، ولم تعد إلّا مجرّد حجّة لهذا الحشد الذي يجمع كادحين فوق الهضبة العاصفة. غنّينا عن النور الحقّ الذي يوجد في مكان بعيد، لا يدركه أحد الآن، بيدَ أننا سنشهده فور موتنا. الآن نراه وكأنما من وراء لوح زجاجي، أو في مرآة معوَجّة، لكننا سوف نقف أمامه وجهًا لوجه يومًا ما. وسوف يحتوينا، إذ إنه أمُّنا، هذا النور، ومنه أتينا. بل إننا نحمل قبسًا منه بداخلنا، كلنا، حتى القدم الكبيرة. لذا، فالموت، في الحقيقة، ينبغي أن يكون باعثًا على الرضا والسرور. هكذا فكرتُ وأنا أغني، ولو أني في واقع الأمر لم أؤمن قطّ بأي توزيع للنور السرمدي على الأشخاص. ما من ربّ سيحرص على ذلك، ما من محاسب سماوي. سيكون من الصعب على فردٍ واحدٍ تحمّل كل هذا القدر من العناء، خاصة إذا كان بكل شيء عليمًا؛ في رأيي سينهار تحت ثقل كل ذلك الألم، ما لم يكن مزوّدًا سلفًا بآلية دفاعية ما، مثلما هو حال الإنسان. وحدها الآلة يمكنها تحمّل كل آلام العالم. وحدها الآلة، البسيطة، الكفؤ، العادلة. لكن إن كان كل شيء سيحدث على نحو آلي، فما لزوم صلواتنا؟

عندما خرجتُ، رأيت الرجال ذوي الشوارب يرحّبون بالكاهن الذي استدعوه أمام البيت. لم يستطع الكاهن قيادة سيارته إلى هنا – علقَت

سيارته في ركام ثلجي، لذا كان عليهم إحضاره بالجرّار. نفض «الأب شَنشَن» (كما أسميتُه بيني وبين نفسي) رداءه الكهنوتي وقفز إلى الأرض ممتنًّا. من دون أن ينظر إلى أحد، مضى إلى الداخل بخطوات سريعة. مرّ قريبًا مني حتى إن رائحته غمرتني - خليط من ماء الكولونيا ودخان ينبعث من موقد مكتوم.

تعامَل غريب الأطوار بنظام شديد. كان يرتدي معطفَ عملٍ مصنوع من جلد الغنم، وجعل يصبّ القهوة، مثل قائد خبير في الطقوس والشعائر، من ترموس صيني كبير في أكواب بلاستيكية يناولها للمشيّعين. هكذا وقفنا أمام البيت، وشربنا قهوة ساخنة، محلّاة.

بعدها بقليل وصلت الشرطة. لم يأتوا بالسيارة، بل صعدوا على الأقدام، إذ اضطروا إلى ترك سيارتهم على الأسفلت - لم تكن مزوَّدة بإطارات شتوية.

كانوا اثنين في زي رسمي، وواحد في ملابس مدنية، معطف أسود طويل. عندما وصلوا إلى البيت بأحذيتهم المغطاة بالثلوج، يلهثون بقوة، كنا قد خرجنا جميعًا. أظنه كان نوعًا من الكياسة وإظهار الاحترام للسلطات. كان الشرطيان في الزي الرسمي مترفعَيْن، ويتعاملان تعاملًا رسميًّا صارمًا، وبدا أنهما يبذلان جهدًا للسيطرة على غضبهما من الثلوج، والرحلة الطويلة، والظروف العامة للقضية. نفضا حذائيهما واختفيا داخل المنزل من دون كلمة. في هذه الأثناء ظهر ذو المعطف الأسود، من العدم تقريبًا، وتوجه إليّ أنا وغريب الأطوار.

«صباح الخير. أهلًا يا مدام. أهلًا يا بابا».

قال: «أهلًا يا بابا»، وقالها لغريب الأطوار.

لم أتوقّع أبدًا أن يكون لغريب الأطوار ابن في الشرطة، بل وفي معطف أسود غريب كهذا.

قدّمنا غريب الأطوار لبعض مرتبكًا، في نوع من الحرج، غير أني لم أنتبه لاسم المعطف الأسود، إذ سرعان ما تنحّيا جانبًا، وسمعت الابن يوبّخ أباه: «بالله عليك، يا بابا، لماذا لمست الجثة؟ ألا تشاهد الأفلام؟ الجميع يعرفون أنك لا تلمس الجثة حتى وصول الشرطة، مهما حدث».

دافع غريب الأطوار عن نفسه بوهَن، وكأن حديثه مع ابنه جعله بلا حول ولا قوة. كنت أعتقد بأن العكس هو ما يحدث، وأن حديثه مع ابنه ينبغي أن يمنحه المزيد من القوة.

«كان منظره فظيعًا يا ولدي. كنت ستفعل نفس الشيء. لقد اختنق بشيء ما، كان ملويًا وقذرًا... كان جارنا، تعرف - لم نستطع أن نتركه على الأرض بتلك الطريقة، مثل، مثل...»، قالها بحثًا عن الكلمات المناسبة.

«مثل حيوان»، أسعفته، وأنا أتقدّم إليهما؛ لم أتحمّل كيف كان المعطف الأسود ينتهر أباه. «اختنق بعظْمة من غزال كان قد اصطاده بشكل غير شرعي. انتقام من داخل القبر».

ألقى عليّ المعطف الأسود نظرة عابرة وعاد يوجّه حديثه إلى والده: «بابا، يمكن أن تُتَّهم بعرقلة التحقيقات. وأنتِ أيضًا يا مدام».

«لا بد أنك تمزح! هذا يتجاوز كل الحدود. ومع ابنٍ في منصب المدّعي العام».

قرر الابن أن يضع حدًّا لهذا الحوار المحرج.

«طيّب، يا بابا. سيتعيّن عليكما الإدلاء بإفادة لاحقًا. ربما يُجرون تشريحًا للجثة».

ربَّت المعطف الأسود بحنان على ذراع غريب الأطوار، إيماءة فيها شيء من السيطرة، وكأنه يقول: طيّب، طيّب، أيها الولد الكبير، سأعتني أنا بالأمر. ثم اختفى داخل بيت الميت. ومن دون انتظار لأي نوع من

الحسم، عدتُ إلى بيتي، وقد تجمدتُ من رأسي إلى قدميّ، والتهب حلقي. كنت قد نلت كفايتي.

من نوافذي رأيت مِحراث ثلوج نعرفه محليًا باسم «البيلّاروسي»، يأتي صاعدًا من اتجاه القرية. بفضل الممر الذي أخلاه من الثلوج، تمكنت سيارة نقل الموتى من الصعود إلى بيت القدم الكبيرة قبل حلول المساء - عربة طويلة واطئة، لها ستائر سوداء تغطّي نوافذها. بيدَ أنها تمكّنت من الصعود فقط، لا الهبوط. في حوالي الرابعة، قُبيل الغسق، عندما خرجتُ إلى الشرفة، لاحظتُ هيئةً سوداء تتحرّك على طول الطريق في البعيد - كانت هيئة الرجال ذوي الشوارب، يدفعون عربة نقل الموتى ببسالة وهي تحمل جثة صديقهم ليعودوا بها إلى القرية، إلى الراحة الأبدية في النور السرمدي.

***

عادة، أترك التلفاز شغّالًا طوال النهار، من وقت الإفطار فصاعدًا. يهدئ أعصابي. عندما يتكوّن الضباب الشتوي في الخارج، أو بعد أن يكون الفجر قد تحوّل إلى غسق بعد سويعات قليلة من ضوء النهار، يخامرني اعتقاد بأن العالم الخارجي صار خاليًا من كل شيء. إذا نظرتَ من النافذة لن ترى منعكسًا على ألواحها الزجاجية إلا مطبخي من الداخل؛ مركز الكون الصغير المبعثر ذاك.

وهنا تأتي فائدة التلفاز.

لديّ مجموعة خيارات واسعة من البرامج؛ ذات يوم أحضر لي ديزي هوائيًا يشبه طبقًا غويطًا مغطّى بالمينا. يستقبل الطبق عشرات القنوات، غير أن ذلك أكثر من احتمالي. حتى عشر قنوات ستكون أكثر من اللازم. حتى قناتين. في الحقيقة لا أشاهد إلا قناة الطقس. منذ أن عثرت عليها، صار لديَّ كل ما أحتاجه، ولا أعرف أين اختفى جهاز التحكم عن بعد.

لذلك، أظل منذ الصباح برفقة صور الجبهات الهوائية، خطوط جميلة مجرّدة على الخرائط، خطوط زرقاء وحمراء، تقترب بلا كلل من الغرب، من فوق التشيك وألمانيا. تحمل الهواء الذي كانت تتنفسه براغ قبل برهة قصيرة، وربما برلين أيضًا. طارت من الأطلسي وزحفت فوق أوروبا بأكملها، لذا يمكن للمرء أن يقول إن لدينا هواءَ بحرٍ هنا، في الجبال. يعجبني على وجه الخصوص عندما يعرضون خرائط الضغط، التي تفسّر ذلك النزوع المفاجئ لمقاومة الخروج من الفراش، أو ذلك الألم في الركبتين، أو شيء آخر - شعور لا تفسير له بالحزن يشبه في طبيعته جبهة هوائية ما، شكل أفعواني[1] متقلّب المزاج داخل الغلاف الجوّي للأرض.

كذلك أجد صور الأقمار الصناعية وانحناءات الأرض مؤثّرة للغاية. إذًا، فنحن نعيش حقًّا على سطح كرة، معرّضين لنظرات الكواكب، معلّقين وسط فراغ عظيم، حيث تهشّم الضوء بعد السقوط وانفجر أشلاءً؟ هذا صحيح. ينبغي أن نتذكّر ذلك كل يوم، فنحن نميل إلى النسيان. نظن أننا أحرار، وأن الرب سوف يسامحنا. شخصيًا أظن غير ذلك. في النهاية، وبعد، إذ يتحوّل كل فعل من أفعالنا إلى فوتونات ضئيلة مرتعشة، سوف ينطلق إلى الفضاء الخارجي، حيث تظل الكواكب تشاهده مثل فيلم حتى نهاية العالم.

وأنا أعدّ القهوة، يكونون عادة عاكفين على قراءة النشرة الجوية للمتزلّجين. يُظهرون عالمًا وعرًا، كثير النتوءات من جبال، ومنحدرات، ووديان، بطبقة متقطعة من الثلوج - تمتد بشرة الأرض جافة خشنة، ولا يظهر البياض إلا متناثرًا في حقول ثلجية هنا وهناك. في الربيع يُستبدل

---

(1) شكل أفعواني: في الأصل figura serpentinata، وهو أسلوب فني في الرسم والتصوير والنحت يهدف إلى جعل الشكل أكثر ديناميكية. (المترجم)

بالمتزلجين مرضى الحساسية، وتَتخذ الصورة لونًا. خطوط رقيقة تحدّد مناطق الخطر. عندما يكون اللون أحمر، نعرف أن الطبيعة تهاجم بضراوة شديدة. لقد ظلّت هاجعة طوال الشتاء، تنتظر الهجوم على جهاز الإنسان المناعي، الهش مثل الدانتيلا. يومًا ما سوف تقضي علينا جميعًا بهذه الطريقة. قبل نهاية الأسبوع، تظهر نشرات الطقس للسائقين، غير أنّ عالمهم يُقلّص إلى خطوط قليلة نادرة تحدّد الطرق السريعة في هذا البلد. والحق أني أجد تقسيم الناس هكذا إلى ثلاث مجموعات -المتزلجون، ومرضى الحساسية، والسائقون- مقنعًا للغاية. إنها طوبولوجيا جيدة ومباشرة. المتزلجون أبناء مبدأ اللذة. يتركون أنفسهم للجاذبية كي تدفعهم على المنحدرات. بينما يفضل السائقون أن يقبضوا على أقدارهم بأيديهم، ولو أن أعمدتهم الفقرية كثيرًا ما تعاني نتيجة لذلك؛ كلنا نعرف أن الحياة صعبة. في حين يظلّ مرضى الحساسية في حرب دائمة. لا بد أني مريضة حساسية.

أتمنّى لو كانت ثمة قناة عن النجوم والكواكب أيضًا. «قناة الأثر الكوني». برامج قناة كتلك سوف تتكوّن هي الأخرى من خرائط؛ سوف تعرض خطوط التأثير ومجالات الهجمات الكوكبية. «المريخ يبدأ في الصعود فوق دائرة البروج، وهذا المساء سيعبر حزام تأثير بلوتو. رجاءً اترك سيارتك في الكراج أو في ساحة انتظار مغطاة، رجاءً احفظ السكاكين بعيدًا عن الأيدي، والتزم الحرص أثناء النزول إلى القبو، وإلى أن يمرّ الكوكب عبر برج السرطان، نناشدك تجنُّب الاستحمام وتفادي المشاجرات العائلية». هكذا سيقول المقدّم الأثيري النحيف. سوف نعرف لماذا تأخرت القطارات اليوم، لماذا علقت سيارة رجل البريد طراز «فيات شينكويشنتو» وسط الثلوج، لماذا لم يخرج المايونيز مضبوطًا، أو لماذا اختفى الصداع من تلقاء نفسه فجأة، من دون علاج،

مثلما جاء فجأة. سوف نعرف الوقت المناسب لصبغ شعرنا، ومتى نقيم حفل زفاف.

في الليل أرصد كوكب الزهرة، أتابع عن قرب عبور هذه الغادة الجميلة[1]. إنها نجمة المساء المفضلة لديّ، تظهر وكأنما من العدم، وكأنما بفعل سِحرٍ ما، وتنزل وراء الشمس. ومضة من النور السرمدي. في الغسق تحدثُ أكثر الأشياء إثارة، إذ إنه الوقت الذي تتشوّش فيه الفروقات البسيطة. أستطيع أن أعيش في غسق سرمدي.

(1) عبور الزهرة: ظاهرة فلكية تنتج عن مرور كوكب الزهرة بين الأرض والشمس. (المترجم)

IV

999 ميتة

ذلك الذي يشكّ في ما يراه
لن يؤمنٍ أبدًا، فاصنع ما تشاء[1]
ولو أن شكًا دَاخَل الشمسَ والقمرَ
لانطفآ توًا وزالا من السماء.

في اليوم التالي دفنتُ رأس الغزال في مقبرتي بجوار البيت. وضعت كل ما أخذته من بيت القدم الكبيرة تقريبًا في حفرة في الأرض. علّقتُ الكيس، الذي كان لا يزال ملطخًا ببقع الدم، على فرع شجرة برقوق، للذكرى. على الفور، سقطت بداخله بعض الثلوج، تحوّلت إلى جليد مع انخفاض درجة الحرارة في تلك الليلة. أضنيت نفسي لأحفر حفرة واسعة بما يكفي في التربة المتجمدة الحجرية. وتجمّدَت الدموع على خديّ.

كالعادة، وضعت شاهدًا على القبر. كان هناك بالفعل عدد لا يستهان به من تلك الشواهد في مقبرتي. هنا كان يرقد: قط عجوز، وجدتُ جثته في القبو عندما اشتريت هذا البيت، وقطة، نصف برية، ماتت بعد الولادة مع صغارها. وثعلب، قتله عمال الغابة بزعم أنه مسعور، وعدد من حيوانات الخلد، وغزال من الشتاء الماضي نهشته الكلاب حتى الموت.

---

(1) السطران الأولان من ترجمة فاطمة الشملان لقصيدة وليام بليك «نبوءات البراءة»، منشورة على شبكة الإنترنت. (المترجم)

هذه فقط بعض من الحيوانات. أما تلك التي وجدتها ميتة في الغابة، في مصائد القدم الكبيرة، فقد اكتفيت بنقلها إلى بقعة أخرى، لكي يستطيع أحد على الأقل أن يتغذى عليها.

من المقبرة، القائمة في موضع لطيف بجوار البركة، على سفح تلّ رقيق الانحدار، أظن أن الهضبة بأكملها كانت منظورة. أحب أن أرقد هنا أنا أيضًا، وأظل أعتني بكل شيء من هنا، إلى الأبد.

مرّتان يوميًا كنت أحرص على الخروج في جولة في أرجاء ضيعتي. كان عليّ أن أبقي لوفتسوك تحت الملاحظة، بحسب الاتفاق. كنت أمرّ تباعًا على البيوت التي تركها أصحابها تحت رعايتي، وأخيرًا أصعد التلّ لألقي نظرة شاملة على الهضبة.

من هذا المنظور، أستطيع رؤية أشياء لا تمكن رؤيتها من مسافة قريبة: هنا، في الشتاء، توثّق الآثار على الثلوج كلَّ حركة. لا شيء يمكنه الإفلات من هذا السجلّ - بدأب مؤرِّخ، كانت الثلوج تسجّل آثار أقدام الحيوانات والبشر، وتخلِّد المسارات الشحيحة لإطارات السيارات. أتفحَّص الأسْقُفَ بحرص، تحسّبًا لأن يكون ركامًا من الثلوج قد تكوّن يمكن أن يمزِّق ميزابًا، أو -حاشا لله- يسدّ مدخنة، ينحشر في نقطة ما ويذوب ببطء، ما يجعل الماء يتقاطر تحت بلاطات السقف ويتسرب إلى داخل البيت. أتفحّص النوافذ بدقة للتأكد من سلامتها، ومن كوني لم أغفل شيئًا في زيارتي السابقة، أو أترك نورًا مضاءً، ربما؛ كذلك أعاين الأفنية، والأبواب، والبوابات، والسقائف، ومخازن الخشب.

كنت الحارسة على عقارات جيراني بينما يكرّسون أنفسهم للعمل الشتوي والاستمتاع بأوقاتهم في المدينة - أقضي الشتاء هنا لحسابهم، أحمي بيوتهم من البرد والرطوبة، وأرمِّم أملاكهم الهشة. بهذه الطريقة أعفيهم من المشاركة في الظلام.

لسوء الحظ، كانت اعتلالاتي تفصح عن نفسها مجدّدًا. الحقيقة أنها كانت تتفاقم نتيجة للضغوط وغيرها من الحوادث غير المتوقّعة. أحيانًا تكفي ليلة واحدة من النوم المضطرب لأن يبدأ عذابي. ترتعش يداي، وأشعر وكأن تيارًا يسري في أطرافي، وكأن شبكة كهربية غير منظورة تطوِّق جسدي وشخصًا ما يُلحِق بي عقوبات طفيفة، ضربَ عشواء. ثم فجأة، يستحوذ تقلصٌ عضلي مؤلم على كتفيّ أو ساقيّ. عندها أشعر بخدر يجتاح قدميّ، يخشِّبهما ويوخزهما. أمشي وأجرجرهما ورائي، أعرُج. ثم أمرٌ آخر: على مدار شهور ظلت عيناي تدمعان؛ تسيل دموعي بلا سبب، بلا سابق إنذار.

قررت ذلك اليوم، بالرغم من الألم، أن أصعد المنحدر وأستطلع العالم من أعلى. لا بد أن كل شيء سيكون في مكانه. ربما يهدّئني ذلك، يُرخي حلقي، فأشعر بتحسّن. لم أشعر بأسف شديد على القدم الكبيرة. بيدَ أني، لدى مروري ببيته من بعيد، فكّرت في جسده الميت، الذي يشبه العفاريت الأقزام، المكسو ببدلة بلون القهوة، ثم خطرت ببالي أجساد كل رفاقي، أحياءً وسعداءً في بيوتهم. وفكرت في نفسي أيضًا، في قدمِي، وفي جسد غريب الأطوار النحيف المفتول؛ بدا لي كل ذلك مُترَعًا بأسًى فظيع، لا يُحتمل. وبينما أحدّق في منظر الهضبة الممتدة أمام عينيّ بالأبيض والأسود، أدركت أن الأسى كلمة مهمّة لتعريف العالم. إنه موجود في أساسات كل شيء، إنه العنصر الخامس، جوهر الحياة.

كان المشهد الذي انفتح أمامي مؤلفًا من درجات الأسود والأبيض، ومن الأشجار المحبوكة معًا في صفوف على طول الحدود بين الحقول. في الأماكن التي لم يُجَزّ فيها العشب، عجزت الثلوج عن كساء الحقول بلون أبيض موحَّد منبسط. كانت نصال العشب تشقّ الغطاء؛ ومن بعيد بدا وكأن يدًا كبيرة شرعت ترسم نقشًا تجريديًا، بضربات فرشاة قصيرة، أنيقة، رقيقة. رأيت الحقول في أشكالها الهندسية الجميلة، شرائط ومستطيلات،

لكل منها قوام مختلف، لكل منها درجته اللونية الخاصة، تنحدر بزوايا مختلفة باتجاه الغسق الشتوي المتعجّل. وبيوتنا، البيوت السبعة كلّها، تتناثر هنا وكأنها جزء من الطبيعة، وكأنها انبثقت من تحت الأرض على تخوم الحقول، وانبثق معها الجدول والجسر الصغير المشيَّد فوقه - كل ذلك بدا مصمَّمًا ومرتَّبًا بعناية، ربما من قِبل اليد الرسّامة نفسها.

كان بوسعي أنا أيضًا رسم خريطة لذاكرتي. فيها ستتخذ **هضبتنا** شكل هلال سميك، مطوَّق من أحد الجوانب **بالجبال الفضية** -سلسلة صغيرة نوعًا، واطئة نوعًا نتشاطرها مع التشيك- وعلى الجانب الآخر، البولندي، **بالتلال البيضاء**. فوقها تنهض مستوطنة واحدة فقط - مستوطنتنا. القرية والبلدة بالأسفل، إلى الشمال الشرقي، تمامًا مثل كل شيء آخر. الاختلاف في المستويات بين **الهضبة** وبقية وادي كودزكو ليس عظيمًا، لكنه كافٍ لكي يشعر المرء بدرجة من العلوّ هنا، وهو ينظر إلى كل شيء من أعلى. الطريق يصعد بجهد جهيد من أسفل، وبرقّة نسبية من الشمال، لكن النزول من **الهضبة** على الجانب الشرقي ينتهي بانحدار كبير، يمكن أن يصير خطيرًا في الشتاء. أثناء الشتاءات القاسية تقوم «هيئة الطرق»، أو أيًا كان ما يطلقون على تلك المصلحة، بإغلاق هذا الطريق أمام حركة المرور. عندها نقود سياراتنا إلى أسفل مخالفين القانون، على مسؤوليتنا الخاصة. بافتراض أننا نمتلك سيارات جيدة، بالطبع. الحقيقة أني أتحدث عن نفسي. غريب الأطوار لا يمتلك إلا درّاجة نارية صغيرة، والقدم الكبيرة كان يمتلك قدميه. نُطلق على هذا الامتداد المنحدِر اسم **الممر**. هناك أيضًا جرفٌ حجريّ قريب، لكن يخطئ من يظنه مَعلَمًا طبيعيًا، فهو من مخلفات محجر قديم، اعتاد أن يَقضم أجزاءً من الهضبة، وكان خليقًا بأن يبتلعها عن بكرة أبيها بكل تأكيد في نهاية المطاف في أفواه حفّاراته النَهِمة التي لا تشبع. يقولون إن ثمة خططًا لإعادة تشغيله، وهو ما سيجعلنا نختفي من فوق سطح الأرض، بعد أن تلتهمنا **الآلات**.

فوق الممر، ثمة طريق ترابي لا يصلح للقيادة إلا في الصيف، يؤدّي إلى القرية. في الغرب يلتقي طريقنا بطريق آخر، أكبر، لكنه ليس الطريق السريع بعدُ. على هذا الطريق تقع قرية أحب أن أسميها ترانسلفانيا، بسبب أجوائها العمومية[1]. ثمة كنيسة، ومتجر، وبعض عربات التلفريك المعطوبة ونادٍ للشباب. الأفق عالٍ، لذا يسود هنا غسق أبديّ. هذا هو انطباعي عن المكان. في الطرف الأقصى من القرية ثمة طريق جانبي أيضًا، يؤدّي إلى مزرعة الثعالب، غير أني لا أحب السير في ذلك الاتجاه.

بعد ترانسلفانيا، وقبل الطريق المنزلق الذي يقود إلى الطريق السريع، لدينا انعطافة حادّة تقع عندها حوادث كثيرة. ديزي أطلق عليها «ناصية قلب الثور»، لأنه رأى ذات مرة صندوقًا من أحشاء الذبائح يسقط من لوري قادم من المسلخ الذي يملكه أحد الأقطاب المحليين البارزين، وانسكبت قلوب الأبقار على الطريق؛ أو هكذا يزعم. عن نفسي أجدها قصة شنيعة، وأظن الحادثة بأكملها من بنات خياله. يصير ديزي أحيانًا مفرط الحساسية حول بعض الموضوعات. الطريق المستوي يربط بين بلدات الوادي. في الأيام الصافية، يصير بالإمكان رؤية الطريق من فوق هضبتنا، وكذا رؤية كودوفا وليفين وكأنهما عقدتان على خيطه، وفي البعيد باتجاه الشمال يمكن للناظر أن يرى حتى نوفا رودا، وكودزكو، وزومبكوفيتسه، التي كانت تسمى «فرانكنشتاين» قبل الحرب.

الآن صار ذلك العالم بعيدًا. عادة ما أقود سيارتي «الساموراي» إلى بلدة على الجانب الآخر من الممر. بعدها، يمكن للمرء أن ينعطف يسارًا ويواصل طريقه إلى الحدود، التي تتعرّج في انعطافات غشوم،

---

(1) ترانسلفانيا: منطقة تاريخية تقع في وسط رومانيا حاليًا، تشتهر بطبيعتها الجبلية وتاريخها الغني. ارتبطت في الأذهان بمصاصي الدماء بعد رواية «دراكولا» لبرام ستوكر، وما تلاها من كتب وأفلام مستوحاة منها. (المترجم)

تجعل من السهل عبورها خلسة. كثيرًا ما عبرتها أنا نفسي سهوًا عندما كنت أخرج إلى ذلك الطريق في جَوْلاتي اليومية. غير أني كنت أحب أن أعبرها عن قصد أيضًا، فأدخلها وأخرج منها عمدًا. في عشر مرات، أو عشرات المرات. أسلّي نفسي على هذا النحو لنصف ساعة، ألعب لعبة عبور الحدود. كان ذلك يمنحني بهجة، لأني أتذكر زمنا لم يكن ذلك فيه ممكنًا. أنا أحب عبور الحدود.

البيت الأول في جولة معاينتي كان بيت البروفيسور وزوجته. كان المفضل لديّ - صغير وبسيط. بيت هادئ، منعزل له جدران بيضاء. نادرًا ما يأتيان إلى هنا؛ عوضًا عن ذلك يظهر أولادهما مع أصدقائهم، وتحمل الريح أصواتهم الصاخبة. كان البيت، عندما تُفتح أستاره، ويُضاء ويضج بالموسيقى الصاخبة، يبدو سادرًا قليلًا وذاهلًا. يمكننا القول إن فتحات النوافذ المشرّعة تلك تجعله يبدو بليدًا نوعًا ما. لكنه يتعافى فور مغادرتهم. نقطة ضعفه كانت سقفًا شديد الانحدار. تنزلق الثلوج عليه وتتراكم على الجدار الشمالي حتى شهر مايو، تاركة الرطوبة تتسرّب إلى الداخل. لذا كان عليّ أن أرفع الثلوج، وهي مهمة شاقّة لا أتلقى عليها حمدًا ولا شكورًا. في الربيع كانت وظيفتي أن أرعى الحديقة الصغيرة - أزرع بعض الأزهار وأعتني بالأزهار التي تنبت بالفعل في رقعة الأرض الحجرية أمام المنزل. ذلك كنت أفعله بكل سرور. من حين إلى آخر، كان الأمر يتطلّب بعض الإصلاحات الطفيفة. هكذا، أهاتف البروفيسور وزوجته في فورتسلاف، فيحوّلا النقود إلى حسابي، ثم أتولى مهمة استئجار العمال ومتابعة العمل بنفسي.

هذا الشتاء كنت قد لاحظت أن عائلة كبيرة إلى حد ما من الخفافيش قد سكنت قبو بيتهما. ذات مرة اضطررت إلى دخول ذلك القبو بعدما تهيأ لي سماع ماءٍ يقطر من أعلى. ستحدث مشكلة إذا كانت ماسورة مياه

قد انشرخت. ورأيتهم ينامون في عناقيد مضمومة، ملتصقين بالسقف الحجري: كانوا يتدلّون هناك من دون حراك، مع ذلك لم أستطع منع نفسي من الإحساس بأنهم يراقبونني في نومهم، إذ انعكس وهج المصباح في عيونهم المفتوحة. همستُ لهم مودّعة إلى أن نلتقي في الربيع، وبعد إذ لم أرَ دليلًا على أي تلف، رجعتُ أصعد الدَّرَج على أطراف أصابعي.

في هذه الأثناء، كانت هناك حيوانات سمّور ترعى في بيت الكاتبة. لم أمنح أيًا منهم أسماء، إذ لم يسعني أن أحصيهم ولا أن أفرّق بينهم. طبعهم المميز هو صعوبة تحديد مواقعهم - أنهم مثل الأشباح. يظهرون ويختفون بسرعة لا يعود المرء معها واثقًا إن كان قد رآهم بحق. السمّور حيوانات جميلة. لو تطلّب الأمر يومًا أن أضع شعار نَبالة على صدري لرسمتهم عليه. يبدون خِفافًا وأبرياء، بيد أن ذلك مجرّد مظهر. فهُم في الحقيقة مخلوقات ماكرة وخطيرة. إنها تشن حروبها الصغيرة على القطط والفئران والطيور. تتقاتل في ما بينها. في بيت الكاتبة كانت تندَسّ بين بلاطات السقف والطبقة العازلة من العليّة، وأظن أنها تعيث خرابًا، تدمّر الصوف الصخري وتقرض فتحات في الألواح الخشبية.

الكاتبة تأتي عادة في مايو، في سيارة مكدَّسة حتى السقف بالكتب والأطعمة الغرائبية. عادة أساعدها في إفراغ حمولتها، لأنها تعاني من آلام في الظهر. تسير بدعامةٍ حول رقبتها؛ يبدو أنها أصيبت في حادث في الماضي. أو ربما كانت الكتابة هي السبب في إفساد عمودها الفقري. كانت تبدو مثل ناجية من بومبي[1] - وكأنها مكسوّة بالكامل بالرماد. كان وجهها رماديًّا، بما فيه شفتاها، وعيناها رماديتين، وكذا شعرها الطويل،

(1) بومبي: مدينة رومانية كانت تقع على سفح جبل بركان فيزوف (إيطاليا). ثار البركان العام 79 ميلادية ثورة هائلة، وطُمرت المدينة بأكملها تحت الرماد البركاني، واختفت من على سطح الأرض، إلى أن أعيد اكتشافها في القرن الثامن عشر. (المترجم)

الذي كانت تشدّه ككعكةٍ صغيرة فوق رأسها. لو لم أعرفها جيّدًا، لا بد أني كنت سأقرأ كتبها. لكن لأني عرفتها، خفت أن أفتح أيًا منها. ماذا لو وجدتُ نفسي موصوفة فيها بطريقة لا أستطيع استيعابها؟ أو وجدت أماكني المفضلة، التي لا بد أنها تراها بصورة مختلفة تمامًا عما أراها أنا؟ بطريقة ما، يمكن لأمثالها، مَن يَتسلحون بسلاح القلم، أن يكونوا خطيرين. في الوقت نفسه يراودني هاجس الزيف - أن هذا الشخص ليس نفسه أو نفسها، بل عينٌ تراقب بلا انقطاع، وكل ما تراه يتحوّل إلى جُمَل؛ وفي غضون ذلك، تُجرِّد هذه العينُ الحقيقةَ من أكثر سماتها جوهرية - استحالة التعبير عنها.

كانت تقيم هنا إلى أن ينتهي سبتمبر. لا تخرج من بيتها كثيرًا؛ فقط بين حين وآخر، عندما تصير الحرارة، بالرغم من ريحنا العاصفة، لزجة وغير محتملة، تُمدّد جسدها الرمادي على كرسي طويل قابل للطي، وتبقى هناك في الشمس من دون حراك، ويرمدّ لونها أكثر. لو كان لي فقط أن أرى قدميها، ربما اتضح أنها ليست إنسانًا، بل شكلٌ آخر من أشكال الحياة. حورية بحر من «اللوغوس»، أو حورية هواء. أحيانًا كانت صديقتها تأتي لزيارتها، وهي امرأة قوية داكنة الشعر تضع أحمر شفاه بألوان زاهية. كانت لديها وحمة على وجهها، شامة صغيرة، أظنها تعني أن كوكب الزهرة، ساعة ميلادها، كان في المنزل الأول. ثم تطبخان معًا، وكأنهما تذكّرتا فجأة الطقوس العائلية لأسلافهما. في الصيف الماضي، تناولتُ الطعام معهما عدة مرات: حساء ساخن مع حليب جوز الهند، و«بان كيك» البطاطس مع فطر «الشانتريل». كانتا تطبخان جيّدًا - كان الطعام لذيذًا. كانت الصديقة تعامل السيدة الرمادية بحنان بالغ، وتعتني بها كأنها طفلة. وكان واضحًا أنها تعرف ما تفعل.

البيت الأصغر، تحت أيكة رطبة، اشترته مؤخرًا أسرة صاخبة من فروتسلاف. كان لديهم طفلان بدينان مدللان، مراهقان، ومتجر بقالة

في حي كريسكي. تمثَّلَت خطتهما في إعادة بناء البيت وتحويله إلى بيت ضيعة بولندي مصغّر - يومًا ما سوف يضيفون أعمدة وشرفة، وفي الخلف سوف يحفرون حمام سباحة. هكذا أخبرني الأب. لكنهم، أولًا، أحاطوه بالكامل بسور من الخرسانة الجاهزة. كانوا يدفعون لي بسخاء، وطلبوا مني إلقاء نظرة من الداخل كل يوم، للتأكد من أن أحدًا لم يقتحم البيت. كان البيت نفسه قديمًا، وفي حال مزرية، ويبدو كَمَن لا يطلب إلا أن يُترك في سلام ليواصل تحلّله. هذا العام، مع ذلك، كانت تنتظره ثورة شاملة - نُقلَت أكوام من الرمال وكُدّست أمام بوابته. كانت الريح تطيّر غطاءها البلاستيكي طوال الوقت، فيكبّدني استبداله مشقة كبيرة. كان لديهم نبع صغير في أرضهم، وخططوا لإنشاء أحواضٍ للأسماك هناك، وبناء شوّاية من الطوب. كان اسم عائلتهم «البيّارة». وقد قضيت وقتًا طويلًا أتساءل إن كان ينبغي أن أعطيهم اسمًا من عندي، غير أني أدركت بعدها أن تلك حالة من اثنتين معروفتين لي، حيث الاسم العائلي الرسمي يناسب الشخص. كانوا بالفعل أناسًا من البئر - سقطوا في البئر منذ زمن بعيد، ورتّبوا حياتهم في قاعها، ظانين أن البئر هي العالم بأسره.

البيت الأخير، على الطريق مباشرة، كان بيتًا للإيجار. يؤجَّر عادة للأزواج الشبان ذوي الأطفال، أولئك الذين يحبّون قضاء عطلة نهاية الأسبوع وسط الطبيعة. أحيانًا كان يستأجره أزواج من العشاق. وأحيانًا يكونون من النوع المريب أيضًا؛ يشربون طوال المساء ويقضون طوال الليل في الصراخ مخمورين، ثم ينامون حتى الظهيرة. كلهم كانوا يمرّون بضيعتنا مثل الأطياف. فقط لقضاء نهاية الأسبوع. اليوم هنا، وغدًا يغادرون. كان البيت الريفي الصغير الذي جرى تجديده من دون التزام بذوق شخصي معيّن، يخصّ الشخص الأغنى في الجيرة، الذي يمتلك عقارًا في كل وادٍ وفي كل سهل. كان ذلك الرجل يسمّى «مُصراني» - وهو المثال الثاني الذي يتفق فيه الاسم مع صاحبه تمام الاتفاق. الواضح

أنه اشترى البيت بسبب الأرض التي أقيم عليها. الواضح أنه اشترى الأرض لكي يحوّلها إلى محجر يومًا ما. الواضح أن **الهضبة** بأكملها تصلح لأن تتحوّل إلى محجر. والواضح أننا نعيش فوق منجم ذهب هنا، ذهب يعرف باسم الغرانيت.

كان عليّ أن أبذل جهدًا كبيرًا في العناية بكل ذلك. والجسر الصغير أيضًا - كان عليّ التأكد من سلامته، وأن الماء لم يجرف دعائمه القوسيّة التي ثُبتت فيه بعد الفيضان الأخير. وأن الماء لم يصنع أي فتحات. وفي نهاية جولتي، ألقي نظرة أخيرة في الجوار، ولا بد أني كنت أشعر بالسعادة حين أرى كل شيء في مكانه. ففي نهاية المطاف، كان يمكن بالمثل ألّا يكون في مكانه. كان يمكن ألّا يوجد هنا إلّا العشب - لفائف كبيرة من العشب البري الذي تسوطه الريح إلى جانب ورود النباتات الشوكية الصغيرة. هكذا كان يمكن للحال أن تكون. أو كان يمكن ألّا يكون هناك أي شيء على الإطلاق - فراغ كامل في الفضاء الخارجي. ولعل ذلك كان سيصير الخيار الأفضل لجميع الأطراف المعنية.

وإذ أتسكّع في جولاتي بين الحقول والبراري، أحببت أن أتخيّل كيف كان كل ذلك يبدو قبل ملايين السنين من الآن. أكانت النباتات نفسها هنا؟ وماذا عن لون السماء؟ أكانت مثل لونها الآن؟ أكانت الصفائح التكتونية قد انزاحت وتسببت في تراكم سلسلة من الجبال المرتفعة هنا؟ أم كان سينشأ بحر، مطيحًا بكل مبرر لاستخدام كلمة «مكان» وسط حركة الأمواج المتكاسلة؟ شيء واحد مؤكّد - تلك البيوت لن تكون هنا؛ جهودي ليست مهمة، لا تَعدل رأس دبوس، تمامًا مثل حياتي. ذلك شيء يجب ألّا أنساه أبدًا.

فإذا تجاوزتُ حدود جيرتنا، تغيّر المنظر. تنبثق هنا وهناك علامات تعجّب من باطن الأرض، إبرٌ حادة تخترق المشهد. كلما وقعت أنظاري عليها، تبدأ جفوني في الرفيف؛ العين تنجرح بتلك الهياكل الخشبية

المنتصبة وسط الحقول، على حدودها، أو على حافة الغابة. إجمالًا هناك ثمانية منها في الهضبة، أعرف العدد بالتحديد، لأني سبق وتعاملت معها في الماضي، مثل دون كيخوته مع طواحين الهواء. شُيِّدت على عجل من عوارض خشبية، ثُبتت على نحو متصالب؛ تتكوّن بالكامل من صلبان. تلك الأشكال الشنيعة لها أربع قوائم، وفي أعلاها مقصورة فيها كُوى لإطلاق النار. «منابر» للصيد. لطالما أدهشني هذا الاسم وأغضبني. فأي خُطبة يمكن إلقاؤها من فوق منابر كهذه؟ أي موعظة وأي بشارة؟ أليست ذروة الجهل، أليست فكرة شيطانية أن تسمي مكانًا يعتليه المرء لكي يَقتل منبرًا؟

ما زلت أستطيع رؤيتها. أضيّق عينيّ لكي أشوّشها وأجعلها تختفي. أفعل ذلك فقط لأني لا أحتمل وجودها. لكن الحقيقة أن أيّ امرئ يشعر بالغضب ولا يفعل شيئًا حياله إنما ينشر العدوى. هكذا يقول بليك.

عندما أقف هناك، أحدّق في المنابر، يصير بوسعي أن أستدير في أي لحظة لأرى خط الأفق الحاد المجعّد وكأنه خصلة شعر. أن أنظر وراءه. هناك تقع التشيك. هناك تلوذ الشمس بالفرار، فور اكتفائها بما رأته من تلك الفظاعات. هناك تنزل غادتي لقضاء الليل. آه، نعم، الزُّهرة تذهب إلى الفراش في التشيك.

على هذا النحو أقضي أمسياتي: أجلس إلى طاولة المطبخ الكبيرة وأكرّس نفسي لشغلي المفضّل. هنا على الطاولة يستوي «اللابتوب» الذي أعطاني إياه ديزي، ولو أني لا أستخدم إلا برنامجًا واحدًا. هنا كتاب «التقاويم الفلكية»، بعض أوراق الملاحظات، وبضعة كتب. رقائق «الموسلي» الجافة التي أقضمها أثناء العمل، وإبريق صغير من الشاي الأسود؛ لا أشرب أي نوع آخر.

في الحقيقة كنت أستطيع إنجاز كل الحسابات باليد، ولعلي أشعر

بقدر من الأسف لأني لا أفعل ذلك. لكن مَن ذا الذي لا يزال يستخدم المسطرة الحاسبة هذه الأيام؟

غير أني إذا اضطررت يومًا إلى حساب **طالع فلكي** في الصحراء، من دون حاسوب، ولا كهرباء ولا **أدوات** من أي نوع، فبمقدوري أن أفعل ذلك. كل ما سأحتاج إليه هو «تقاويمي الفلكية»، ومن ثم إذا جاء شخص فجأة وسألني (ولو أن ذلك لن يحدث أبدًا للأسف) أيّ كتاب سآخذه معي إلى جزيرة صحراوية، لأجبت: «التقاويم الفلكية الكاملة، 1920-2020».

كنت متلهّفة لمعرفة إن كان تاريخ وفاة شخص ما يمكن أن يظهر في **طالعه**. الموت في **طالع فلكي**. كيف يبدو؟ كيف يكشف نفسه؟ أي كواكب تلعب دور ربّات القدر؟ هنا، في عالم «يوريزن»[1]، تنطبق القوانين. من السماء المليئة بالنجوم وحتى الضمير الأخلاقي. تلك قوانين صارمة، لا تعرف رحمة وليس منها استثناء. مثلما هناك نظام للميلاد، لماذا لا يكون هناك نظام للموت؟

في كل تلك السنين جمعتُ 1042 تاريخ ميلاد، و999 تاريخ وفاة، ولا يزال بحثي الصغير جاريًا. مشروع من دون تمويل من الاتحاد الأوروبي. مشروع على طاولة مطبخ.

لطالما آمنت بأن الفلك يُعلَّم بالممارسة. إنه معرفة محكَمة، بل وإمبريقية وعلمية إلى حد كبير، شأنه شأن علم النفس، على سبيل المثال. يجب على المرء أن يلاحظ عن كثب بضعة أشخاص ممن يعيشون حوله، ويطابِق بين لحظات في حياتهم وبين المنظومة

---

(1) يوريزن: في أساطير وليام بليك، هو تجسيد للعقل والقانون، يصوّر غالبًا كشيخ ملتح، يحمل أدوات معمارية لخلق الكون، أو شِباكًا تمثل القانون والتقاليد يصطاد بها الناس. (المترجم)

الكوكبية. يجب عليه أيضًا أن يراقب ويحلل المجريات التي يشارك فيها أشخاص مختلفون. وسرعان ما سيلاحظ الأنماط الفلكية المشابهة التي تصف الحوادث المتشابهة. عندها يبدأ تكريس المرء – آه، نعم، النظام موجود، وهو في متناول اليد. النجوم والكواكب ترسّخه، بينما السماء هي القالب الذي يحدّد الأنماط لحياتنا. الدراسة المستفيضة تتيح تخمين ترتيب الكواكب في السماء من تفاصيل صغيرة هنا على الأرض. عاصفةٌ بعد الظهر، خطابٌ دسّه رجل البريد في شقّ بالباب، مصباحٌ مكسور في الحمام. لا شيء يستطيع مراوغة هذا النظام. مفعوله عليّ يشبه الخمر، أو أحد تلك العقاقير الجديدة التي، هكذا أتخيّل، تملأ الشخص ببهجة صافية.

يجب على المرء أن يبقي عينيه وأذنيه مفتوحة، يجب عليه أيضًا أن يعرف كيف يطابق الحقائق، أن يرى التشابه حيث يرى الآخرون اختلافًا كاملًا، أن يتذكّر أن مجرياتٍ معيَّنة تحدث في مستويات مختلفة أو، بعبارة أخرى، أن الكثير من الحوادث هي أوجه للحدث المفرد نفسه. وأن العالم ليس إلا شبكة هائلة، كلٌّ متكامل، حيث لا وجود لشيء بمفرده بمعزل عن البقية؛ كل قطعة من العالم، كل شذرة صغيرة، مربوطة بالبقية عن طريق كوْنٍ معقّدٍ من المراسلات، يصعب على العقل العادي اختراقه. هكذا يعمل العالم. مثل سيارة يابانية.

ديزي، الميّال للاستطرادات المسهبة في موضوع رمزية بليك الغرائبية، لم يشاركني قط شغفي بالفلك. هذا لأنه وُلد متأخّرًا جدًّا. جيله لديه بلوتو في برج الميزان، الأمر الذي يُضعف بعض الشيء من يقظتهم. وهم يظنون أن بوسعهم تسوية حساباتهم، وتعديل الخسائر بالمكاسب، مهما كانت فادحة. أنا لا أظنّهم يستطيعون ذلك. ربما يعرفون تصميم المشاريع وتعبئة استمارات المنح والتمويل، غير أن معظمهم فقدَ يقظته واحترازه.

أنا نشأت في منطقة جميلة، صارت الآن في طي الماضي للأسف. كان فيها استعداد عظيم للتغيير، وموهبة لابتكار رؤى ثورية. في أيامنا هذه لم يعد أحد يمتلك الشجاعة للتفكير في أي شيء جديد. كل ما يتكلّمون عنه، على مدار الساعة، هو الحالة القائمة للأشياء، ويكتفون بتدوير الأفكار القديمة نفسها. الواقع تقادَم وصارَ شيخًا خرفًا؛ فهو، في نهاية المطاف، خاضع بكل تأكيد للقوانين التي يخضع لها كل كائن حي - يَشيخ. تمامًا مثل خلايا الجسد، أصغر مكوِّناته، تستسلم الأحاسيس للاستماتة. الاستماتة موتٌ طبيعي، ينتج عن تعب المادة وإرهاقها. في اليونانية تعني الكلمة «سقوط بتلات الأزهار». لقد أسقط العالم بتلاته.

بيدَ أن شيئًا جديدًا لا بد أن يلي ذلك، مثلما يحدث دائمًا - فهل هو تناقض هزلي؟ أورانوس في برج الحوت، لكن عندما ينتقل إلى الحمل، سوف تبدأ دورة جديدة، وسوف يولَد الواقع من جديد. في الربيع، بعد عامين من الآن.

كانت دراسة **الطالع** تجلب لي المتعة، حتى وأنا أكتشف منظومات الموت تلك. حركة الكواكب ساحرة، فاتنة، لا تتوقّف ولا تتسارع. أحب أن أفكر كيف يتجاوز هذا النظام بكثير زمن جانبنا دوشيكو ومكانها. أمرٌ طيب أن يكون لديك ما تستطيع الاعتماد عليه بالكامل.

وهكذا، من أجل تحديد الموت الطبيعي ندرس مواضع «الهيلاج»؛ الجرم السماوي الذي يشفط الطاقة الحيوية من الكون لأجلنا. في الميلادات النهارية يكون الهيلاج هو الشمس، وفي الليلية يكون القمر، وفي بعض الحالات يكون الجرم المهيمن الخاص بالبرج **الصاعد** هو الهيلاج. وينشأ الموت عادة عندما يصل الهيلاج إلى مُجانبة فلكية شديدة التنافر مع الجُرم المهيمن في المنزل الثامن أو مع الكوكب المتموضع بداخله.

لدى التفكير في خطر الموت العنيف، كان عليَّ الانتباه إلى الهيلاج،

ومنزله، والكواكب الواقعة داخل هذا المنزل. ولفعل ذلك أخذت أتفحّص أيًّا من الكواكب المؤذية -المريخ، زحل، أورانوس- كان أقوى من الهيلاج، ويصنع معه أحد المُجانبات الفلكية السلبية.

ذلك اليوم جلست للعمل وأخرجت من جيبي الورقة المكرمشة التي سبق أن دوّنت عليها تفاصيل القدم الكبيرة، لأرى إن كان موته قد جاءه في التوقيت الصحيح. وبينما أضرب تاريخ ميلاده على أزرار الحاسوب، ألقيت نظرة على الورقة، فرأيت أني دوّنت تفاصيله على صفحة من روزنامة للصيد، تحت عنوان «مارِس». كان ثمة جدول يوضح أشكال الحيوانات التي يمكن صيدها في مارس.

انبثق الطالع أمامي على الشاشة، وعلى مدار ساعة أسرَ نظراتي. أولًا نظرتُ إلى زحل. زحل في «البرج الثابت» غالبًا ما يكون مؤشرًا على الموت اختناقًا، أو خنقًا، أو شنقًا.

على مدار أمسيتين ظللت أعمل على طالع «القدم الكبيرة»، إلى أن اتصل بي ديزي واضطررت إلى محاولة ثنيه عن فكرة زيارتي. سيارته الفيات 126 الجسورة سوف تغوص في الثلج الرخو. دع هذا الصبي الذهبي يترجم بليك هناك، في نُزل العمّال الذي يسكنه. دعه يعيش في حجرات عقله المظلمة، يحمِّض الصور الإنكليزية السالبة ويحولها إلى جُمل بولندية. الأفضل أن يأتي يوم الجمعة - عندها أخبره بالقصة الكاملة، وأعرض عليه تشكيل النجوم الدقيق دليلًا.

ينبغي أن أتوخّى الحرص الشديد. الآن أتجرأ وأقولها: أنا لست فلكية جيدة، لسوء الحظ. ثمة نقيصة في شخصيتي تشوِّش صورة توزيع الكواكب أمام عينيّ. أنظر إليها من وراء خوفي، وبالرغم من سيماء المرح التي يُسبغها عليّ الناس عن سذاجة أو بساطة، فأنا أرى كل شيء وكأنما في مرآة معتمة، وكأنما من وراء زجاج مدخّن. أنظر إلى العالم كما ينظر الآخرون إلى الشمس في الكسوف. هكذا أرى الأرض في الكسوف.

أرانا نتحرّك هنا وهناك كالعميان في غبشة سرمدية، مثل خنافس مابو حبسها طفلٌ شقي في علبة. ما أسهل إيذاءنا وجَرحنا، ما أسهل سحق وجودنا الغرائبي، المجمَّع على نحو معقد. أنا أفسر كل شيء بوصفه شاذًّا غريبًا، رهيبًا ومنذرًا بالخطر. لا أرى إلا الكوارث. لكن لما كان السقوط هو بدايتنا، أفلا يمكن أن نسقط أكثر وأكثر؟

بيدَ أني أعرف تاريخ موتي، على أي حال، وهذا يشعرني بالحرية.

V

نور في المطر

تُشيَّد السجون من أحجار القانون
أما المواخير فمن لَبِنات الدِّين.

فرقعةٌ، دويّ بعيد، وكأن أحدهم فرقعَ كيسًا ورقيًا منفوخًا في الغرفة المجاورة.

اعتدلتُ في الفراش وقد خامَرَني هاجس رهيب أن شيئًا سيئًا سيحدث، وأن هذا الصوت ربما يكون حُكمًا على حياة شخص ما. تكرّرت الأصوات، فهرعتُ أرتدي ملابسي، ولو ليس بوعي كامل. توقفتُ وسط الغرفة، مُشربَكة في سترتي، وقد شعرت فجأة بالعجز - ماذا أفعل؟ كان الطقس جميلًا كعادته في مثل تلك الأيام؛ لا بد أن إله الطقس يحابي الصيادين. كانت الشمس ساطعة تُغشي الأبصار، وقد أشرقت لتوّها، ولا تزال محمرّة من فرط الجهد، تلقي ظلالًا طويلة ناعسة. خرجتُ، ومجددًا شعرت وكأن صغيرتيّ تركضان أمامي، وسط الثلوج، نشوانتان بطلوع النهار، تعبّران عن فرحتهما بانفتاح وبلا خجل حتى إن عدواها أصابتني رغمًا عني. كنت ألقي لهما كرة ثلج، فتعتبران ذلك ضوءًا أخضر لكل صنوف اللهو والصخب، وتنطلقان على الفور في مطارداتهما الفوضوية، التي يتحوّل فيها المطارد فجأة إلى مطارَد، وهكذا تتبدّل غاية السباق من لحظة إلى أخرى، وأخيرًا تبلغ فرحتهما حدًّا يجعلهما تركضان حول البيت بلا توقف، مثل المجانين.

مجددًا شعرت بالدموع على خدَّيَّ - ربما ينبغي أن أذهب لزيارة «الدكتور علي» في هذا الشأن. إنه طبيب أمراض جلدية، لكنه يعرف كل شيء تقريبًا ويفهم كل ما يحدث. لا بد أن عينيَّ مريضتان بحق.

وإذ كنت أتجه بخطى واسعة صوب «الساموراي»، أنزلتُ كيس المشتريات المليء بالثلج من على شجرة البرقوق وشعرت بثقله. «Die Kalte Teufelshand»، عاودتني ذكرى بعيدة من الماضي. هل هذا فاوِست؟ قبضةُ الشيطان الباردة. دارت الساموراي من المرة الأولى، ثم، وكأنها تعرف حالتي الذهنية، انطلقت بإخلاص وسط الثلوج. صلصلَت مجارف البستنة والإطار الاحتياطي في المؤخرة. كان من الصعب تحديد الموضع الذي تأتي منه الطلقات؛ كانت تتقافز مرتدة على جدار الغابة، وقد تضاعفت قوتها. مضيتُ باتجاه الممر، وعلى بعد نحو كيلومترين وراء الجرف رأيت سياراتهم - سيارات جيب فاخرة وشاحنة صغيرة. كان ثمة رجل يقف إلى جوارها، يدخن سيجارة. زِدت من السرعة وأنا أقترب من ذلك المخيّم. كان من الواضح أن الساموراي تعرف ما أفكر فيه، لأنها نثرت بحماسةٍ ثلجًا رطبًا في كل الاتجاهات. ركض الرجل ورائي لبضعة أمتار، وهو يلوِّح بذراعيه، محاولًا إيقافي على الأرجح. بيدَ أني لم أعبأ به.

ثم رأيتهم، يسيرون في تشكيل عسكري؛ صفّ فضفاض. عشرون أو ثلاثون رجلًا في أزياء خضراء موحدة، زي مموّه وتلك القبعات البلهاء ذات الريش. أوقفتُ سيارتي وركضت تجاههم. سرعان ما تعرفتُ على العديد منهم. ورأوني بدورهم. نظروا إليّ مندهشين وتبادلوا نظرات متسلّية.

صرختُ: «ما الذي يحدث هنا بحق الجحيم؟».

توجّه إليّ أحد المساعدين. كان أحد الرجلين المُشوْرَبين اللذين

جاءا لاصطحابي يوم موت القدم الكبيرة. «سيدة دوشيكو، من فضلك لا تقتربي أكثر، هذا خطر. أرجوك ابتعدي عن هنا. نحن نطلق النار».

لوحتُ بيديّ أمام وجهه. «لا، أنتم من يجب أن تبتعدوا عن هنا. وإلا سأستدعي الشرطة».

انفصل آخرٌ عن التشكيل الصفّي وتوجّه إلينا؛ لم أعرفه. كان يرتدي بزّة صيدٍ كلاسيكية، مع قبّعة. مضى صفّ الرجال قدمًا، وهم يصوبون بنادقهم أمامهم. قال بأدب: «لا حاجة لذلك، يا مدام. الشرطة هنا بالفعل». ابتسم بطريقة سلطوية. والحقّ أني رأيت هيئة المأمور الكرشاء في البعيد.

صرخ أحدهم: «ما الأمر؟».

«لا شيء، إنها فقط السيدة العجوز من لوفتسوك. تريد أن تستدعي الشرطة»، قالها، بنبرة ساخرة.

شعرتُ بكراهية تجاهه.

وقال أبو شارب بنبرة ودية: «سيدة دوشيكو، رجاءً لا تكوني حمقاء. نحن نطلق النار هنا فعلًا».

صرخت بأعلى صوتي: «ليس من حقكم إطلاق النار على مخلوقات حية!». اختطفَت الريح الكلمات الخارجة من فمي وحملتها عبر الهضبة بأكملها.

«لا بأس - رجاءً عودي إلى بيتك. نحن فقط نصطاد الديوك البرية»، هكذا طمأنني أبو شارب، وكأنه لم يفهم احتجاجي. وأضاف الرجل الآخر في نبرة معسولة: «لا تتجادل معها، إنها مجنونة».

عند تلك النقطة شعرتُ بدفقة من الغضب، غضب حقيقي، لكي لا أقول مقدّسًا. اجتاحني من الداخل في موجة ساخنة حارقة. جعلتني هذه الطاقة أشعر بالانتشاء، وكأنها رفعتني من على الأرض رفعًا، بيغ بانغ مصغّر داخل كَوْن جسدي. كانت نار تحترق بداخلي، مثل نجم نيوتروني.

وثبتُ إلى الأمام ودفعتُ الرجل الذي يعتمر القبعة السخيفة بقوة أسقطته على الثلج، وقد أخذ على حين غرّة. وعندما اندفع أبو شارب لمساعدته، هاجمته هو الآخر، وضربته على كتفه بكل قوتي. صرخ من الألم. أنا لست فتاة ضعيفة.

«هيه، هيه، يا امرأة، هل هذا سلوك مهذّب؟»، التوى فمه من الألم وهو يحاول أن يقبض عليّ بيديه.

في تلك اللحظة جاء الرجل الذي كان يقف بجوار السيارات يركض من ورائي -الواضح أنه لاحقني بسيارة- وأمسك بي بقبضة قوية مثل مَلزمة. قال في أذني: «سأصحبك إلى سيارتك»، لكن تلك لم تكن خطته على الإطلاق؛ عوضًا عن ذلك سحبني إلى الخلف، وأسقطني.

حاول أبو شارب مساعدتي لأقف على قدميّ، بيدَ أني دفعته بعيدًا في اشمئزاز. لم تكن لدي فرصة.

«لا تزعجي نفسك، يا مدام. نحن في إطار القانون».

هذا ما قاله: «في إطار القانون». نفضتُ الثلج عني وتوجّهت إلى سيارتي. كنت أرتعد من الغضب، وظللت أتعثّر في سَيري. في هذه الأثناء، كان صفّ الصيادين قد اختفى في دغل منخفض، صفصافات صغيرة في أرض موحلة. بعدها مباشرة سمعت صوت الرصاص من جديد؛ كانوا يطلقون النار على الطيور. دخلتُ سيارتي وجلستُ بلا حراك، ويداي على عجلة القيادة، لكن مرّت فترة قبل أن أتمكن من التحرك.

عدت إلى البيت، أبكي من العجز. كانت يداي ترتعشان، وعرفت الآن أن ذلك الأمر لن ينتهي على خير. بتنهيدة راحة، توقفت الساموراي أمام البيت، وكأنها ظلت تساندني طوال الوقت. ضغطتُ وجهي على عجلة القيادة. استجاب البوق بحزن، مثل صرخة استغاثة. مثل عويل رثاء.

تظهر اعتلالاتي على نحو غادر؛ لا أعرف أبدًا متى ستأتي. وعندها

يحدث شيء داخل جسدي، تبدأ عظامي في التوجّع. وجعٌ بغيض، مقزِّز - هذه هي الكلمة التي سأستخدمها. يستمر بإلحاح، لا يتوقّف لساعات، أحيانًا لأيام متّصلة. وجعٌ لا مهرب منه، لا حبوب أو حقَن لتسكينه، وجعٌ خُلق لكي يُعذِّب، تمامًا مثلما خُلق النهر لكي يجري والنار لكي تَحرق. يذكّرني على نحو بغيض بأني مصنوعة من جزيئات مادية، تنسلُّ هاربةً كل ثانية. ربما يستطيع المرء أن يعتاد ذلك؟ أن يتعلّم العيش معه، تمامًا مثلما يعيش الناس في أوشفيتز أو هيروشيما من دون أن يفكروا أبدًا في ما حدث عندهم في الماضي. يعيشون حياتهم ببساطة.

لكن بعد تلك الآلام في عظامي تأتي الآلام في معدتي، في أمعائي، في كبدي، في كل ما بداخلي، من دون توقف. الغلوكوز قادرٌ على تهدئته لفترة، لذا أحمل دائمًا قارورة صغيرة في جيبي. لا أعرف أبدًا متى ستداهمني النوبة، أو متى ستسوء حالتي. أحيانًا يبدو الأمر وكأني مؤلفةٌ بالكامل من أعراض مَرضيّة، كأني طيفٌ مجبول من الألم، وكلما عجزت عن معرفة ماذا أفعل بنفسي، أتخيَّل بطني مزوّدة بسحّاب، من رقبتي إلى ملتقى فخذيّ، وأتخيلني أفتحه ببطء، من أعلى إلى أسفل. ثم أخلع ذراعيَّ من ذراعيّ، وساقيَّ من ساقيّ، وأنزع رأسي من رَأسي. وبينما أستخلص نفسي من جسدي، يتساقط هذا كرداء قديم. تحته، أظهر أكثر رقة، ناعمة، شفافة تقريبًا. لديّ جسد مثل قنديل البحر، أبيض، حليبيّ، فسفوريّ.

هذا الخيال هو الشيء الوحيد القادر على التخفيف عني. آه، نعم، عندها أصير حرّة.

***

قبل نهاية الأسبوع، يوم الجمعة، طلبتُ من ديزي أن يأتي متأخرًا عن المعتاد، إذ ازداد شعوري بالمرض إلى حدّ جعلني أقرر الذهاب إلى الطبيب.

جلستُ في الصف في غرفة الانتظار وتذكّرتُ كيف قابلت الدكتور علي.

العام الماضي، كانت الشمس قد أحرقتني مجدّدًا. لا بد أني بدوت مثيرة للشفقة، إذ ظهر الهلع على ممرضات الاستقبال واصطحبنني مباشرة إلى العنبر. طلبن مني الانتظار هناك، ولما كنت جائعة، أخرجت بعض البسكويت المرشوش بجوز الهند من حقيبتي ورحت ألتهمه. بعدها بقليل، ظهر الطبيب. كان لونه بنيًا شاحبًا، مثل حَبة الجوز. نظر إلي وقال: «أنا أحب باسكِت جوز الهند أنا أيضًا».

جعلني ذلك أشعر بدفء تجاهه على الفور. تبيّن أن لديه طبعًا خاصًا - مثل كثيرين ممّن تعلموا البولندية في الكبر، كان يستبدل بعض الكلمات بكلمات أخرى مختلفة تمامًا.

«سنرى الآن ما الذي يسبب لك العَلَم»[1]، قال هذه المرة.

هذا الرجل كان يعالج اعتلالاتي كلها، لا آلام جلدي فقط. كان وجهه الداكن هادئًا دائمًا. كان يأخذ وقته، ويحكي لي نوادر متشابكة وهو يفحص نبضي وضغط دمي بعناية. آه، نعم، لقد تجاوز واجبات طبيب الأمراض الجلدية بكل تأكيد. علي، الذي جاء من الشرق الأوسط، كانت لديه طرق تقليدية موثوقة للغاية لعلاج أمراض الجلد - يطلب من السيدات في الصيدلية تجهيز بعض المراهم والغسولات المعقّدة، التي تستغرق وقتًا في إعدادها، وتحتوي على العديد من المكوّنات. خمنتُ أن الصيادلة المحليين لا يحبّونه لهذا السبب. كانت لخلطاته ألوانٌ مروعة وروائحُ صادمة. لعله كان يؤمن بأن علاج الطفح الناتج عن الحساسية ينبغي أن يكون مبهرًا كالطفح نفسه.

اليوم فحصَ أيضًا الكدمات على ذراعيَّ. «كيف حدث هذا؟».

---

(1) العَلَم: يقصد «الألم». (المترجم)

هوَّنتُ من المسألة. أي خبطة صغيرة كانت تترك على جلدي علامة حمراء لشهور. كذلك فحصَ حَلْقي، وتحسّس غددي الليمفاوية واستمع إلى رئتيّ.

قلت: «هل تعطيني شيئًا يخدّرني من فضلك؟ لا بد أن هناك عقارًا ما. أريد ذلك العقار. لكي يمنعني من الإحساس بأي شيء، أو بالقلق، لكي يجعلني أنام. هل هذا ممكن؟».

بدأ يدوِّن الوصفات الطبية. ظل يتدبّر طويلًا في كل منها، يمضغ طرف قلمه؛ أخيرًا أعطاني رُزمة كاملة منها، وكل دواء كان يجب إعداده خصيصًا.

***

رجعتُ إلى البيت في وقت متأخر. كان الظلام قد حلَّ منذ وقت طويل، ومنذ الأمس ظلّت تهب ريح جبلية دافئة، وهكذا أخذ الثلج يذوب بسرعة وشفشافٌ رهيب ينهمر. لحسن الحظ لم تكن نار الموقد قد انطفأت تمامًا. ديزي تأخر هو الآخر، إذ، من جديد، كانت القيادة على الطريق الصاعدة مستحيلة بسبب الثلج الناعم الزلِق. ترك سيارته الفيات الصغيرة حيث ينتهي الأسفلت، وأكمل الطريق على قدميه، مخضَّلًا بالمياه ومتجمّدًا حتى النخاع.

ديزي، واسمه الرسمي ديونيزي، كان يزورني كل جمعة، وإذ يأتي من العمل مباشرة، أُعدَّ عشاء في ذلك اليوم. ولأني أظل وحدي بقية الأسبوع، أجهّز طنجرةً كبيرة من الحساء يوم الأحد، وأظل أسخّنه كل يوم حتى الخميس، عندما آكل تموينًا جافًا من دولاب المطبخ، أو بيتزا مارغريتا في البلدة.

ديزي يعاني من حساسية بغيضة، الأمر الذي يمنعني من إطلاق العنان لخيالي الطَّهَوِيّ. يجب أن أطهو له من دون استخدام أي من منتجات الألبان، أو المكسّرات، أو الفلفل، أو البيض، أو القمح، ما يحدد قائمة

طعامنا بصورة كبيرة. خاصة ونحن لا نأكل اللحوم. أحيانًا، عندما يسقط فريسة لغواية طائشة تجاه شيء لا يناسبه، يمتلئ جلده بطفح مسبّب للحكّة، وبثور صغيرة مليئة بالماء. ثم يبدأ في حكّ نفسه على نحو خارج عن السيطرة، ثم يتحوّل الجلد المحكوك إلى جروح متقرِّحة. لذا فالأفضل أن نتجنّب التجربة. حتى عَلِيًّا، بوصفاته، لم يكن بوسعه تهدئة حساسية ديزي. كانت ذات طبيعة غامضة وغدّارة - وأعراض مختلفة متنوّعة. لم يتمكّن أحد من القبض عليها أثناء نشاطها بأيّ اختبار كان.

أخرج ديزي من حقيبة ظهره البالية كرّاسًا وطقم أقلام ملوَّنة، وجعل يلقي إليها نظرات متململة طوال وجبتنا؛ ثم، فور انتهائه من التهام آخر لقمة وشروعه في ارتشاف الشاي الأسود (النوع الوحيد الذي يروق لنا)، بدأ يحكي لي ما استطاع إنجازه ذلك الأسبوع. كان ديزي يترجم بليك. أو هكذا قرّر، وإلى الآن يسعى وراء ذلك الهدف بلا كلل.

ذات مرة، منذ زمن بعيد، كان واحدًا من تلاميذي. الآن وصل إلى سن الثلاثين، لكن الحقيقة أنه لم يختلف بأي شكل عن ديزي الذي سبق وأن حبس نفسه بطريق الخطأ في الحمام أثناء امتحان التخرج في اللغة الإنكليزية في المدرسة الثانوية، ما تسبب في رسوبه في الامتحان. منعه شعوره بالحرج من طلب المساعدة. لطالما كان رقيقًا، مثل البنات، بيدين صغيرتين وشعر ناعم.

غريبٌ أن القدر جمعنا معًا مجددًا قبل أعوام بعد ذلك الامتحان التعس، هنا في سوق البلدة. رأيته ذات يوم لدى خروجي من مكتب البريد. كان في طريقه لاستلام كتاب طلبه عبر الإنترنت. للأسف، لا بد أني تغيّرت كثيرًا، لأنه لم يعرفني على الفور، لكنه حدّق فيّ بفم مفتوح، وهو يطرف بعينيه.

أخيرًا بادرني هامسًا، في نبرة مندهشة: «أهذا أنتِ؟».

«ديونيزي؟».

«ماذا تفعلين هنا؟».

«أعيش بالقرب من هنا. وأنت؟».

«وأنا أيضًا، يا سيدة دوشيكو».

ثم ألقينا نفسَينا عفويًا في أحضان أحدنا الآخر. تبين أنه، إبّان عمله في فروتسلاف كاختصاصيّ في تكنولوجيا المعلومات لدى الشرطة، فشل في الإفلات من «خطة إعادة التنظيم والهيكلة». عُرضت عليه وظيفة في الأقاليم، بل وكُفلَت له إقامة مؤقتة في نُزل إلى أن يعثر لنفسه على شقة لائقة. لكن ديزي لم يعثر على شقة، وظل يعيش في نُزل العمال المحليين، وهو كتلة أسمنتية هائلة وقبيحة المنظر، حيث تستريح كل المجموعات السياحية الصاخبة في طريقها إلى التشيك، وحيث تنظّم الشركات «فعاليات بناء روح الفريق»، مع حفلات سُكر حتى الفجر. كانت لديزي غرفة كبيرة هناك، مع ردهة ومطبخ مشترَك في الطابق العلوي.

كان يعمل الآن على «كتاب يوريزن»، الذي بدا لي أصعب بكثير من الكتب الأسبق، «أمثال من الجحيم»، و«أغنيات البراءة»، اللذين ساعدْتُه فيهما بكل إخلاص. في الحقيقة لم أجد ذلك سهلًا، إذ لم أستطع معرفة الرأس من القدم في الصور الدرامية الجميلة التي استحضرها الكاتب وصاغها في كلمات. هل كان يفكر بتلك الطريقة حقًّا؟ ما الذي يصفه؟ وأين ذلك؟ أين يحدث، ومتى؟ هل هي حكاية خيالية أم أسطورة. ظللت أسأل ديزي هذه الأسئلة.

وكان يقول، بلمعة في عينيه: «إنه يحدث طوال الوقت وفي كل مكان».

فور انتهائه من مقطع ما، كان يقرأ عليّ كل سطر بجلال وينتظر تعليقاتي. أحيانًا شعرت بأني أفهم كل كلمة على حدة، لكني عاجزة عن

استيعاب معناها معًا. لم أكن واثقة تمامًا كيف أساعده. لم أحب الشعر؛ كل القصائد التي كُتبت قاطبة بدت لي معقّدة وغامضة على نحو غير ضروري. لم أستطع فهم السبب الذي يمنع تسجيل تلك التجليات نثرًا على نحو لائق. ثم كان ديزي يفقد صبره وتثور ثائرته، كنت أحب إغاظته بتلك الطريقة.

لا أظنني كنت مفيدة له على وجه الخصوص. كان أفضل مني بكثير، كانت بديهته أسرع، ولعلي أقول إنه صاحب ذكاء رقميّ (ديجيتال)؛ أما ذكائي فظل «تناظريًا» (أنالوغ). كان سريعًا في اكتشاف العلاقات وقادرًا على النظر إلى الجملة وترجمتها من زاوية شديدة الاختلاف، ينحّي جانبًا الملحقات غير الضرورية لكلمة ما، ثم يقفز عنها ويرجع بشيء جديد تمامًا وجميل. كنت دائمًا أمرّر له الملّاحة، لأن لديَّ نظرية أن الملح مفيد جدًّا لنقل نبضات الأعصاب عبر المشابك العصبية. وتعلّم هو أن يدسَّ فيها إصبعًا مبللًا بلعابه، ثم يلعق الملح عنه. كنت قد نسيت معظم إنكليزيتي في ذلك الوقت؛ ولم يكن ابتلاع كل ما لديَّ من ملح فيليتشكا بقادر على مساعدتي، وعلاوة على ذلك، سرعان ما وجدتُ هذا العمل الجهيد مملًا. كنت ضائعة تمامًا.

كيف يمكن للمرء ترجمة إيقاع قد يستخدمه الأطفال الصغار لبدء لعبة ما، عوضًا عن التغنّي، «إيني ميني ميني موه»، مرة بعد أخرى.

Every Night & every Morn,
Some to Misery are Born,
Every Morn & every Night,
Some are Born to sweet delight,
Some are born to Endless Night.



هذا أشهر مقاطع بليك. ما من سبيل لترجمته إلى البولندية من دون

خسارة الإيقاع، الإيقاع والإيجاز الطفولي. حاول ديزي مرات تلو مرات، وكان الأمر يشبه حل أحجية.

الآن كان قد أتى على حسائه؛ أدفأه كثيرًا حتى إن خدّيه تورّدا. أخذَت الكهرباء الاستاتيكية من قبعته تطقطق في شعره، وظهرت هالة صغيرة غريبة حول رأسه.

ذلك المساء صَعُب علينا التركيز على الترجمة. كنت متعبة ومشغولة البال، لم أستطع التفكير.

قال ديزي: «ماذا بكِ؟ ذهنك شارد اليوم».

اتفقت معه. كانت الآلام قد خفّت لكنها لم تغادرني بالكامل. كان الجو فظيعًا، عاصفًا وممطرًا. عندما تهب الريح الجبلية يصعب التركيز.

سألني ديزي: «What Demon hath form'd this abominable void».[1]

كان بليك يناسب المزاج في تلك الأمسية: شعرنا وكأن السماء قد انخسفت كثيرًا واقتربت من الأرض، فلم تترك ما يكفي من فضاء أو هواء للمخلوقات الحيّة. سَحابات منخفضة، داكنة جعلت تندفع بقوة عبر السماء طوال اليوم، والآن، في أواخر المساء، كانت تحكّ بطونها الرطبة في التلال.

حاولت إقناعه بقضاء الليل عندي، مثلما كان يفعل أحيانًا -عندها كنت سأجهّز له فراشًا على الأريكة في مكتبي الصغير، وأشغّل المدفأة الكهربائية وأترك الباب المتصل بالغرفة التي أنام فيها مفتوحًا- لكي يستطيع كل منّا سماع أنفاس الآخر. لكنه اعتذر. شرح لي، وهو يفرك

(1) What Demon hath form'd this abominable void: «أي شيطان من الجنّ خلق هذا الفراغ الرجيم؟». (المترجم)

جبينه نعِسًا، أن مركز الشرطة يتحوَّل إلى نظام حاسوبي جديد؛ لم أرغب في معرفة التفاصيل، ما يهم أن لديه الكثير من العمل. عليه أن يتّخذ موقعه في الصباح الباكر. مع الوضع في الحسبان الطرق الموحلة التي سيكون عليه مراوغتها.

قلت مغتاظة: «كيف ستصل إلى هناك؟».

«فور أن أصل إلى الأسفلت سأكون بخير».

لم تعجبني فكرة مغادرته. ألقيت على نفسي رداءَيْن من الصوف وقُبعة. كان لدى كل منّا معطف مطر واقٍ أصفر اللون، ما جعلنا نبدو مثل قزمَيْن من قبيلة واحدة. تحت معطفه، ارتدى ديزي سترة رقيقة معلّقة على جسده على نحو فضاض؛ ورغم محاولتنا تجفيف حذائه على جهاز التدفئة، كان لا يزال مشرَّبًا بالماء. سِرت معه إلى الطريق الترابي، وكنت سأسعد بمرافقته إلى سيارته. لكنه لم يرغب في ذلك. تبادلنا الوداع على الطريق الترابي، واستدرت لأرجع إلى البيت عندما صاح يناديني.

كان يشير إلى الممر. كان شيء يتألق هناك، على نحو واهن. غريب.

استدرت إليه.

سألني: «ماذا يمكن أن يكون؟».

هززتُ كتفيّ. «ربما شخص يجوس هناك بمصباح يدوي؟».

«هيا، دعينا نتحقّق». قبض على يدي وسحبني معه، مثل صبي كشافة يلاحق لغزًا بوليسيًا.

«الآن، في الليل؟ لا تكن سخيفًا، أنت ترى الماء يغمر كل شيء»، قلتها، وقد أدهشني عناده. «ربما فقد غريب الأطوار مصباحًا يدويًا فظل في مكانه يسطع بنوره».

قال ديزي وهو يتقدّمني: «هذا ليس ضوء مصباح يدوي».

حاولت إيقافه. شددتُ يده، لكن كل ما بقي في يدي كان قفّازه. «ديونيزي، لا، دعنا لا نذهب إلى هناك. أرجوك».

لا بد أن شيئًا ما قد استحوذ عليه، لأنه لم يتجاوب معي على الإطلاق.
قلت، في محاولة لابتزازه: «سأبقى هنا».
«طيّب، ارجعي إلى البيت، سأذهب إلى هناك وأتحقّق بنفسي. ربما حدث شيء. اذهبي».
صرختُ بغضب: «ديزي!».
لم يجبني.
وهكذا، لحقتُ به، وقد أضأتُ مصباحًا يدويًا لكلينا، ملتقطةً من وسط الظلام رقعًا واضحة كان كل لون فيها قد اختفى. كانت السحب واطئة جدًّا حتى كان بمقدور المرء أن يضرب فيها خُطافًا ويتركها تنقله إلى أرض بعيدة، إلى الجنوب، إلى طقس أكثر دفئًا. هناك يمكن أن يقفز مباشرة داخل بساتين الزيتون، أو على الأقل كَرْمات العنب في مورافيا، حيث يُصنع النبيذ الأخضر اللذيذ. في هذه الأثناء، جعلَت أقدامنا تغوص في الثلج نصف الذائب، بينما يحاول المطر أن يتسلّل تحت غطاءَيّ رأسينا ويصفعنا على وجهينا.
أخيرًا، رأينا الشيء.
في الممر وقفت سيارة، مرَكَبة كبيرة من مرَكبات الطرق الوعرة. كانت كل أبوابها مفتوحة، وضوء خفيف يشعّ من داخلها. توقفتُ على بعد بضعة أمتار، خائفة من الاقتراب منها؛ شعرتُ وكأني سأنفجر في البكاء في أي لحظة مثل طفلة، من فرط الخوف والجهد العصبي. أخذ ديزي المصباح وتقدّم ببطء من السيارة. أضاء داخلها. كانت السيارة فارغة. على المقعد الأمامي كانت حقيبة أوراق سوداء، وكانت هناك بعض من أكياس التسوّق أيضًا، ربما مليئة بالمشتريات.
«تعرفين ماذا»، قال ديزي بهدوء، وهو يلفظ كل مقطع ببطء: «أنا أعرف هذه السيارة. إنها سيارة المأمور التويوتا».
الآن أدار مصباحه ليستكشف المنطقة المحيطة بالسيارة. كانت تقف

في نقطة ينعطف عندها الطريق يسارًا. على الجانب الأيمن كانت أجمة كثيفة؛ قبل الحرب كان هناك بيت وطاحونة هواء. الآن لم تعد ترى إلا بعض الخرائب المكسوة بأعشاب استطالت كثيرًا، وشجرة جوز كبيرة، كانت السناجب تأتي إليها جريًا في الشتاء من كل أرجاء الجيرة.

قلت: «انظر. انظر ماذا على الثلج!».

التقط نور المصباح بعض الآثار الغريبة - كتلًا من البقع المستديرة بحجم العملات المعدنية؛ كانت في كل مكان، حول السيارة وعلى الطريق. كذلك ظهرت آثار أحذية رجالية ذات نعال غليظة ومسنّنة. رأيناها بوضوح لأن الثلج كان يذوب والماء الداكن يتسرّب داخل كل أثر.

قلت، وأنا أركع على ركبتي لأتفحَص العلامات الصغيرة المستديرة عن قرب: «إنها آثار حوافر. آثار غزلان. هل ترى؟».

بيدَ أن ديزي كان ينظر في الاتجاه الآخر، ناحية بقعة من الثلج الرطب وُطئت بالأقدام حتى تسطّحت. انزلق ضوء المصباح، باتجاه الهشير، وبعدها بقليل سمعتُ صرخته. كان يستند إلى حافة بئر قديمة قائمة بين الأجمة، على جانب الطريق.

«آه يا ربّي، آه يا ربّي، آه يا ربّي»، أخذ يكرّرها بشكل آلي، ما أفقدني توازني على الفور. مؤكدٌ أنه ما مِن ربّ سيأتي ويعيد الأشياء إلى نصابها. ثم قال منتحبًا: «يا ربّي، ثمة شخص هنا».

في البئر الضحلة كان ثمة جسدٌ، رأسه إلى أسفل، ملويّ. وراء إحدى ذراعيه، ظهر جزء من الوجه، بشع المنظر، مغطّى بالدماء، وعيناه مفتوحتان. وفي الأعلى، برز حذاءٌ ضخم، ذو نعل غليظ. كانت البئر قد رُدمَت منذ أعوام وكانت ضحلة، مجرد حفرة. سبق لي أنا نفسي أن غطيتها بالأغصان ذات مرة لأمنع أغنام طبيب الأسنان من السقوط فيها.

ركع ديزي ولمس الحذاء بعجز، مربتًا على سطحه العلوي.

همستُ: «لا تلمس شيئًا».

أخذ قلبي يدقّ بجنون. شعرت وكأن الرأس الملطخة بالدماء ستستدير باتجاهنا في أي لحظة، ويلتمع بياض عينيها وسط تيار الدم المتخثّر، وتتحرّك الشفتان وتنطقان بكلمة ما، وبعدها يبدأ هذا الجسد الضخم في الزحف ببطء، عائدًا إلى الحياة، ساخطًا على موته ذاته، ثائرًا مهتاجًا، ويُطبِق على حَلْقي.

قال ديزي متفجّعًا: «ربما لا يزال على قيد الحياة».

دعوتُ ألا يكون كذلك.

وقفنا هناك، وقد سرَت القشعريرة في أوصالنا وصعقَنا الرعب. أخذ ديزي يرتعش وكأنه أصيب بنوبة؛ وشعرتُ بقلق عليه. كانت أسنانه تصطك. تعانقنا، وشرع ديزي في البكاء.

كان الماء ينهمر من السماء وينبجس من الأرض - وشعرنا بالأرض تحت أقدامنا مثل إسفنجة عملاقة مشبَعة بالماء البارد.

قال ديزي، بصوت مزكوم: «سنُصاب بالتهاب رئوي».

اقترحت عليه: «هيا نبتعد من هنا. هيا نذهب، غريب الأطوار، سيعرف ماذا يفعل. هيا نبتعد من هنا. دعنا لا نقف هنا».

رجعنا أدراجنا، وكل منا يتشبث بالآخر على نحو أخرق، مثل جنديين جريحين. أحسستُ برأسي يحترق بأفكار مفاجئة، قلقة، أكاد أراها تتدفّق في المطر، تتحوّل إلى سحابة بيضاء وتلتحق بالسحابات السوداء. وإذ نحن نسير معًا، تنزلق خُطانا على الأرض المخضّلة بالمياه، تناهت إلى شفتيَّ كلمات أردتُ بإلحاح أن أشاطرها مع ديزي. شعرتُ برغبة في قولها بصوت عالٍ، غير أني لم أستطع إخراجها في تلك اللحظة. كانت تراوغني. لم أعرف من أين أبدأ.

قال ديزي وهو ينشج: «يا ربّ السماء. إنه المأمور، لقد رأيتُ وجهه. إنه هو».

كنت أهتم بأمر ديزي كثيرًا، ولم أرغب أن يظنني مخبولة. ليس هو. فور وصولنا إلى بيت غريب الأطوار، استجمعتُ شجاعتي، وقررت أن أنطق وأخبره بما أفكر فيه.

قلت: «ديزي، **الحيوانات** تنتقم من البشر».

ديزي دائمًا يصدّقني، لكن هذه المرة لم ينصت لي أصلًا.

تابعتُ: «الأمر غريب مثلما يبدو. **الحيوانات** قوية وحكيمة. نحن لا ندرك مدى ذكائها. في مرة من المرات حوكمَت **الحيوانات** أمام المحكمة. بل وأدين بعضها».

تمتم ذاهلًا: «ماذا تقولين؟ ماذا تقولين؟».

«قرأت ذات مرة عن بعض **الفئران** الذين حوكموا لأنهم تسببوا في الكثير من الأضرار، لكن القضية أرجئت لأنهم لم يحضروا جلسات الاستماع. وأخيرًا عيّنت المحكمة محاميًا للدفاع عنهم».

«يا ربّي، عمّ تتحدّثين؟».

واصلتُ: «أظن أن ذلك كان في فرنسا، في القرن السادس عشر. لا أعرف كيف انتهى الأمر وما إن كانوا قد أدينوا أم لا».

توقّف فجأة، وقبض على ذراعيّ بقوة وهزّني: «أنت مصدومة. عمّ تتحدّثين بالله عليكِ؟».

كنت واعية تمامًا بما أقول. وقررتُ أن أتحقّق من تلك الوقائع فور أن أجد الفرصة.

لاح غريب الأطوار من وراء السور يعتمر مصباح رأس. في ضوئه بدا وجهه غريبًا وشاحبًا كجثة. سألنا بنبرة خفير حراسة: «ماذا حدث؟ لماذا تتجوّلان في الليل؟».

قال ديزي، بأسنان مرتجفة، وهو يشير إلى الوراء: «المأمور هناك، إنه ميت. بجوار سيارته».

فتح غريب الأطوار فمه وحرّك شفتيه من دون صوت. ظننته فقدَ القدرة على الكلام، غير أنه، بعد وقفة طويلة، قال: «رأيت سيارته الضخمة اليوم. كان مقدّرًا للأمور أن تنتهي على هذا النحو. كان يقود تحت تأثير الخمر. هل اتصلتما بالشرطة؟».

سألتُ، وأنا أفكر في الاضطراب الذي يعاني منه ديزي: «وهل لا بد أن نفعل ذلك؟».

«لقد عثرتما على جثة. أنتما شاهدان».

اتجه إلى الهاتف، وسرعان ما سمعناه يُبلغ بهدوء عن موت رجل.

قلت: «أنا لن أرجع إلى هناك»، وكنت أعرف أن ديزي لن يرجع هو الآخر.

أخذ ديزي يدمدم: «إنه في بئر. قدماه إلى أعلى. رأسه إلى أسفل. مغطّى بالدماء. هناك آثار أقدام في كل مكان. آثار صغيرة، تشبه حوافر الغزلان».

قال غريب الأطوار بنبرة جافة: «ستثور جَلَبة لأنه شرطي. آمل ألا تكونا دُستما على الآثار. لا بد أنكما تشاهدان أفلام الجريمة، أليس كذلك؟».

دخلنا مطبخه الدافئ، اللامع، بينما وقف هو ينتظر الشرطة في الخارج. لم نتبادل كلمة أخرى. جلسنا على مقعدَيْنا مثل تماثيل الشمع، بلا حراك. جعلَت أفكاري تتسارع مثل هاتِه السحابات الممطرة الثقيلة.

وصلت الشرطة في سيارة جِيب بعد نحو ساعة. وكان المعطف الأسود آخر من ترجّل.

«آه، أهلًا يا بابا، نعم، ظننت أنك ستكون هنا»، قالها ساخرًا، وكان غريب الأطوار المسكين محرَجًا جدًّا.

حيّانا المعطف الأسود جميعًا بمصافحة عسكرية، وكأننا من صبيان

الكشافة وهو قائد فريقنا. لقد قمنا لتونا بعمل طيّب، وهو يشكرنا عليه. ولو أنه رمق ديزي بنظرة اشتباه وسأله: «ألست أعرفك؟».

«معرفة عابرة. أنا أعمل في مركز الشرطة».

وسارعتُ أنا بالتوضيح: «إنه صديقي. يأتي لزيارتي أيام الجمعة، لأننا نترجم بليك معًا».

نظر إليّ المعطف الأسود بجفاء وطلب مني بأدب أن أركب معه سيارة الشرطة. عندما وصلنا إلى الممر، أحاطت الشرطة البئر بشريط بلاستيكي وشغّلَت المصابيح الكاشفة. كانت السماء تمطر، وفي الضوء الساطع استحالت قطرات المطر خيوطًا فضية طويلة، كتلك التي تزيّن أشجار الكريسماس.

قضينا الصباح بأكمله في مقر الشرطة، ثلاثتنا، مع أن غريب الأطوار، في الحقيقة، لم يستحق الوجود على الإطلاق. كان مروّعًا، وراودني إحساس هائل بالذنب لجرجرته إلى هذا الأمر.

جرى استجوابنا وكأننا قتلنا المأمور بأيدينا. لحسن الحظ، كانت لديهم ماكينة قهوة غير معتادة في مركز الشرطة هذا تصنع أيضًا الشوكولاتة الساخنة. أعجبتني كثيرًا جدًّا، وأعادتني إلى صوابي على الفور، ولو أني كان ينبغي أن أكون أكثر حذرًا، بالنظر إلى **اعتلالاتي**.

عندما أعادونا إلى بيوتنا كانت الساعة قد تجاوزت الظهيرة. وكان الموقد قد انطفأ، وهكذا شقيتُ لأشعله من جديد.

غلبني النوم على الأريكة. بكامل ملابسي. لم أغسل أسناني. نمتُ مثل الموتى، وقبيل الفجر، والظلام لا يزال بكامل عنفوانه في الخارج، سمعتُ فجأة صوتًا غريبًا. ظننتُ أن فرن التدفئة المركزية قد توقّف عن العمل، وانقطع طنينه الرقيق. رميتُ معطفًا على جسدي ونزلتُ إلى أسفل. فتحتُ باب حجرة الغلّاية.

هناك كانت تقف أمي، في فستان صيفيّ عليه أزهار، وحقيبة يد تتدلّى من على كتفها. كانت قلقة ومرتبكة.

صرختُ من الدهشة: «بالله عليك، ماذا تفعلين هنا يا ماما؟».

فتحَت فمها وكأنما لتجيب، وحاولَت تحريك شفتيها لبرهة، لكنها لم تُخرِج أي صوت. ثم استسلمَت. وراحت عيناها تشردان قافزتين على حوائط حجرة الغلّاية وسقفها. لم تعرف أين هي. مجدّدًا حاولَت أن تقول شيئًا، ومجدّدًا استسلَمَت.

«ماما»، همستُ، وأنا أحاول الإمساك بنظرتها الهاربة.

كنت غاضبة منها، لأنها ماتت قبل زمن بعيد، وهذا ليس السلوك القويم للأمهات اللاتي مِتن قبل زمن بعيد.

«كيف انتهى بك الحال هنا؟ هذا ليس مكانًا مناسبًا لكِ»، شرعت أوبّخها، غير أن حزنًا شديدًا اجتاحني. رمتني بنظرة مرتعبة، ثم بدأَت عيناها تشردان إلى الحوائط، في حيرة وارتباك.

أدركتُ أني استحضرتها إلى هنا من دون قصد، من مكان آخر – كان وجودها هنا غلطتي.

قلتُ برقّة: «انصرفي يا ماما».

لكنها لم تسمعني؛ ربما ما كان بإمكانها سماعي أصلًا. رفضَت نظرتُها أن تتوقّف عليّ. ثائرةً، صفعتُ باب حجرة الغلّاية، ثم وقفتُ على الجانب الآخر، أنصت. كل ما وسعني سماعه كان حفيفًا، شيئًا مثل خربشة الفئران أو السوس في الخشب.

رجعتُ إلى الأريكة. وفي الصباح عاودني كل ذلك فور استيقاظي.

VI

تفاهات وسفاسِف

الغزال الشارد في البرية
يُبعد الهمّ عن كل روح بشرية.

لا بد أن غريب الأطوار قد خُلق لحياة العزلة، مثلي تمامًا، لكن لم يكن هناك مجال لاتحاد عزلتَيْنا المنفصلتين. بعد تلك الحوادث الدرامية عاد كل شيء إلى طبيعته. أقبل الربيع، فانطلق غريب الأطوار في التنظيف بكل همّة ونشاط، وفي عزلة ورشته كان واثقًا من جاهزية مختلف الأدوات، التي سوف يستخدمها في الصيف لكي ينغّص عليّ حياتي - مثل المنشار الكهربائي، ومفرمة الأغصان، وأكثر آلة أكرهها: جزّازة العشب.

أحيانًا أثناء جولاتي اليومية الطقوسية كنت أرى هيئته الضامرة المحدوْدِبة، لكن من بعيد دائمًا. بل ولوّحتُ له مرة من فوق التل، لكنه لم يجبني. ربما لم يلاحظني.

في أوائل مارس أصابتني نوبة أخرى، حادة، وخطر ببالي أن أهاتف غريب الأطوار أو أعرِّج عليه وأطرق بابه. كان موقدي قد انطفأ، غير أني لم أمتلك القوة الكافية للنزول إلى حجرة الغلّاية، الأمر الذي لم يكن مصدر سرور لي أبدًا. تعهّدتُ لنفسي أن أعتذر لعملائي، عندما يأتون لزيارة منازلهم في الصيف، عن عدم الاستمرار في وظيفتي السنة التالية. سوف أخبرهم أن هذه قد تكون آخر سنة لي هنا. ربما أضطر قبل الشتاء

القادم إلى العودة إلى شقتي الصغيرة في شارع فيجينا في فروتسلاف، إلى جوار الجامعة، التي يستطيع المرء منها مراقبة نهر أودَر لساعات لا تنتهي، وهو يضخّ مياهه شمالاً بإصرار على نحو منوّم.

لحسن الحظ مرّ عليّ ديزي وأشعل الموقد القديم. ذهبَ إلى السقيفة الخشبية وجلب عربة يد، مليئة بالأخشاب المشبّعة برطوبة مارس التي تَبعث الكثير من الدخانة والقليل من الدفء. ومن برطمان خيار مخلل وبقايا بعض الخضروات استطاع إعداد حساء شهي.

ظللت طريحة الفراش لعدة أيام، تحت وطأة تمرّدات جسدي. تحملتُ نوبات الخدر في ساقيّ بصبر، والإحساس غير المحتمل للنار التي تضطرم بداخلهما. كنت أتبول بولًا أحمر، وأستطيع أن أؤكد أن المرحاض المليء بالسائل الأحمر منظرٌ بشع. أسدلتُ الستائر، إذ لم أتحمل انعكاس نور مارس الساطع على الثلوج. وأخذ الألم يسوط دماغي سوْطًا.

لديّ نظرية تقول إن شيئًا رهيبًا قد حدث - المخيخ في رؤوسنا لم يتصل على نحو صحيح بدماغنا. ولعل هذا أسوأ خطأ في برمجتنا. لقد صنعنا أحدُهم على نحو سيئ. لذلك كان ينبغي استبدال طرازنا. لو اتصل مخيخنا بدماغنا، لامتلكنا معرفة كاملة بتشريحنا، بما يدور داخل أجسادنا. آه، كان الواحد منا سيقول لنفسه، مستوى البوتاسيوم في دمي تدنّى. فقرتي العنقية الثالثة تشعر بتوتر. ضغط دمي منخفض اليوم. يجب أن أتحرّك هنا وهناك. بالأمس تسبب المايونيز بالبيض في رفع مستوى الكوليسترول عندي كثيرًا، لذا يجب أن أنتبه لطعامي اليوم.

لدينا ذلك الجسد، قطعة إشكالية من المتاع، لا نعرف بحق أي شيء عنه ونحتاج إلى أدوات من كل صنف لكي نكتشف أكثر سيروراته طبيعية. أليست فضيحة أن الطبيب لكي يعرف ماذا يحدث داخل معدتي، في المرة الأخيرة، أجرى فحصًا بالمنظار؟ كان عليّ أن أبتلع

أنبوبًا غليظًا، وتطلّب الأمر كاميرا لكي تكشف لنا دواخل معدتي. الأداة الوحيدة الفجّة والبدائية التي وُهبنا إيّاها من باب العزاء هي الألم. لا بد أن الملائكة، إن كان لهم وجود بحق، يتقلّبون من الضحك علينا. تخيل أن تُمنح جسدًا ولا تعرف أي شيء عنه. لا وجود لدليل تشغيل.

لسوء الطالع، حدث الخطأ منذ البداية، وتبعته أخطاء أخرى.

لحسن الحظ كانت دورة نومي تتبدّل مجددًا؛ صرت أغفو في الفجر وأستيقظ بعد الظهر، الأمر الذي لعله كان أسلوب دفاع طبيعيًا ضد ضوء النهار، ضد النهار إجمالًا وكل ما يخصه. كنت أستيقظ -أو ربما كل ذلك حلم ليس إلا- فأسمع وقع أقدام صغيرتيّ تطقطق على السلم، وكأن كل ما حدث مؤخرًا ليس إلا هلوسة مجهِدة من صنيع الحمَّى. وتلك كانت لحظات جميلة.

في حالتي الوسنانة فكرتُ أيضًا في التشيك. كانت الحدود تظهر في ذهني، وذلك البلد الرقيق الجميل يقبع وراءها. هناك، كل شيء تضيئه الشمس، مذهَّب بالنور. الحقول تتنفس معًا على سفوح الجبال المسطّحة، التي خُلقت فقط لكي تبدو جميلة بكل تأكيد. الطرق مستقيمة، الأنهار صافية؛ الكباش الجبلية والأيائل السمراء ترعى في حظائر بجوار البيوت، صغار الأرانب البرية تمرح وسط الذرة، وقد رُبطت أجراسٌ صغيرة في عربات الحصاد كطريقة رقيقة لإفزاعها إلى مسافة آمنة. الناس ليسوا في عجلة من أمرهم، ولا ينافس بعضهم بعضًا طوال الوقت. لا يلاحقون أحلامًا مستحيلة. إنهم سعداء بما هم عليه وبما يمتلكونه.

ذاك اليوم أخبرني ديزي أنه عثر في مكتبة صغيرة في بلدة ناخود التشيكية على طبعة أنيقة من بليك، لذا دعنا الآن نتخيل هؤلاء الناس الطيبين، الذين يعيشون على الجانب الآخر من الحدود، والذين يتحدّثون مع بعضهم البعض بلغة رقيقة، طفولية، يَرجعون من العمل

في الأمسيات، يشعلون نارًا في المدفأة ويقرأون بليك لبعضهم بعضًا. وربما لو كان بليك لا يزال على قيد الحياة ورأى كل ذلك، لقال إن هناك أماكن في الدنيا لم يحدث فيها السقوط، ولم ينقلب فيها العالم رأسًا على عقب، ولا تزال جَنّة عدن موجودة فيها. الإنسان هنا ليس محكومًا بقواعد العقل، الغبية والصارمة، بل بالقلب والحدس. الناس لا ينخرطون في ثرثرات عقيمة، لا يتظاهرون بما يعرفون، بل يخلقون أشياءً مرموقة من وحي الخيال. الدولة تتوقف عن فرض أغلال القمع اليومي، وبدلًا من ذلك تساعد الناس على تحقيق آمالهم وأحلامهم. والإنسان ليس مجرد ترس في النظام، بل يلعب دورًا فحسب، لكنه يظل مخلوقًا حرًّا. هذا ما كان يدور بخاطري، ويُسبغ على استلقائي في الفراش قدرًا من المتعة.

أحيانًا أفكر أن المرضى وحدهم هم الأصحاء بحقّ.

أول يوم شعرت فيه بتحسّن ارتديت بعض الملابس وخرجت، يلاحقني إحساس بالواجب، في جولتي المعتادة. كنت ضعيفة مثل بُرعم بطاطس ينمو في ظلمة القبو.

تبيّن أن الثلوج الذائبة قد خلعَت ميزابًا في بيت الكاتبة، والآن كان الماء ينهمر مباشرة على الحائط الخشبي، مهددًا بتعفّنه. هاتفتها، غير أنها، بالطبع، لم تكن في البيت، ربما كانت خارج البلاد. ما يعني أنني سأضطر إلى التعامل مع الميزاب بنفسي.

إنه لغز عويص، كيف يقدح كل تحدٍّ زنادَ قُوًى حيوية بداخلنا. شعرتُ بتحسّن حقيقي – فقط ساقي اليسرى كانت لا تزال معذَّبة بالألم؛ ألم يشبه تيارًا كهربائيًا، لذا جعلتُ أمشي عليها بتخشّب، وكأنها طرفٌ صناعيٌّ. لكن فور أن وجبَ علي تحريك السلم المتنقل، توقفتُ عن التفكير في اعتلالاتي. نسيت الألم.

وقفت على السلم لنحو ساعة وذراعاي مرفوعتان، أجاهد بلا فائدة لاستبدال الميزاب المثبّت بدعائم نصف دائرية. وفوق ذلك، كانت

إحدى تلك الدعائم مكسورة، ولا بد أنها ترقد في مكان ما وسط الثلوج العميقة المكوّمة على أجناب البيت. كان بوسعي انتظار ديزي، الذي كان سيأتي ذلك المساء مع رباعية شعرية جديدة والمشتريات، لكن ديزي ضعيف، لديه يدان صغيرتان تشبهان أيدي الفتيات، ولنقلْها صراحة، كان أخرق بعض الشيء. أقول ذلك مع كامل الحب والاحترام له. ليست تلك نقيصة فيه. هناك من السمات والطباع في ذلك العالم عددٌ كافٍ لإثراء كل واحد منّا، هكذا قلتُ لنفسي.

ومن فوق السلم المتنقل رأيت التغيرات التي أحدثها ذوبان الثلوج على الهضبة. هنا وهناك، خاصة في المنحدرات الجنوبية والغربية، ظهرت رقعٌ داكنة - كان الشتاء يسحب جيوشه من هناك، لكنه ظل صامدًا على حدود الحقول وتحت أرض الغابة. كان الممر بأكمله أبيض اللون. لماذا تصير الأرض المحروثة أدفأ من الأرض العشبية؟ لماذا تذوب الثلوج أسرع في الغابة؟ لماذا تظهر الحلقات في الثلوج حول جذوع الأشجار؟ هل الأشجار دافئة؟

طرحتُ تلك الأسئلة على غريب الأطوار، الذي ذهبتُ إليه طلبًا للمساعدة في إصلاح ميزاب الكاتبة. رمقني بنظرة متحيرة لكنه لم يجب. وبينما أنتظره، تفحّصتُ الشهادة التي حصل عليها لمشاركته في مسابقة لجمع الفطر تنظّمها سنويًا «جمعية جامعي فطر البورسيني».

قلت: «لم أعرف أنك ماهر إلى هذه الدرجة في جَمْعِ الفطر».

ابتسم ابتسامة واهنة من دون أن ينطق بكلمة، بطريقته المعتادة.

قادني إلى ورشته، التي كانت تشبه عيادة جرّاح - حيث كل أنواع الأدراج والأرفف الصغيرة، كلٌّ منها عليه أداة، أداة خاصة صُممت لتنفيذ مهمة واحدة بعينها. قضى وقتًا طويلًا يفتش في علبة، إلى أن استخرج أخيرًا قطعة من سلك الألومينيوم المسطّح، ملويّة في شكل حلقة غير محكَمَة الإغلاق.

قال: «مَشبَك خراطيم».

ببطء، كلمة بعد كلمة، وكأنما يصارع شللًا مستفحلًا في اللسان، اعترف أنه لم يتكلّم مع أي إنسان منذ عدة أسابيع، والواضح أن قدرته على صياغة الكلمات كانت قد اضمحلت. أخيرًا، وبينما يتنحنح وهو يتكلّم، أخبرني أيضًا أن القدم الكبيرة مات بالاختناق بعَظْمة. والظاهر أن التشريح أثبت أنه حادث مأسوي. عرفَ ذلك من ابنه.

انفجرتُ ضاحكةً. «ظننتُ أن الشرطة قادرة على اكتشافات أكثر فطنة من ذلك. كان واضحًا من أول نظرة أنه اختنق بعَظْمة».

«لا شيء واضحًا من أول نظرة»، هكذا قال محتدًّا بحماسة غير معهودة، ما جعل الملاحظة تلتصق بذهني.

قلت: «أنت تعرف ما أفكر فيه، أليس كذلك؟».

«ماذا؟».

«تتذكّر الغزلان التي كانت تقف أمام بيته عندما وصلنا إلى هناك؟ لقد قَتلوه».

حدّق صامتًا في مَشبَك الخراطيم في يده: «كيف؟».

«كيف، كيف. لا أعرف بالضبط. ربما أخافوه وحسب وهو يلتهم أختهم على نحو وحشيّ».

«هل تقولين إننا أمام تواطؤ؟ أن الغزلان تآمرت عليه؟».

لبرهة لم أجب. بدا أنه يحتاج إلى وقت طويل لكي يلملم أفكاره، ثم يستوعبها. يجدر به أن يتناول المزيد من الملح. مثلما قلت، الملح مفيد لسرعة التفكير. كان أيضًا بطيئًا في انتعال حذاء الثلج والمعطف المصنوع من جلد الغنم.

ونحن نسير وسط الثلوج الطريّة، قلت: «وماذا عن المأمور في البئر؟».

«ما هو سؤالك؟ هل تريدين معرفة سبب وفاته؟ لا أعرف. لم يقل لي».

كان يقصد المعطف الأسود، بالطبع.

«لا، لا، أنا أعرف سبب وفاته».

«وما هو؟»، سألني وكأنه أمر لا يهمه على الإطلاق.

لذا، لم أجبه على الفور، بل انتظرت إلى أن صرنا فوق الجسر الصغير المؤدي إلى بيت الكاتبة.

«الأمر نفسه».

«تقصدين اختناقًا بعَظمة؟».

«لا تتهكّم. أقصد أن الغزلان قتلته».

«امسكي السلّم»، هكذا أجابني.

ارتقى الدرجات وجعل يعالج الميزاب، بينما أخذتُ أنا أفصّل نظريتي. كان لديّ شاهد - ديزي. ديزي وأنا نعرف أكثر من غيرنا، إذ كنا أول من وصل إلى مسرح الحادث، ورأينا أشياءً لم تستطع الشرطة رؤيتها لاحقًا. عندما وصلت الشرطة كان الجو مظلمًا ومطيرًا. كانت الثلوج تذوب أمام أعيننا، ماحيةً أهم شيء على الإطلاق -تلك الآثار الغريبة حول البئر، الكثير منها، المئات، وربما أكثر- صغيرة ومستديرة، وكأن قطيعًا من الغزلان قد طوّق شخصًا.

أصغى غريب الأطوار إليّ لكنه لم يردّ هذه المرة، لأنه كان يمسك براغيَّ بفمه. وهكذا تابعتُ، قائلة إن المأمور ربما كان يقود سيارته ثم توقف لسبب ما. ربما غزالٌ، أحد القتلة، تصنَّع المرض، تظاهر أنه معتلّ، فسُرّ المأمور بالعثور على صيد بري. ثم، عندما ترجّل من السيارة، أحاطوا به وبدأوا يدفعونه باتجاه البئر...

«كان رأسه مغطى بالدم»، قال غريب الأطوار من أعلى، فور انتهائه من ربط البرغي الأخير.

«نعمِ، لأنه اصطدم أثناء سقوطه في البئر».
«هاك»، قالها بعد صمت طويل، وبدأ ينزل السلم.
الحقّ أن الميزاب صار ثابتًا بمشبك الخراطيم الألومينيوم. أما المشبك القديم، فمؤكد أن أحدهم سوف يعثر عليه بعد شهر من الآن بعد ذوبان الثلوج.
«حاولي الاحتفاظ بنظريتك لنفسك. إنه احتمال بعيد للغاية، ويمكن أن يسبب لك الأذى»، قالها غريب الأطوار، ثم توجه مباشرة إلى بيته من دون أن ينظر إليّ.
خطر لي أنه، مثل الجميع، يعتبرني امرأة مجنونة، وجرحَ ذلك مشاعري.
أمرٌ قاسٍ. مثلما يقول بليك: «الصداقة الحقيقية ابنة الخلاف».
***
وصلني استدعاء من أجل استجواب آخر بخطاب مسجل جاء به ساعي البريد. ولما كان قد جاهد للصعود على قدميه من البلدة إلى أعلى الهضبة، كان منزعجًا مني ولم يخفِ انزعاجه ذاك.
قال، من الباب الأمامي: «لا ينبغي أن يُسمح للناس بالعيش بعيدًا هكذا. ماذا تكسبون من الاختفاء من العالم على هذا النحو؟ سيَلحق بكم في أي مكان». كان هناك رضًا خبيثٌ في صوته. «وقِّعي هنا، من فضلك - خطاب من النيابة».
لم يكن من ضمن أصدقاء صغيرتيَّ المقربين. ولطالما أعربتا بوضوح عن نفورهما منه.
سألني: «طيّب، كيف هو العيش في برج عاجي، فوق رؤوس البشر الفانين الأصغر شأنًا، وأنفُك وسط النجوم».
هذا أكثر ما أكرهه في الناس - السخرية الباردة. إنه لجبنٌ شديد أن تهزأ أو تستخف بكل شيء، ألّا تلتزم بأي شيء، ألّا تشعر بأنك مرتبط

بأي شيء. مثل رجل عنّين لا يستطيع أن يجرب المتعة بنفسه، لكنه سيفعل كل ما بمقدوره لكي يُفسد متعة الآخرين. السخرية الباردة هي السلاح الأساسي لـ«يوريزن». سلاح العجز. في الوقت نفسه يمتلك الساخرون دائمًا نظرة للعالم يجاهرون بها مفاخرين، مع أن المرء إذا بدأ يلحّ عليهم ويستجوبهم حول التفاصيل، يتبين أنها لا تتكوّن إلا من تفاهات وسفاسِف. لن أغامر أبدًا بوصف شخص ما بأنه غبي، وما كنت لأدين ساعي البريد من دون تفكير. طلبت منه الجلوس وأعددت له قهوة، القهوة التي يحبها ساعي البريد - قوية، غير مرشَّحة، في كوب. كذلك عرضتُ عليه بعضًا من خبز الزنجبيل الذي خبزتُه قبل الكريسماس؛ تمنيت ألّا يكون قد تيبّس فيكسر له أسنانه.

خلع سترته وجلس إلى الطاولة.

قال: «لقد أوصلتُ الكثير من تلك الاستدعاءات مؤخرًا - لا بد أن لها علاقة بموت المأمور».

شعرتُ بفضول لمعرفة مَن أيضًا استدعته النيابة، غير أني لم أُظهر ذلك. انتظر ساعي البريد سؤالي، الذي لم يأتِ أبدًا. تململ على كرسيه وأخذ يرتشف قهوته. بيدَ أني عرفتُ كيف أدير الصمت.

قال أخيرًا: «مثلًا، سلّمتُ تلك الاستدعاءات لكل أصحابه».

قلت بلا مبالاة: «آه، نعم».

«كلهم طيور على أشكالها»، هكذا بدأ ببطء، متردّدًا، لكن كان واضحًا أنه قد خاض في الأمر وبات من الصعب عليه التوقّف. «لقد احتكروا السلطة. من أين جاؤوا بتلك السيارات والبيوت الفاخرة؟ شخص مثل مُصراني، على سبيل المثال؟ هل تصدقين أنه صنع ثروة من المَسلَخ؟». شدّ جفنه السفلي بحركة ذات مغزى، كاشفًا غشاءه المخاطي. «أو مزرعة الثعالب؟ كل هذا ليس إلا غطاء، يا سيدة دوشيكو».

لبرهة ظللنا صامتين.

«واضحٌ أنهم كانوا جزءًا من عُصبة ما. لا بد وأن شخصًا ساعده على السقوط في تلك البئر، هذا ما أعرفه»، هكذا أضاف ساعي البريد برضا هائل.

كان احتياجه للكلام بالسوء عن جيرانه عظيمًا لا يحتاج معه إلى استدراج.

«الجميع يعرفون أنهم كانوا يلعبون البوكر على رهانات عالية. أما بخصوص مطعمه الجديد ذاك، كازابلانكا، فهو ماخور لتجارة الرقيق الأبيض».

ظننته يبالغ.

«واضح أنهم كانوا يهرّبون سيارات فارهة من الخارج. سيارات مسروقة. شخص ما أخبرني -لن أقول مَن- أنه رأى سيارة 'بي إم دبليو' جميلة تتحرّك على الطرق الترابية في مطلع الفجر. فماذا كانت تفعل هناك؟». هكذا سأل سؤالًا بلاغيًّا، وقد توقّع بالتأكيد أن أدوخ من فرط الذهول بعدما كشف لي كل تلك الحقائق.

معظم ما كان يقوله كان بالتأكيد محض خيال.

«كانوا يتقاضون رشًى هائلة. من أين حصلوا على سيارات مثل سيارة المأمور، على سبيل المثال؟ من راتب الشرطة؟ السلطة تفسد العقل، هذا صحيح. إنها تجعل الإنسان يخسر كل إحساس بالاحترام. لقد باعوا بولندا بمليم. لقد عرفتُ المأمور لسنوات. كان رجل ميليشيات عاديًّا – انضم إلى قوة الشرطة لتجنّب الذهاب إلى مصنع الزجاج، مثل الباقين. كنت ألعب معه كرة القدم قبل عشرين عامًا. لكنه لم يعد يعيرني انتباهًا هذه الأيام. كَم افترق طريقانا في الحياة... أنا ساعي بريد عادي، بينما هو رئيس شرطة كبير. أنا أقود سيارة فيات شينكويشينتو، وهو يقود جيب شيروكي».

قلت: «تويوتا. تويوتا لاند كروزر».

أطلق ساعي البريد تنهيدة ثقيلة، وفجأة، شعرت بالأسف عليه، فلا بد أنه كان هو الآخر، ذات مرة، أحد الأبرياء، بيدَ أن قلبه الآن صار مغمورًا بالعلقم. لا ريب أن حياته صعبة بحق. ولا ريب أن كل تلك المرارة هي ما تجعله غاضبًا إلى هذا الحدّ.

«خلق الله الإنسان سعيدًا وغنيًا، لكن المكر جعل الأبرياء فقراء»، هكذا اقتبستُ من بليك، على نحو أو آخر. على أي حال، هذا ما أعتقده. باستثناء أنني أضع كلمة «الله» بين مزدوجين.

***

عندما وصل ديزي عصر ذلك اليوم، كان مصابًا بنزلة برد. كنا الآن نعمل على The Mental Traveller، ومنذ البداية نشأ خلافٌ حول إن كان يجدر بنا ترجمة كلمة mental الإنجليزية بمعنى mentalny - «ذهني» بالمعنى الحرفي، أي «المتعلّق بالذهن» -أم duchowy- الأقرب إلى «روحاني». قرأ ديزي النص الأصلي وهو يعطس:

I travel'd through a Land of Men,
A land of Men & Women too,
And heard & saw such dreadful things
As cold Earth wanderers never knew

أولًا، سطّر كل منا ترجمته الخاصة، في وزن المتقارب الأكثر طبيعية للشعر البولندي، ثم قارنّا نسختينا، وبدأنا نضفّر أفكارنا معًا. كان الأمر أشبه بإحدى ألعاب المنطق، نسخة معقدة من «سكرابِل».

طفتُ في أرض الإنسان
أرض الرجال والنساء
أرى وأسمع أشياءً مروّعة

أشياءً لم تخطر ببال.

أو:
سافرت في أرجاء عالم الإنسان
في ممالك الرجال والنساء
أسمع وأرى أشياء رهيبة،
لن تحلم بها أبدًا الأرواح الطاهرة.

أو:
طفتُ في ربوع عالم الإنسان
واجتزت ممالك الرجال والنساء
ما رأيتُ وسمعتُ كان شنيعًا،
لا يحلم به إنسان.

سألته: «لماذا نصرّ على وضع كلمة ‹إنسان› في النهاية؟ ماذا لو جعلناها ‹في بلاد الإنسان طفتُ›، هكذا تكون القافية أسهل، ‹طفت›، ‹سمعت›، ‹رأيت›، على سبيل المثال».

لم يعلّق ديزي، قرض أصابعه ثم اقترح أخيرًا بنبرة المنتصر:

في بلاد الإنسان طفتُ
في ملكوت الرجال والنساء
وكم من فظاعات رأيتُ
أهوال لم تشهدها عين بَصراء

لم تعجبني كلمة «بَصراء»، لكننا كنا بدأنا وتحمّسنا، وبحلول الساعة العاشرة كانت القصيدة قد أُنجزت. ثم تناولنا الجزر الأبيض المحمّر في زيت الزيتون. والأرز مع التفاح والقرفة.

بعد هذا العشاء الفاخر، وعوضًا عن الغوص في دقائق القصيدة، وجدنا نفسَينا بطريقة ما نرجع إلى قضية المأمور. كان ديزي يعرف ما تعرفه الشرطة. في نهاية المطاف، كان مخوّلًا بالدخول على شبكة عمل الشرطة بأكملها. بالطبع لم يعرف كل شيء. كان التحقيق في وفاة المأمور في يد سلطات أعلى. علاوة على ذلك، فقد حلفَ ديزي اليمين على سرية وظيفية صارمة، لكن ليس معي. فما الذي يمكن أن أفعله بسرٍّ، حتى لو كان بالغ الأهمية؟ أنا حتى لا أعرف كيف أمارس النميمة. لذا كان عادةً يسرّ إليّ بالكثير.

على سبيل المثال، كانوا يعرفون الآن أن المأمور مات بخبطة على الرأس، الأرجح عندما سقط بثقله داخل البئر نصف المتداعي. كذلك اكتشفوا أنه كان تحت تأثير الكحول، الأمر الذي كان ينبغي أن يخفِّف من سقطته، لأن الناس يصيرون أكثر لينًا وهم مخمورون. من ناحية أخرى، بدا أن الخبطة التي أصابت رأسه كانت قوية للغاية، لا يمكن أن تنجم عن سقوط عادي في بئر. مثل هذه الخبطة تحتاج إلى السقوط من ارتفاع عدة أمتار. مع ذلك لم يجدوا تفسيرًا آخر. كانت الخبطة قد أصابت صدغه. ولم يُعثر على سلاح جريمة محتمل، ولا على قرائن. جُمعت بعض الترهات -أغلفة حلوى، أكياس بلاستيكية، علب صفيح قديمة وواق ذكري مستعمل. كان الطقس رهيبًا، والفريق الخاص وصل متأخّرًا. كانت الريح قوية، والسماء تمطر، والثلوج تذوب بسرعة البرق. كنا نتذكر تلك الليلة جيدًا. كانت صورٌ فوتوغرافية قد التُقطت للعلامات الغريبة على الأرض – آثار حوافر غزلان، كما قلتُ وكرّرتُ. لكن الشرطة لم تكن متأكدة من وجود تلك الآثار أصلًا، وفي حال وجودها، ما إن كانت لها أي صلة بالحادث. في تلك الظروف يصير التأكّد مستحيلًا. كذلك لم تكن آثار الأقدام البشرية واضحة بدورها.

بيد أن ثمة حقيقة تكشّفت: أن المأمور كان يحمل عشرين ألف

زلوتي، في مظروف رمادي مدسوس تحت حزام بنطاله. كانت النقود مقسّمة بالتساوي على حزمتين مربوطتين برباط مطاطي. هذا أكثر ما حيّر المحقّقين. لماذا لم يأخذها القاتل؟ ألم يعرف بأمرها؟ وماذا لو كان القاتل هو من أعطاه النقود؟ ولماذا؟ إذا لم تجد دافعًا للجريمة ففتش عن المال. هكذا يقولون، غير أني أظنه تبسيطًا مفرطًا.

كذلك كانت ثمة نسخة تتضمّن حادثًا مأسويًا، بدا بعيد الاحتمال. وفقًا لتلك النسخة خرج القتيل المخمور للبحث عن مكان يخبئ فيه النقود، لكنه سقط داخل البئر ولقي مصرعه.

ديزي كان مصرًا أنها جريمة قتل. «غرائزي تخبرني بذلك. كنا أول من وصل إلى المسرح. هل تتذكرين روح الجريمة العالقة في الهواء؟».

وكان لديَّ الشعور نفسه بالضبط.

VII

خُطبة لكلب بودِل

الحصان على الطريق مُمتهَنًا شقيًا
يسأل السماء دمًا بشريًا.

تحرَّشت الشرطة بنا عدة مرات أخرى. وانصياعًا للقانون، امتثلنا للاستجواب وانتهزنا الفرصة لرؤية أشياء متنوعة في البلدة – اشترينا بذورًا، وطلبنا الحصول على منحة من الاتحاد الأوروبي، وذات مرة ذهبنا إلى السينما. إذ كنا معًا دائمًا، حتى عندما يُستدعى أحدنا فقط. اعترف غريب الأطوار للشرطة بأنه سمع سيارة المأمور تئن وتئز وهي تتحرك أمام بيوتنا عصر ذلك اليوم. قال إن المأمور اعتاد قيادة سيارته في الطرق الجانبية وهو مخمور، لذا لم يفاجأ. ولا بد أن رجال الشرطة الذين سجلوا إفاداته شعروا بالحرج.

لسوء الحظ، لم يسعني تأكيد ما قاله غريب الأطوار، ولو أني تحرّقت شوقًا لذلك. «كنت في البيت، لم أسمع أي سيارات، ولم أرَ المأمور. لا بد أني كنت أغذّي الموقد في حجرة الغلّاية، وأصوات الطريق ليست مسموعة من هناك».

وسرعان ما توقفتُ عن الاهتمام بالمسألة، ولو أن المنطقة بأكملها لم تتحدّث عن شيء آخر طوال الأسابيع القليلة الماضية، بل وخرجَت بنظريات أكثر تفصيلًا. اكتفيتُ ببذل قصارى جهدي لطرد الأفكار حول

الموضوع - هل عَدمت الميتات من حولنا حتى ينشغل المرء انشغالًا هوَسيًا بهذه الميتة؟

عدت إلى إحدى استقصاءاتي. هذه المرة أخذت أحلل بعناية جدول البرامج في أكبر قدر ممكن من القنوات، ودرستُ العلاقات بين محتويات الأفلام المُذاعة ومواضع الكواكب في السماء في يوم معيّن. كانت الصلات المتبادلة بينهما شديدة الوضوح، ظاهرة لكل عين. لطالما تساءلتُ إن كان المسؤولون عن إعداد جداول برامج التلفزة يحاولون استعراض معارفهم الفلكية المستفيضة. أم كانوا يعدّون الجداول بلا وعي، ومن دون تأثر بهذه الذخيرة الهائلة من المعارف. لعل العلاقات موجودة خارجنا بحقّ، بيدَ أننا نتقيها على نحو غير واعٍ. هذه المرة، كنت قد حدّدتُ بحثي بنطاق صغير، لا يغطي إلّا بضعة عناوين. مثلًا، لاحظت أن فيلمًا عنوانه «الوسيط»، شديد الغرابة والإثارة، عُرض على شاشة التلفاز بينما تدخل الشمس العابرة في مُجانبة فلكية مع بلوتو والكواكب في برج العقرب. كان الفيلم يدور حول الرغبة في الخلود وكيفية السيطرة على الإرادة البشرية. وكانوا يتكلّمون فيه عن حالات التأرجح على حافة الموت، والهوَس الجنسي، وغير ذلك من الأمور البلوتونيّة. كذلك نجحتُ في ملاحظة توافقات أخرى في ما يخص أفلام «الفضائيين»، التي تدور حوادثها على متن سفينة فضاء. هنا كانت أوجه ترابط طفيفة بين بلوتو، ونبتون، والمريخ تلعب دورًا في الموضوع. عندما كان المريخ يدخل في مُجانبة مع هذين الكوكبين البطيئين في الوقت نفسه، كان التلفاز يعرض إعادة لأحد أفلام «الفضائيين». أليس أمرًا مدهشًا؟

مثل هذه الصُدَف مذهلة. لديّ مِن المواد الإمبيريقية ما يكفي لتأليف كتاب كامل عنها. غير أني اكتفيت في الوقت الراهن بمقالة قصيرة، أرسلتُها إلى عدة إصدارات أسبوعية. لا أظن أحدًا سوف ينشرها، لكن لعل أحدهم يتدبّر فيها.

في منتصف مارس، وفور أن شعرتُ بأني سليمة معافاة من جديد، انطلقت في جولات أوسع نطاقًا، بمعنى أني لم أقتصر على تفقد أحوال البيوت التي تُركت في رعايتي، بل قررت أن أدور في دائرة أكبر، فأمضي في الطريق الطويل إلى الغابة، ثم أعبر المروج إلى الطريق السريع، وأتوقف عند الجرف.

في هذا الوقت من السنة يصير العالم بغيضًا أكثر من أيّ وقت آخر. تظل هناك رقعٌ ثلجية بيضاء كبيرة على الأرض، جامدة ومضغوطة، لا تعود تشبه ذلك الزَّغَب البريء الجميل الذي يتساقط في الكريسماس ليملأ قلوبنا بالبهجة. الآن تشبه نصل سكين، تشبه سطحًا معدنيًا. يصعب السير عليه، إذ يَنصب فخاخًا للأقدام. لولا أحذية الثلج الطويلة، يجرح ربلة الساق. السماء منخفضة ورمادية - تظن معها أنك تستطيع أن تمدّ يدك فتلمسها من فوق تل صغير.

وأنا أمشي، كنت أفكّر في تلك الحقيقة: إنني لن أستطيع مواصلة العيش هنا إلى الأبد، في هذا البيت فوق **الهضبة**، أحرس البيوت الأخرى. في نهاية المطاف سوف تتعطّل الساموراي ثم لن يعود هناك سبيل لقيادتها إلى البلدة. الدرجات الخشبية سوف تتعفّن، والثلج سوف يفكك الميازيب، والموقد سوف يتوقّف عن العمل، وفي أحد أيام فبراير الباردة التي تجمّد الدماء في العروق سوف تنفجر المواسير. وأنا سأزداد ضعفًا أيضًا. **اعتلالاتي** سوف تدمّر جسدي، تدريجيًا، بلا كلل. كل عام كانت ركبتاي تؤلمانني أكثر، والواضح أن كبدي لم يعد لائقًا للقيام بوظيفته. وأنا، على أي حال، عشت لزمن طويل. هذا ما كنت أفكر فيه، بقدر من الشفقة. يومًا ما سوف يكون عليّ أن آخذ كل تلك الأمور بجدية.

في تلك اللحظة رأيت سربًا سريعًا رشيقًا من **سمّان الحقل**. إنها طيور لا أراها أبدًا إلا في جماعات. تتحرّك بخفة ونشاط، مثل قطعة واحدة

كبيرة وحيّة من الدانتيلا تطير في الهواء. قرأتُ في مكان ما أنها عندما تتعرّض لهجوم أحد المفترِسات، أحد تلك **الصقور** البليدة التي تحوم في السماء مثل الروح القدس، على سبيل المثال، يدافع **سمان الحقل** عن نفسه. إذ تستطيع تلك الطيور أن تقاتل في جماعة، بطريقة غدّارة شديدة الخصوصية، بل وأن تأخذ بثأرها أيضًا -تحلّق بسرعة في الهواء، ثم في تناغم تام.تتبرّز على الباغي- يفاجأ المفترس بعشرات من حبات الذرق البيضاء تنهمر على جناحيه العزيزين، فتلوّثهما، وتلصقهما معًا، وتُغطي الريش بحمض مذيب. هذا يجبر **الصقر** على العودة إلى رشده، وإيقاف مطاردته والهبوط على العشب في اشمئزاز. بل وربما يموت من فرط القرف، بعد أن صار ريشه ملوثًا على نحو بشع. يقضي اليوم بأكمله في تنظيفه، ثم اليوم التالي أيضًا. لا ينام، لا يستطيع النوم بجناحين قذرين على هذا النحو. يشعر بالتقزّز من الرائحة الكاسحة المنبعثة من جسمه ذاته. يصير مثل فأر، مثل ضفدع، مثل جيفة. لا يقدر على استخدام منقاره في إزالة الروث الذي تيبّس، والجو شديد البرودة، والآن تستطيع مياه المطر بسهولة تخلّل ريشه الملتصق بعضه ببعض والوصول إلى جلده الهشّ. بل إن بني جنسه أنفسهم، **الصقور** الأخرى، يتحاشونه. يبدو لهم مجذومًا، مصابًا بمرض مرذول. لقد جُرِحَ كبرياؤه. **والصقر** لا يتحمل كل ذلك، وأحيانًا يقضي نحبه.

الآن، كانت طيور **سمّان الحقل**، التي تدرك أن قوتها في كثرتها، تمرح أمامي، تمارس أكروبات هوائية.

راقبتُ أيضًا زوجين من طيور **العقعق**، وفوجئت أنهما قد غامرا بقطع ذلك الطريق الطويل إلى **الهضبة**. بيدَ أني أعرف أن تلك الطيور تنتشر في مرعاها أسرع من غيرها، وفي المستقبل القريب سوف تكون في كل مكان، مثل **الحمام** في يومنا هذا. «**عقعق** واحد يعني حُزنًا، **عقعقان** يعني فَرحًا». هكذا كانوا يقولون عندما كنت طفلة، لكن عدد طيور **العقعق**

وقتها كان أقل. في الخريف الماضي، بعد موسم بناء الأعشاش، رأيت المئات منها تقلع إلى وكرها الليلي. وإني أتساءل إن كان ذلك يعني الفرح مضاعفًا.

ظللت أراقب طيور العقعق وهي تتحمّم في بركة صغيرة من الثلج الذائب. جعلَت ترميني بنظرات جانبية، لكن بدا واضحًا أنها لا تخاف مني، إذ ظلّت ترشّ الماء بجرأة بأجنحتها وتُغطِس فيه رؤوسها. وإنك حين ترى فرحتها، لا يصيبك شك في مدى المرح الذي يمكن أن يوفّره حمّامٌ بهذا الشكل.

الواضح أن طيور العقعق لا تستطيع العيش من دون أن تتحمّم كثيرًا. وفوق ذلك، فهم طيور ذكية ومتغطرسة. وهم، كما يعرف الجميع، يسرقون المواد اللازمة لأعشاشهم من الطيور الأخرى، ويحملون أشياءَ لامعة ليضعوها في تلك الأعشاش. كذلك سمعتُ أنهم في بعض الأحيان يُخطئون ويلتقطون أعقاب سجائر متوهّجة يأخذونها إلى أعشاشهم؛ على هذا النحو يصيرون مشعلي حرائق، ويحرقون المبنى الذي بنوا فيه عشّهم. عقعقنا الطيب القديم له اسم جميل في اللاتينية: «بيكا بيكا».

كم هو عظيم هذا العالم، ومفعم بالحياة.

هناك في البعيد، رأيت كذلك ثعلبًا مألوفًا أسمّيه «القنصل»، مهذبًا جدًّا وابن أصول. يتجول دائمًا في الممرات نفسها؛ يكشف الشتاء مساراته – مستقيمًا كسَهم، وثابت العزم. إنه ثعلب ذكر عجوز، يأتي ويذهب من التشيك – يبدو أن لديه أعمالًا هناك. أخذت أراقبه بمنظار ميداني وهو ينزل التل كالرهوان بخبب رشيق، مقتفيًا آثاره التي خلّفها على الثلج آخر مرة – ربما ليخدع مترصّديه المحتمَلين ويوهمهم أنه سار على هذا الدرب مرة واحدة فقط. كان الأمر أشبه برؤية صديق قديم. فجأة لاحظت أن القنصل قد انعطف هذه المرة عن الدرب المطروقة، وقبل أن أنتبه، اختفى وسط الأجمة التي تنمو على حدود الحقل. كان هناك منبر

صيد في تلك البقعة، وواحد آخر بعدها ببضع مئات من الأمتار. سبق وتعاملتُ معها في الماضي. اختفى الثعلب عن أنظاري، ولما لم يكن لدي ما أفعله، سرت وراءه بحذاء حافة الغابة.

كان هناك حقل كبير مغطى بالثلج. كان قد حُرث في الخريف، والآن كانت كتلٌ من الأرض نصف المجمدة تصنع تحت الأقدام سطحًا يصعب السير عليه. بدأت أشعر بالندم على قرار ملاحقة القنصل عندما رأيت فجأة، بعد أن جاهدت قليلًا لصعود التل، ما لفتَ انتباهه – هيئة سوداء كبيرة على الثلج، وبُقع دماء جافة. كان القنصل يقف أعلى مني بقليل، يحدق فيّ بهدوء، من دون خوف، وكأنه يقول: «هل ترين؟ هل ترين؟ لقد جئت بك إلى هنا، لكن الآن يجب أن تتعاملي مع الأمر». وانطلق هاربًا.

اقتربتُ فرأيت أن الهيئة كانت خنزيرًا بريًّا، لم يبلغ بعد، راقدًا وسط بركة من الدم البني. كان الثلج المحيط به قد كُشط، كاشفًا الأرض، وكأن الحيوان قد ظل يتخبّط ويتلبّط متشنجًا. رأيت آثارًا أخرى حوله أيضًا – آثار ثعالب، وطيور، وغزلان. الكثير من الحيوانات كانت هنا. جاءوا ليشهدوا جريمة القتل بأعينهم وليندبوا الخنزير الصغير المسكين. فضّلتُ أن أعكف على فحص آثارها بدلًا من النظر إلى الجسد. كم مرة يستطيع المرء النظر إلى جسد ميت؟ أمَا لذلك من نهاية؟ شعرت بطعنة في رئتيّ وصعوبة في التنفس. جلست على الثلج، ومجددًا بدأت الدموع تفيض من عينيّ. كنت أشعر بعبء جسدي ذاته؛ ذلك العبء الهائل الذي لا يُحتمل. لماذا لم أذهب في اتجاه آخر، لماذا لحقت بالقنصل؟ لماذا لم أتجاهل هذه الدروب الكئيبة؟ أينبغي أن أكون شاهدة على كل جريمة؟ كان اليوم سيسير على نحو مختلف تمامًا، وأيام أخرى أيضًا ربما. رأيت أين أصابته الرصاصات – في الصدر والبطن. رأيت إلى أين كان الخنزير يتجه – إلى الحدود، إلى التشيك، بعيدًا عن المنابر الجديدة،

التي تنتصب على الجانب الآخر من الغابة. لا بد أنه أُردي من هناك، أي إنه ركض، جريحًا، لمسافة أخرى، محاولًا الهروب إلى التشيك.

الأسى. شعرت بأسى عظيم، وإحساس لا ينتهي بالفجيعة على كل حيوان ميت. حزن يتبعه حزن، وأصير في حداد دائم. هذه حالتي الطبيعية. ركعتُ على الثلج الملطخ بالدم وربتُّ على شعر الخنزير الخشن، البارد واليابس.

***

«أنت تشفقين على الحيوانات أكثر من البشر».

«هذا ليس صحيحًا. أشعر بالأسف لكل منهما. لكن لا أحد يطلق النار على أناس عزّل»، هكذا أخبرتُ «حرس البلدية» ذلك المساء نفسه. وأضفتُ: «على الأقل ليس في أيامنا هذه».

«صحيح. نحن بلد ملتزم بالقانون»، هكذا أكد الحارس. بدا لي ذا طبيعة طيبة وإن كان ينقصه الذكاء.

قلت: «الحيوانات هي التي تظهر حقيقة البلد. موقفه تجاه الحيوانات. إذا تصرف الناس بوحشية تجاه الحيوانات لن تنفعهم الديمقراطية، بل لن ينفعهم أي شيء على الإطلاق».

في مركز الشرطة، كنت قد حرّرت بلاغًا فحسب. صرفوني سريعًا. سلموني ورقة كتبتُ عليها الحقائق ذات الصلة. خطر لي أن «حرس البلدية» بدوره هيئة عمومية مسؤولة عن القانون والنظام، لذا جئت إلى هنا. تعهّدت لنفسي إن لم يُجدِ ذلك نفعًا أن أذهب إلى النيابة. في اليوم التالي. إلى المعطف الأسود. وأن أبلغ عن جريمة قتل.

كان الشاب الوسيم، الذي بدا شبيهًا بعض الشيء ببول نيومان، قد أخرج حزمة من الأوراق من أحد الأدراج وكان الآن يبحث عن قلم. دخلت امرأة في زي رسمي من الغرفة الأخرى ووضعت أمامه قدحًا ممتلئًا.

سألتني: «هل تريدين بعض القهوة؟».

أومأتُ برأسي في امتنان. كنت أشعر بقشعريرة تسري في جسدي حتى العظام. كانت ساقاي تؤلمانني مجدّدًا.

سألتهما، من دون انتظار إجابة منهما: «لماذا لم يأخذوه؟ في رأيكما؟». بدا كلاهما متفاجئًا بزيارتي، ولم يعرفا تمامًا كيف يتصرّفان. قبلتُ قدحًا من القهوة من الشابة اللطيفة وأجبتُ عن سؤالي ذاته:

«لأنهم لم يعرفوا حتى إنهم قتلوه. إنهم يطلقون النار على كل شيء بصورة غير مشروعة، لذا أطلقوا عليه النار هو الآخر، ثم نسوا الأمر. ظنوا أنه سيسقط بالتأكيد في مكان ما وسط الأجمة، ولا أحد سيعرف أبدا أنهم قتلوا خنزيرًا بعد موسم الصيد الشرعي». أخرجتُ ورقة مطبوعة من حقيبتي ودفعتها أمام وجه الرجل. «لقد راجعتُ التواريخ. نحن الآن في مارس. القِ نظرة، القانون لا يسمح بإطلاق نار على خنزير الآن»، هكذا اختتمتُ كلامي برضًا، وأنا أشعر بثقة في أن حجتي فوق مستوى الشبهات، ولو أنه سيكون صعبًا من وجهة النظر المنطقية إقناعي بأنك تستطيع أن تقتل أحدهم في 28 فبراير، لكن لا يحق لك قتله في اليوم التالي.

أجاب بول نيومان: «أنا آسف، يا مدام، لكن الأمر ليس من اختصاصنا فعلًا. لماذا لا تذهبين لإبلاغ الطبيب البيطري؟ سيعرف ما يمكن فعله في مثل هذه الحالات. ربما كان الخنزير مسعورًا».

خبطتُ قدحي على سطح المكتب. «لا، القاتل هو مَنْ كان مسعورًا»، صرختُ، لأني كنت أعرف هذه الذريعة جيدًا؛ كثيرًا ما يُبرر قتل الحيوانات بأنها قد تكون مسعورة. «لقد أطلق عليه النار في الرئتين، لا بد أنه مات معذبًا، لقد أردوه، وظنوا أنه فرّ حيًّا. علاوة على ذلك فإن الطبيب البيطري واحد منهم، فهو أيضًا يصطاد».

ألقى الرجل نظرة عاجزة إلى زميلته. «ماذا تتوقّعين أن نفعل؟».
«أن تفزعوا من أماكنكم. أن تعاقبوا الجناة. أن تغيروا القانون».
قال: «هذا كثير جدًّا. لا يمكن أن ترغبي في هذه الأشياء».
صرختُ مهتاجة: «بل يمكنني! وأنا التي أحدّد ما يمكن أن أرغب فيه».
بدا عليه الارتباك؛ كان الموقف يخرج عن سيطرته. «طيّب، طيّب. سوف نبلغ بالأمر رسميًّا».
«لمن؟».
«أولًا سوف نطلب تفسيرًا من جمعية الصيادين. دعيهم يقولون كلمتهم».
«وتلك ليست المرة الأولى، لأني عثرت على جمجمة أرنب برّي مثقوبة برصاصة على الجانب الآخر من الهضبة. هل تعرف أين؟ على مقربة شديدة من الحدود. الآن أسمّي هذه الأيكة (مقام الجمجمة)».
«ربما فقدوا أحد أرانبهم».
«فقدوا»، زعقتُ. «إنهم يطلقون النار على كل ما يتحرك». توقفتُ برهة، إذ شعرتُ وكأن قبضة كبيرة ضربتني في صدري بكل قوتها. «حتى على الكلاب».
«أحيانًا تهاجم كلاب القرية الحيوانات وتقتلها. أنت لديك كلاب أيضًا، أتذكر أننا تلقينا شكاوى منك العام الماضي...».
تجمدتُ. كانت الضربة مؤلمة للغاية.
«لم يعد لديّ كلاب».
لم تكن القهوة جيدة، كانت من النوع سريع التحضير. شعرت بها في معدتي مثل شدٍّ عضلي. انحنيت على نفسي.
سألتني المرأة: «ماذا بكِ؟ ماذا حدث؟».
أجبت: «لا شيء. في سنّي يعاني المرء من اعتلالات مختلفة. ما كان

يجدر بي شرب قهوة سريعة التحضير، وأنصحكما بعدم شربها أيضًا. إنها مضرة بالمعدة».

وضعتُ الكوب. «طيّب، إذًا؟ هل ستحرران البلاغ؟»، سألته، بنبرة اعتبرتُها عملية.

تبادلا النظرات مجددًا، وسحب الرجل مترددًا الاستمارة. قال: «طيّب، إذًا»، وكنت أسمع أفكاره: **سأكتبه لكي أخرسها لكني لن أزعج نفسي بعرضه على أي إنسان**، وهكذا أضفتُ: «وأرجوك أن تعطيني نسخة مختومة ومؤرَّخة عليها توقيعك».

بدأ يكتب، بينما حاولت أنا إبطاء أفكاري، لكن لا بد أنها قد تخطت الآن حدود السرعة القصوى، وجعلت تتسابق في رأسي، واستطاعت على نحو ما التوغل في جسدي وفي عروقي أيضًا. مع ذلك، للمفارقة، من قدميّ، من الأرض إلى أعلى، كان هدوءٌ غريب ينتشر ببطء في أوصالي. كانت حالة أعرفها – حالة الصفاء، **الغضبة** المقدسة، رهيبة ولا يمكن إيقافها. شعرتُ بحكّة في قدميّ، وبنار تنسكب في دمي من مكان ما، وكان دمي يتدفّق بسرعة، حاملًا هذه النار إلى دماغي، والآن كان دماغي يتوهّج ساطعًا، وأناملي تمتلئ بالنار، وكذا كان وجهي، وشعرتُ وكأن جسدي بأكمله قد أحيط بهالة ساطعة، ترتفع برقّة إلى أعلى، تنتزع قدميّ عن الأرض وتحرّرني منها.

«فقط انظر إلى طريقة عمل هذه المنابر. إنها شرٌّ – ينبغي أن تسمّيها باسمها الصحيح: إنها شرٌّ ماكر، مخادع، معقّد – إنهم يبنون معالِف، ينثرون تفاحًا طازجًا وقمحًا لغواية **الحيوانات** هناك، وفور أن تتعود، يطلقون عليها النار في الرأس من مخابئهم، من فوق المنبر»، هكذا شرعت أقول في نبرة خفيضة، ونظرتي مثبتة على الأرض. أحسست أنهما ينظران إليّ بقلق وهما يؤديان عملهما. قلت: «أتمنى لو أعرف كيف أفكّ خط **الحيوانات**، العلامات التي أستطيع أن أكتب بها تحذيرات

لهم: «لا تذهبوا إلى هناك»، «ذلك الطعام قاتل»، «ابتعدوا عن المنابر، لن يعظوكم بكلمة الرب من فوقها، لن تسمعوا أي أخبار طيبة هناك، لن يعِدوكم بالخلاص بعد الموت، لن يشفقوا على أرواحكم المسكينة، إذ يقولون إنكم لا تملكون أرواحًا. إنهم لا يرون أخويّتهم فيكم، لن يمنحوكم مباركتهم. أقذر المجرمين لديه روح، لكن ليس أنتم، أيها الغزلان الجميلة، ولا أنتم، أيها الخنازير، ولا أنتم أيها الأوز البري، ولا أنتم أيها الكلاب». لقد أصبح القتل معفيًا من العقاب. ولأنه يمضي من دون عقاب، لم يعد أحد يلاحظه. ولأن أحدًا لم يعد يلاحظه، لم يعد له وجود. عندما تمر بواجهة متجر يعلّق قطعًا حمراء من الأجساد الذبيحة أمام الأنظار، هل تتوقّف لتتساءل ما تلك بحقّ؟ إنك لا تفكر في الأمر مرتين أبدًا، أليس كذلك؟ أو عندما تطلب كبابًا أو ضلعًا من اللحم – ما الذي تحصل عليه حقًّا؟ لا شيء صادمًا في الأمر. الجريمة صارت تُعتبر فعلًا عاديًّا. الجميع يرتكبونها. هذا بالضبط ما كان سيصير إليه العالم لو كانت معسكرات الإبادة قد صارت النمط السائد. لن يرى أحد أي خطأ فيها».

هكذا كنت أتكلّم وهو يكتب. كانت المرأة قد غادرت الغرفة، وكنت الآن أسمعها تتحدّث في الهاتف. لم يكن أحد ينصت إليّ، بيدَ أني أكملتُ خطبتي. لم أستطع التوقف، لأن الكلمات كانت تتنزل عليّ تلقائيًا من مكان ما – كان عليّ ببساطة أن أنطقها. بعد كل جملة كنت أشعر بقدر من التفريج. وقد حفزني أكثر دخول عميل ومعه كلب بودِل صغير؛ وبدا أن نبرتي حيّرته، فأغلق الباب برفق وبدأ يحدث نيومان همسًا. جلس كلبه البودِل هادئًا، وأمال رأسه ونظر إليّ. لذا استطردتُ:

«الحقيقة أن الإنسان لديه مسؤولية هائلة تجاه الحيوانات البرية – أن يساعدها على عيش حياتها، ومن واجبه تجاه الحيوانات المدجّنة أن يبادلها الحب والمودة، إذ تعطينا أكثر بكثير مما تأخذه منا. وهي تحتاج

إلى أن تتمكّن من العيش بكرامة، أن تستطيع تصفية حساباتها وتسجيل أسمائها في جداول الكارما - أنا كنت حيوانًا، عشت وأكلت، رعيت في المراعي الخضراء، وضعتُ صغارًا، حافظتُ بجسدي على دفئها، بنيتُ أعشاشًا. أديتُ واجبي. عندما تقتلهم، ويموتون في خوف ورعب -مثل ذلك الخنزير الذي كان جسده راقدًا أمامي بالأمس، ولا يزال راقدًا هناك، مدنسًا، وموحلًا، وملطخًا بالدم، وقد تدنّى إلى جيفة حقيرة- فأنت تحكم عليهم بالجحيم، والعالم كله يتحوّل إلى جحيم. ألا يستطيع البشر رؤية ذلك؟ هل تعجز عقولهم عن الوصول إلى ما هو أبعد من المباهج الأنانية التافهة؟ الناس عليهم واجب تجاه الحيوانات، أن يقودوها -في حيوات متتابعة- إلى التحرّر. نحن كلنا مسافرون في الاتجاه نفسه، من التواكل إلى الحرية، من الطقوسية إلى الاختيار الحر».

هكذا تحدّثتُ، مستخدمةً كلمات حكيمة.

من غرفة خلفية خرج عامل نظافة يحمل دلوًا بلاستيكيًا وأخذ ينظر إليّ في فضول. أما الحارس، فكان لا يزال يعبّئ الاستمارة بوجه جامد.

تابعتُ: «ستقول إنه مجرد خنزير واحد. لكن ماذا عن سيل اللحم الذبيح الذي ينهمر على مدننا يومًا بعد آخر مثل مطر يوم الدينونة الذي لا يتوقّف؟ هذا المطر ينذر بالذبح، المرض، الجنون الجماعي، تشويش العقل وتلويثه. إذ لا يستطيع قلب إنسان تحمّل هذا القدر من الألم. النفس الإنسانية المعقّدة بأكملها تطوّرت لكي تمنع الإنسان من فهم ما يراه بحق. لكي تمنع الحقيقة من الوصول إليه بتغليفها بالأوهام، باللغو الفارغ. العالم سجن مليء بالمعاناة، شُيّد بطريقة تجعل المرء مضطرًا إلى إلحاق الألم بالآخرين لكي يعيش. هل تسمعني؟». لكن الآن حتى رجل النظافة، وقد أحبطته خطبتي، عاود عمله، وهكذا كنت أتكلم فقط إلى كلب البودل.

«أيُّ عالم هذا؟ جسدُ أحدهم يتحوّل إلى حذاء، إلى كفتة، إلى سجق،

إلى بساط بجوار الفراش، عظام أحدهم تُغلى لتصنع حساءً... أحذية، أرائك، حقيبة كتف مصنوعة من مِعدة أحدهم، التدفؤ بفراء أحدهم، التهام جسد أحدهم، تمزيقه إربًا وقليه في الزيت... هل يمكن أن يكون ذلك حقيقيًّا؟ هل يحدث هذا الكابوس فعلًا؟ هذا القتل الجماعي، القاسي، المتبلّد، والآلي، بلا وخزة من ضمير، بلا أوهى تمهّل من أجل التفكير، ولو أن الكثير من التفكير يُكرَّس للفلسفات العبقرية والعقائد الدينية. أيُّ عالم هذا، حيث القتل والألم هما النمط السائد؟ ما خَطبنا بحق السماء؟».

ران الصمت. كان رأسي يدور، وفجأة بدأت أسعل. عندها فقط تنحنح صاحب كلب البودل.

قال: «أنت محقّة، يا مدام. أنت محقّة تمامًا».

أربكني هذا. رميته بنظرة، غاضبة في البداية، لكني رأيت أنه قد تأثر. كان جنتلمانًا مسنًّا نحيفًا، أنيق الملبس، في بدلة بصديرية، مؤكّد أنه اشتراها من متجر «بشائر». كان كلبه البودل نظيفًا ومهندمًا -سأقول إنه بدا مهيبًا. بيدَ أن إعلاني لم يترك أيّ انطباع على الحارس. كان أحد هؤلاء الساخرين الذين لا يحبون العواطف الجيّاشة، لذا يزمّون شفاههم لتجنب الإصابة بعدواها. يخافون من العواطف أكثر من الجحيم.

«أنت تبالغين»، كان كل ما قاله في نهاية المطاف، وهو يضع الأوراق بهدوء على مكتبه. «أراه أمرًا مربكًا فعلًا. لماذا تَشغل النساء المسنّات... النساء في مثل سنك، أنفسهن بالحيوانات إلى هذه الدرجة؟ ألم يعد هناك بشر بحاجة إلى رعاية؟ هل هذا لأن أطفالهنّ شبّوا ولم يعد لديهنّ مَن ينشغلن به، لكن غرائزهنّ تدفعهنّ لرعاية شيء آخر؟ النساء لديهنّ غريزة للرعاية، ألسن كذلك؟». ألقى نظرة على زميلته، لكنها لم تُصدر أي إيماءة لإثبات فرضيته. «لنأخذ جدتي مثلًا. لديها سبعة قطط في بيتها، وتطعم أيضًا كل القطط في منطقتها. هلا قرأتِ هذه، من فضلك»، قالها

وهو يمرر لي ورقة طُبع عليها نصٌّ قصير. «أنت تتعاملين مع المسألة بعاطفية شديدة. أنت تهتمين بأقدار الحيوانات أكثر من البشر»، هكذا كرر لنفسه في الختام.

لم أشعر برغبة في الكلام أكثر من ذلك. دسستُ يدًا في جيبي، وأخرجتُ كُرة من شعر الخنزير البري الملوَّث بالدماء، ووضعتها أمامه على المكتب. بوحي من الغريزة، انحنيا إلى الأمام، لكنهما أجفلا بعدها فورًا في تقزز.

«يا لطيف يا رب! ما هذا؟ بيبه»، صرخ نيومان الحارس. «يا للجحيم، خذيه بعيدًا!».

استرخيت في مقعدي وقلت برِضًا: «هذه رفات. ألتقطها وأجمعها. لدي صناديق منها في البيت، تحمل بطاقات لائقة، من أجل حفظها. شعر وعظام. ذات يوم سوف يمكن استنساخ كل الحيوانات القتيلة. لذا فقد نشهد نوعًا من جَبر الضرر».

«يا لقوة أعصابك»، قالت الحارسة في الهاتف، وهي تنحني على كرة الشعر، وفمها ملويّ في تقزز. «يا لقوة أعصابك!».

كان الدم المتجلط والوحل قد لوثا أوراقهما. فزع الحارس على قدميه وتراجع بعيدًا عن المكتب.

سألته مشاكَسةً: «هل تنفر من الدم؟ لكنك تحب السجق الأسود، أليس كذلك؟».

«رجاءً اهدئي. يكفي هذا الهراء. ولا تنسي أننا نحاول مساعدتك».

وقّعتُ كل نسخة من التقرير، ثم أخذتني الحارسة من ذراعي برفق وقادتني إلى الباب. مثل امرأة مجنونة. لم أقاوم. وفي هذه الأثناء، لم تتوقف عن الكلام في الهاتف.

***

مجدّدًا، راودني الحلم نفسه. مجدّدًا كانت أمي في حجرة الغلّاية. مجدّدًا كنت غاضبة منها لأنها جاءت إلى هنا.

نظرتُ في وجهها مباشرة، غير أن نظرتها ظلت تحيدُ بعيدًا، لم تستطع النظر في عينيّ. كانت تتصرّف على نحو مراوغ، وكأنها تعرف سرًّا محرجًا. ظلّت تبتسم، ثم فجأة أصبحت جادة - التعبير على وجهها كان مائعًا، الصورة كانت متموّجة. قلت إني أريدها أن تكف عن المجيء. هذا مكان للأحياء، لا الموتى. ثم استدارت لتواجه الباب، ورأيت أن جدّتي تقف هناك هي الأخرى، امرأة شابة وسيمة في فستان رمادي. تحمل حقيبة يد. كلتاهما بدتا وكأنهما في طريقهما إلى الكنيسة. تذكّرتُ حقيبة اليد تلك - حقيبة غريبة من أيام ما قبل الحرب. ماذا يمكن أن تحمل في حقيبة يد عندما تأتي للزيارة من عالم الأرواح؟ حفنة من التراب؟ رماد؟ حجر؟ منديل متحلل لأنفك التي لم يعد لها وجود؟ الآن كانتا تقفان أمامي، قريبتان للغاية حتى إني شممتُ عطرهما - عطر قديم، بياضات ستائر مطوية بنظام في دولاب ملابس خشبي.

«هيا، عودا إلى داركما»، قلتها، وأنا ألوّح بذراعيّ أمامهما، مثلما فعلتُ مع الغزلان.

لكنهما لم تتحرّكا. لذا كنت أول من استدار وخرج من هناك، وأوصدتُ الباب خلفي.

الطريقة القديمة في التعامل مع الأحلام السيئة: أن تحكيها بصوت عالٍ أمام المرحاض، ثم تتخلص منها بدفقة مياه.



VIII

أورانوس في برج الأسد

كلُّ شيء يمكن تصديقه في إحدى صور الحقيقة.

أوّل طالع يحسبه الشخص قاطبة، بداهةً، هو طالعه، وكذا كانت حالتي. ثم ظهر نسقٌ، مدعومٌ بدائرة. نظرتُ فيه بدهشة - هل هذا أنا؟ هنا أمامي يستوي مخطط للشخص الذي هو أنا، ذاتي الحقيقية في سجلّ بدائيّ مكتوب، الأكثر بساطة والأكثر تعقيدًا في آن. مثل مرآة تحوّل صورة الوجه الحسّية إلى خريطة هندسية بسيطة. كل ما كان مألوفًا وواضحًا في وجهي اختفى؛ لم يبقَ إلا نثار مميَّز من النقاط التي ترمز إلى الكواكب الظاهرة على خلفية القبة السماوية. لا شيء يشيخ، لا شيء يتغيّر، مواضعها في عنان السماء متفرِّدة ودائمة. ساعة الميلاد تقسِّم الفضاء داخل الدائرة إلى منازل، ومن ثم تصبح الخريطة متفرّدة عمليًا، مثل بصمة الإصبع.

أعتقد أننا جميعًا نشعر بمشاعر شديدة التناقض لدى رؤية طالعنا. من ناحية نشعر بالفخر حين نرى السماء مطبوعةً على حياتنا الشخصية، مثل ختم بريدي موسوم بتاريخ على خطاب - هذا يجعله مميزًا، واحدًا من نوعه. بيدَ أنه في الوقت نفسه ضربٌ من الانحباس داخل الفضاء، مثل رقم سجين موشوم على جسده. لا مفرّ منه. لا يمكنني أن أكون شخصًا آخر غير ما أنا عليه. يا له من أمر فظيع. الأفضل لنا أن نظن بأننا أحرار، قادرون على إعادة اختراع أنفسنا وقتما أردنا. هذا الارتباط بشيء

في عظمة السماء وجلالها يشعرنا بعدم الارتياح. نفضّل لو كنا صغارًا، ساعتها كانت خطايانا الصغيرة التافهة ستُغتفر.

لهذا السبب أنا مقتنعة بأن علينا معرفة سجننا تمام المعرفة.

بالمهنة، أنا مهندسة بناء جُسور - هل ذكرتُ ذلك من قبل؟ بنيت جسورًا في سوريا وليبيا، وأيضًا في بولندا - بالقرب من إلبلونغ، واثنين في بودلاشي. ذلك الذي في سوريا كان جسرًا غريبًا: يصل بين ضفتي نهر لا يظهر إلا على نحو متقطّع. تنساب المياه في مجراه لشهرين أو ثلاثة، ثم تتشرّبها الأرض التي أحرقتها الشمس، فتحوله إلى شيء أشبه بمضمار للزلّاجات. كلاب الصحراء البرية تطارد بعضها بعضًا في مجراه.

لطالما اكتسبتُ أعظم متعة من تحويل المفاهيم إلى أرقام - من تلك الأرقام تنشأ صورة محددة، ثم رسمٌ، ثم تصميمٌ. كانت الأرقام تلتقي على ورقتي وتتخذ شكلًا ذا معنى. كانت موهبتي في الجبر مفيدة لي في قراءة الطالع في تلك الأيام، حين كان المرء مضطرًا لإنجاز كل حساباته على المسطرة الحاسبة. في أيامنا هذه، لم يعد ذلك ضروريًا؛ ثمة برامج حاسوبية تنجز ذلك بدلًا منا. من ذا الذي لا يزال يتذكّر المسطرة الحاسبة، عندما يكون علاج أي نهَم للمعرفة على بعد نقرة بالفأرة ليس أكثر؟ لكن وقتها، في أفضل مراحل حياتي، بدأَت اعتلالاتي، واضطررت إلى العودة إلى بولندا. قضيتُ وقتا طويلًا في المستشفى، غير أن حقيقة مشكلتي لم تتضح.

لفترة من الزمن كنت أنام مع بروتستانتي، كان بدوره يصمِّم طُرق السيارات، وقال لي، ربما مقتبسًا لوثر، إن من يعاني يرى ظَهر الرب. تساءلتُ إن كان ذلك يعني الكتفين، أم العجيزة ربما، وكيف يبدو هذا الظهر المقدّس، إذ إننا نعجز عن تخيل الوجه. ربما كان ذلك يعني أن

من يعاني ينفتح له طريق خاص إلى الرب، من باب جانبي، أنه مبارك، أنه يستوعب حقيقةً ما يصعب الإحاطة بها من دون معاناة. إذًا، **فالشخص** الوحيد المعافى، بطريقة ما، هو مَن يعاني، مهما بدا ذلك غريبًا. أظن بأن ذلك سيكون المعنى الأكثر انسجامًا.

على مدار عام كامل لم أستطع المشي على الإطلاق، وعندما بدأت **اعتلالاتي** تهدأ قليلًا، عرفت أني لن أستطيع بناء جسور فوق أنهار في الصحراء ثانية، ولن أستطيع أن أشرد بعيدًا عن برّاد يحتوي على الغلوكوز. لذا غيّرتُ مهنتي وأصبحت مدرّسة. عملت في مدرسة ودرّست للأطفال مختلف الأشياء المفيدة: لغة إنكليزية، وأشغالًا يدوية، وجغرافيا. كنت أبذل جهدي للاستحواذ على انتباههم بالكامل، لجعلهم يتذكّرون الأشياء المهمة ليس بدافع الخوف من الحصول على درجة سيئة بل بدافع الشغف الحقيقي.

منحني ذلك الكثير من المتعة. لطالما شعرت بانجذاب تجاه الأطفال أكثر من البالغين، فأنا أيضًا طفولية إلى حد ما. لا عيب في ذلك. المهم أني واعية به. الأطفال رقيقون وطيّعون، متفتّحون وغير مدّعين. لا ينخرطون في كلام المجاملات الذي يستطيع كل بالغ أن يضيّع فيه حياته. لسوء الحظ، كلما كبروا، استسلموا أكثر لقوة العقل؛ يصيرون من مواطني «أولرو»[1]، بحد تعبير بليك، ويثورون على الانقياد السلس والطبيعي في الصراط المستقيم. لهذا السبب لا يعجبني إلا الأطفال الأصغر سنًّا. أمّا الأكبر منهم، فوق سن العاشرة، مثلًا، فقد وجدتهم بغيضين أكثر حتى من البالغين. في تلك السن يفقد الأطفال فردانيتهم. كنت أراهم يتكلّسون وهم يدخلون المراهقة على نحو محتوم، ويَعلقون في شباك

(1) «أورلو»: أدنى العوالم في أساطير وليام بليك، وهو عالم الظلام والعتمة، يظهر عند ضياع البصيرة المقدّسة. (المترجم)

تجبرهم على أن يصيروا، تدريجيًا، مثل الآخرين. في حالات قليلة رأيت قدرًا من المجاهدة الداخلية وهم يصارعون حالتهم الوجودية الجديدة، بيد أن الأمر ينتهي بهم جميعًا تقريبًا إلى الإذعان. لم يسبق لي أن بذلت جهدًا للمحافظة على تواصل معهم بعد تلك السن - إذ سيكون ذلك أشبه بالاضطرار لرؤية **السقوط**، من جديد. عادة كنت أدرّس للأطفال حتى ذلك الحد، حتى الصف الخامس، على أقصى تقدير.

أخيرًا أُحلت إلى التقاعد. مبكرًا جدًّا، في رأيي. لم أفهم السبب، إذ كنت مدرّسة جيدة، أمتلك قدرًا كبيرًا من الخبرة، وليست لدي أي مشكلات، باستثناء **اعتلالاتي**، التي لم تظهر إلا بين حين وآخر. لذلك ذهبت إلى مجلس التعليم، حيث قدّمت الشهادات ذات الصلة، والتوصيات والاستمارات التي تسمح لي بمواصلة التدريس. لسوء الحظ، لم ينجح الأمر. اصطدمتُ بلحظة سيئة - لحظة إصلاحات، ترميم شامل للنظام، تغيير للبرنامج، وزيادة في البطالة.

ثم بحثت عن عمل في مَدرسة أخرى، ثم أخرى، نصف دوام ورُبع دوام، بالساعة - كنت مستعدة لقبول وظيفة بالدقيقة لو عرضوها عليّ، لكن أينما ذهبت شعرتُ بجيش من الناس الآخرين، الأصغر سنًّا، يقفون ورائي، يتنفّسون في رقبتي، يدوسون على ذيلي بصبر نافد، حتى وهي مهنة قليلة الأجر لا حمدَ فيها ولا شكورًا.

لم أنجح إلا هنا. فور أن خرجت من المدينة، واشتريتُ هذا البيت وقبلت وظيفة الحارس على أملاك جيراني، جاءت مديرة مدرسة شابة متقطّعة الأنفاس من وراء التلال لرؤيتي. «أعرف أنك مدرِّسة»، قالت - واستخدمت الزمن المضارع، ما جعلها تكسبني على الفور، إذ إني أنظر إلى وظيفتي كموقف ذهني أكثر منها مجرد مجموعة من الأنشطة المنعزلة. عرضَت عليّ تدريس الإنكليزية لبضع ساعات في مدرستها، والعمل مع أطفال صغار، من النوع الذي أحبه. لذا وافقت، ومرة في

الأسبوع بدأت أدرّس الإنكليزية لأطفال في السابعة والثامنة، كانوا يفتحون صدورهم للتعلم بحماسة بالغة، لكنهم كانوا يملّون، بالسرعة والفجائية نفسها. أرادت مني المديرة أن أدرّس الموسيقى أيضًا -لا بد أنها سمعتنا نغني ترنيمة «النعمة المذهلة»- لكن ذلك كان يفوق قواي. يكفيني أن أهرول متّجهة إلى القرية كل أربعاء، وأن أضطر إلى ارتداء ملابس نظيفة، وتمشيط شعري ووضع القليل من الزينة على وجهي - أطلي جفوني بالأخضر وأضع مسحوقًا على خدَّيّ. كل هذا يكلفني قدرًا كبيرًا جدًّا من الوقت والصبر. كان بمقدوري أن آخذ فصلًا للتربية البدنية أيضًا، فأنا طويلة وقوية. وكنت أمارس الرياضة. في مكان ما في المدينة ما زال لديَّ ميداليات. بيدَ أن فرصة تدريس التربية البدنية كانت قد فاتتني بحكم السن.

لكني أعترف بأن الذهاب إلى المدرسة الآن، في الشتاء، صار أمرًا عصيبًا. في أيام التدريس ينبغي عليّ الاستيقاظ أبكر من المعتاد، والسماء لا تزال مظلمة، وأن أغذي النار، وأزيل الثلوج عن الساموراي، فإن كنت قد أوقفتها بعيدًا عن البيت على الطريق المستوي، أضطر إلى الخوض وسط الثلوج من أجل الوصول إليها، وهو جهد يخلو من أي متعة. الصباحات الشتوية مجبولة من فولاذ؛ لها مذاق معدنيّ وحواف حادة. في يوم أربعاء من شهر يناير، في السابعة صباحًا، ينظر الإنسان فيرى بجلاء أن العالم لم يُخلق لأجله، ولم يُخلق لأجل إراحته أو إمتاعه بكل تأكيد.

***

لسوء الحظ، لا يشاركني شغفي بالفلك لا ديزي ولا أي من أصدقائي، لذا أحاول ألا أتبجّح بمعارفي. إنهم ينظرون إليّ بالفعل كمهووسة. لا أفشي السر إلا عندما أحتاج إلى الحصول على تاريخ ومحل ميلاد شخص ما، مثلما في حالة المأمور. لهذا الغرض استجوبتُ تقريبًا جميع

سكان الهضبة ونصف سكان البلدة. حين يخبرني الناس بتاريخ ميلادهم يكشفون لي أسماءهم الحقيقية، يُظهرون لي ختم التاريخ السماوي الخاص بهم، يفتحون أمامي ماضيهم ومستقبلهم. بيدَ أن الفرصة لن تسنح أبدًا لأن أسأل الكثيرين ممّن أود سؤالهم.

الحصول على تاريخ ميلاد أمر سهل نسبيًا. لا يحتاج إلا إلى بطاقة هوية، أو أي وثيقة أخرى تقريبًا، وأحيانًا، بالصدفة، يظهر على شبكة الإنترنت. ديزي مخوَّل بالدخول إلى شتى أصناف القوائم والجداول، ولو أني لن أستفيض هنا. لكن ما يهم بحقّ هو توقيت الميلاد. هذا لن تجده مسجَّلًا في الوثائق، مع ذلك فالتوقيت هو المفتاح الحقيقي لأي شخص. **الطالع** من دون التوقيت الدقيق لا قيمة له تقريبًا - نحن نعرف الـماذا، لكننا لا نعرف الـكيف والـأين.

حاولت أن أشرح لديزي المتشكك كيف كان علم الفلك في الماضي قريب الشبه بعلم الأحياء الاجتماعي في يومنا هذا. عندها ازداد اهتمامه بعض الشيء على الأقل. ليس في تلك المقارنة ما يشين. الفلكي يؤمن بأن الأجرام السماوية تؤثر على شخصية الإنسان، بينما عالم الأحياء الاجتماعي يعتقد بأن الانبعاثات الغامضة للأجسام الجزيئية هي ما يؤثر فينا. الاختلاف في النطاق. لا يعرف أيٌ منهما ما وراء هذا التأثير أو كيف ينتقل. إنهما يتحدّثان فعليًا عن الشيء نفسه، باستثناء استخدامهما نطاقين مختلفين. أحيانًا أندهش للتشابه، والحقيقة أني، في حين أحب الفلك حب عبادة، ليس لديَّ أدنى احترام لعلم الأحياء الاجتماعي.

في **طالع** الولادة، يحدِّد تاريخُ الميلاد تاريخَ الوفاة كذلك. هذا أمر واضح - كل مَن وُلد سوف يموت. هناك الكثير من المواقع في **الطالع** تبين لنا زمن الوفاة وطبيعتها - على المرء فقط، ببساطة، أن يعرف كيف يعثر عليها ويربط بينها. مثلًا، يمكن للمرء أن يراجع المجانبات العابرة

لزحل بالنسبة للهيلاج، وما يحدث في المنزل الثامن. وكذلك أن يلقي نظرة على الموضع النسبي للأنوار - بمعنى الشمس والقمر.

إنه أمر شديد التعقيد، ويمكن أن يكون مملًا لغير الخبراء. لكن عندما تنظر بحرص، هكذا قلتُ لديزي، عندما تَربط بين الحقائق، سترى أن تزامن الحوادث هنا بالأسفل مع موضع الكواكب هناك بالأعلى واضح كالبللور. وهذا أمر يغمرني بالانتعاش دائمًا. لكن مصدر إثارتي هو الفهم. لذا لا يستطيع ديزي أن يشعر بما أشعر.

في دفاعي عن علم الفلك كثيرًا ما أضطر إلى استخدام حجج إحصائية، وهو ما أكرهه، لكنه يلقى إعجاب العقول الشابة. من دون أي فكرة ولكن بحماسة دينية، يؤمن الشباب بالإحصائيات. يكفي أن تعطيهم شيئًا في صورة نسبة مئوية، أو احتمالية، فيصدّقون. لذا كنت أحيلهم إلى جاكلين و«تأثير المريخ» - ظاهرة تبدو غريبة، لكن الإحصائيين أكدوها. جاكلين أوضح أنه، من الناحية الإحصائية، في طوالع الرياضيين، يظهر المريخ -كوكب اللياقة البدنية، والتنافس، وغير ذلك- بتواتر أكبر في موقع معيّن مقارنة بطوالع غير الرياضيين. بالطبع استخفّ ديزي بهذا الإثبات، وبكل الأدلة الأخرى التي وجدها غير مريحة. حتى عندما عرضتُ عليه سلسلة كاملة من الأمثلة لنبوءات تحقّقت. على سبيل المثال، بخصوص هتلر، عندما تنبأ فيلهلم وولف، رجل هيلمر ومؤرخ بلاطه، بـ«eine grosse Gefahr für Hitler am 20,7,44»، بمعنى خطر عظيم على هتلر ذلك اليوم، وكما نعرف، كان ذلك تاريخ محاولة الاغتيال في «عرين الذئب». ولاحقًا، تنبأ الفلكي المشؤوم نفسه من دون أن يطرف له جفن: «dass Hitler noch vor dem 7,05,45 eines geheimnissvollen Todes sterben werde»، بمعنى أن هتلر سوف يموت ميتة غامضة قبل السابع من مايو.

«شيء مذهل»، قال ديزي. ثم سأل نفسه: «كيف يمكن ذلك؟»، لكنه سرعان ما نسي الأمر برمّته، وترك شكوكيته تتّقد من جديد.

حاولتُ استخدام طرق أخرى لإقناعه، فأظهرتُ له التناغم المثالي بين ما يحدث هنا بالأسفل وما يحدث هناك بالأعلى.

«انظر إلى هذا، على سبيل المثال، انظر بحرص - صيف العام 1980، المشتري مقترن مع زحل في برج الميزان. اقتران قوي. المشتري يمثل السلطات، وزحل العمّال. وفوق ذلك، فإن الشمس عند فاوِنسا[1] في برج الميزان. هل ترى؟».

هز ديزي رأسه بارتياب.

سألني: «ماذا عن الشرطة؟ أي جرم سماوي يمثل الشرطة؟».

«بلوتو. وهو أيضًا يمثل أجهزة المخابرات والمافيا».

«طيّب، نعم، نعم...»، كرّرها غير مقتنع، ولو أني لاحظت أنه كان يستمع بنية طيبة ويبذل قصارى جهده.

قلت، وأنا أعرض عليه موضع الكواكب: «واصِل النظر. زحل كان في برج العقرب العام 1953 - وفاة ستالين واذوبان الجليد السياسي؛ 1952 إلى 1956 - القمع، الحرب الكورية، اختراع القنبلة الهيدروجينية. عام 1953 كان الأكثر قسوة على الاقتصاد البولندي. انظر، في ذلك التوقيت بالضبط صعد زحل في برج العقرب. أليس ذلك مذهلًا؟».

تململ ديزي في كرسيه.

«طيّب، لا بأس، انظر إلى هذا: نبتون في برج الميزان -فوضى، أورانوس في برج السرطان- الناس يثورون، تراجُع الاستعمار. أورانس كان يدخل برج الأسد عندما اندلعت الثورة الفرنسية، وعندما حدثت

---

(1) ليخ فاوِنسا: سياسي بولندي، شغل منصب رئيس بولندا بين عامي 1990-1995. حاز جائزة نوبل للسلام عام 1983. والإشارة إلى صيف عام 1980 (أغسطس) الذي شهد إضرابًا عماليًّا شهيرًا في «حوض لينين لبناء السفن» في مدينة غدانسك، تحوّل فاوِنسا إلى أحد قادته. (المترجم).

انتفاضة يناير، وعندما وُلد لينين. تذكّر أن أورانوس في الأسد دائمًا يمثل القوة الثورية».

رأيت أنه يجد الأمر مؤلمًا.

كلا، كانت محاولة إقناع ديزي بالاعتقاد في الفلك ضربًا من المستحيلات. لا يهم.

فور أن صرت وحدي وشرعت أرتّب أدوات بحثي في المطبخ، شعرتُ بسرور كوني أستطيع تعقّب تلك التوافقات المدهشة. أولا، فككتُ شفرة **طالع** القدم الكبيرة، وبعدها مباشرة **طالع** المأمور.

بصفة عامة، فإن نزوع شخص معين إلى الإصابة في حادث يتضح من **الصاعد**، الكوكب المهيمن وغيره من الكواكب في **الصاعد**. الكوكب المهيمن في المنزل الخامس يشير إلى موت طبيعي. إذا كان في المنزل الأول، يعني أن الموت سوف يحدث بسبب خطأ **الشخص** نفسه. ربما كان مهملًا، على سبيل المثال. إذا كان الدالّ مرتبطًا بالمنزل الثالث، فإن **الشخص** سوف يدرك سبب وفاته. وإذا لم يكن مرتبطًا به، إذًا لن يدرك المسكين حتى أين ارتكب الخطأ القاتل. في المنزل الثاني يحدث الموت نتيجة للثروة والمال. في هذا التشكيل يمكن أن يتعرّض **الشخص** للهجوم ويلقى مصرعه في محاولة سطو. المنزل الثالث نموذجي لحوادث الطرق والنقل. في الرابع نجد الموت بسبب امتلاك الأراضي، أو بسبب العائلة، خاصة الأب. في الخامس بسبب الأطفال، أو الإفراط في الملذات، أو بسبب الرياضة. في المنزل السادس نجلب المرض على أنفسنا بسبب افتقارنا إلى الحذر أو الإفراط في العمل. عندما يكون المهيمن الخاص بالمنزل الثامن في المنزل السابع، يكون سبب الموت هو الزوج أو الزوجة؛ قد يعني ذلك شجارًا، أو إحباطًا ناجمًا عن الخيانة. وهكذا.

في **طالع** المأمور في المنزل الثامن (خطر يهدّد الحياة، مَنزل الموت)،

نجد الشمس، الجرم الذي يرمز إلى الحياة نفسها، لكنه يرمز أيضًا إلى السلطة. نجدها في وضع تربيع -وهي مُجانبة شديدة الصعوبة- بالنسبة للمريخ (العنف، العدوان)، في المنزل الثاني عشر (القتل العمد، الاغتيال)، في العقرب (الموت، القتل، الجريمة). المهيمن على العقرب هو بلوتو، ومن ثم قد يكون للسلطة علاقة بمنظمات مثل الشرطة، أو... المافيا. بلوتو في اقتران مع الشمس في الأسد. في رأيي، كل هذا يعني أن المأمور كان شخصًا غامضًا وملغزًا للغاية، متورّطًا في أعمال خبيثة شتّى. يعني أنه كان يصير أحيانًا قاسيًا منزوع الرحمة، وحصل على امتيازات كبيرة بفضل منصبه. احتمالٌ كبير أنه، بالإضافة إلى سلطته الرسمية داخل الشرطة، كان يتمتع بقدر كبير من السلطة في مكان آخر، داخل شيء سرّي ومشؤوم.

فوق ذلك، فإن المهيمن على **الصاعد** يقع في برج الحمل، الذي يحكم الرأس، ومن ثم يصير العنف (المريخ) في علاقة مباشرة مع رأسه. كذلك تذكّرتُ أن زحل في برج حيواني -الحمل، أو الثور، أو الأسد، أو القوس، أو الجدي- ما يُنذر بخطر يهدد الحياة يسببه حيوان بري أو شرس.

«في جحيم دانتي، يقول فرجيل إن الفلكيين لُويت أعناقهم إلى الخلف ببشاعة، كعقاب لهم»، هكذا قال ديزي مختتمًا النقاش.

***

«هيا يا صديقتي، لا تخذليني»، قلتها للساموراي، التي كانت تزأر في وجهي، لكن بعدها دارت على الفور. إنه نوع من الإخلاص. عندما تعيشان معًا لهذا الزمن الطويل وقد صار كل منكما يعتمد على الآخر، يتطوّر نوع من الصداقة. أعرف أنها قد بلغت من العمر أرذله الآن، ومع كل عام يصير الانتقال من مكان إلى آخر أصعب عليها. مثلي تمامًا. أعرف أيضًا أنني أتجاهلها، وأن شتاء هذا العام جعل حياتها بائسة.

وحياتي أيضًا. في هذه السيارة لديّ كل ما أحتاجه حال وقوع حادث. حبل ومجرفة، منشار كهربائي، صفيحة بنزين، بعض المياه المعدنية وعبوة من المقرمشات التي لا بد صارت رطبة تمامًا الآن - ظللت أحملها معي منذ الخريف. هناك أيضًا مصباح يدوي (إذًا، فهو هنا!)، وعدّة إسعافات أولية، وإطار إضافي وبرّاد تخييم برتقالي. لديّ أيضًا عبوة من رشّاش الفلفل تحسّبًا لأن أتعرّض لهجوم على الطريق، ولو أنه أمر بعيد الاحتمال.

اجتزنا الهضبة باتجاه القرية، عبر مروج وبرارٍ بديعة. برفق وعلى استحياء، كان كل شيء يأخذ في الاخضرار. نباتات القرّاص اليافعة، ضعيفة وضئيلة لا تزال، كانت تشق الأرض برؤوسها. كان من الصعب تخيّل أنها، بعد شهرين من الآن، ستكون قد شبّت منتصبةً جامدة، فخورة ومهدِّدة، ببادرات خضراء زغباء. بالقرب من الأرض على مقربة من الطريق رأيت الوجوه الصغيرة الضئيلة لزهور الأقحوان - لطالما راودني شعور أنها تعاين بصمت كل من يأتي من هذا الطريق، مصدِرة حكمها الصارم علينا. جيشٌ مِن بني الزهور.

توقفتُ أمام المدرسة وعلى الفور هرع أطفال فصولي إلى السيارة - كان يثيرهم رأس الذئب الملصق على باب الساموراي الأمامي. ثم رافقوني إلى غرفة الدرس، وهم يزقزقون، كلهم يثرثرون معًا، ويشدّون كمَّي سترتي.

«Good morning»، قلتها بالإنكليزية.

وردّ الأطفال: «Good morning».

ولما كان يوم أربعاء، بدأنا طقوسنا الأربعائية. لسوء الحظ كان نصف الفصل غائبًا مجددًا - الصبيان أُعفوا من دروسهم لحضور تمارين لأول قربان مقدّس. هكذا، سوف نضطر إلى تكرار هذا الدرس مرة أخرى

الأسبوع التالي. درّستُ للفصل التالي بعض مفردات الطبيعة، وكان هذا يعني إثارة الكثير من الفوضى، ما جلب عليّ توبيخًا من عاملة النظافة بالمدرسة.

«أنت دائمًا تتركين زريبة خنازير خلفك. هذه مدرسة، وليست روضة أطفال. بالله عليكِ! ما فائدة تلك الأحجار والأعشاب البحرية القذرة؟».

في هذه المدرسة كانت الشخص الوحيد الذي أخافه، وكان صوتها الصيّاح الساخط يثير جنوني. أرهقتني الدروس، جسديًا أيضًا. سرتُ مجهدة وعلى مضض لشراء احتياجاتي وزيارة مكتب البريد. اشتريت خبزًا، وبطاطس وغيرها من الخضروات، بكميات كبيرة. وأنفقت نقودًا على شراء بعض من جبن «الكامبوزولا»، لكي أرفّه عن نفسي ولو بقطعة جبن. هناك مجلات وصحف مختلفة أشتريها أحيانًا، غير أن قراءتها تجلب عليّ عادة إحساسًا غير محدّد بالذنب. إحساس أن ثمة شيئًا لم أفعله، شيئًا نسيته، أني لست جديرة بمتطلبات واجباتي، أني أتخلّف، بطريقة جوهرية ما، وراء الباقين. لعلّ الصحف محقّة. لكن عندما يلقي المرء نظرة حريصة على المارة في الشوارع، يمكن أن يفترض أن كثيرين غيري يعانون من المشكلة نفسها، هم أيضًا لم يفعلوا بحياتهم ما كان يجب أن يفعلوه.

لم تكن بشائر الربيع الواهنة قد وصلت إلى البلدة بعد؛ الأرجح أنها استقرّت وراء حدود المدينة، في حدائق التخصيص[1] وفي وديان الجداول والأنهار، مثل قوات العدوّ في الماضي. كان الحصى قد غُطّي بالرمال المتبقية من الشتاء، التي نُثرت على الأرصفة الزلقة، غير أنه الآن،

(1) حدائق التخصيص: هي قطع من الأراضي مخصصة للبستنة والزراعة الفردية غير التجارية. تتشكّل من خلال تقسيم قطعة من الأرض إلى «تقاسيم» مخصّصة للأفراد أو العائلات. (المترجم)

في ضوء الشمس، كان قد اختلط بالتراب، وصار يلوّث أحذية الربيع التي أخرجت من الخزانات. كانت أحواض الزرع في البلدة صغيرة وبائسة. ومروج العشب كانت زنخة بفضلات الكلاب. في الشوارع كان الناس يسيرون بوجوه كالحة، يضيّقون عيونهم. بدوا مخدَّرين. بعضهم اصطفّ أمام ماكينات الصرف لسحب عشرين زلوتي يشتروا بها طعام اليوم. آخرون كانوا يهرعون إلى العيادة، مسلّحين بتذكرة لموعد في الساعة 13,35، بينما يتجه غيرهم إلى المقبرة لتغيير زهور الشتاء البلاستيكية بنرجس برّي ربيعي حقيقي.

شعرتُ بتأثر عميق من كل ذلك الهرج والمرج البشري. أحيانًا كان مزاجٌ عاطفي من هذا النوع يداهمني -أظن أن له علاقة **باعتلالاتي**- وتضعف مقاومتي. توقفتُ في ساحة السوق المنحدرة، واجتاحني شعور متزايد بالانتماء إلى بقية المارة. كل رجل هو أخي، وكل امرأة هي أختي. كلنا متشابهون إلى أبعد الحدود. كلنا ضعفاء، فانون، وسريعو الزوال. كلنا نروح ونجيء بثقة تحت السماء، التي لا تخبّئ لنا أي خير.

الربيع ليس إلا فاصلًا قصيرًا، بعده تتقدّم جيوش الموت الجبارة؛ لقد صارت تحاصر أسوار المدينة بالفعل. إننا نعيش في حالة حصار. إذا ألقى المرء نظرة مقرّبة على كل شذرة من اللحظة، قد يختنق من الرعب. داخل أجسادنا يتقدّم التفسّخ بلا هوادة؛ سرعان ما سنسقط مرضى ونموت. أحبابنا سوف يغادروننا، وسوف تتحلّل ذكراهم وسط الغاغة؛ لا شيء سيبقى. فقط بضعة ملابس في دولاب الملابس **وشخص** في صورة فوتوغرافية، لم يعد يتعرف عليه أحد. الذكريات الغالية الثمينة سوف تتبدّد. كل شيء سوف يغوص وسط الظلام ويتلاشى.

لاحظتُ فتاة حبلى تجلس على مقعد مستطيل، تقرأ صحيفة، وفجأة خطر لي كم هي نعمة أن تكون جاهلًا. كيف يمكن لامرئ أن يعرف كل ذلك ولا يُجهَض.

بدأت عيناي تدمعان مجدّدًا؛ غير أن الأمر بدأ يصير مربكًا وإشكاليًا بحق. لم أستطع إمساك الدموع. تمنّيت لو يعرف عليّ ما الذي يمكن فعله حيال ذلك.

كان متجر بشائر يقع في الشارع الجانبي الصغير المتفرّع من ساحة السوق، يدخله المرء مباشرة من ساحة انتظار السيارات، الأمر الذي لم يمثّل أفضل حافز للمشترين المحتمَلين للملابس المستعملة.

دخلتُ المتجر للمرة الأولى في أواخر خريف العام الماضي. كنت مجمّدة من البرد وجائعة. كانت عتمة نوفمبر الرطيبة تحوم فوق البلدة والناس يشعرون بالانجذاب إلى أي شيء لامع ودافئ.

من المدخل، كانت بعض البُسط النظيفة الملوّنة تقود إلى الداخل، ثم تتفرّق بين الشمّاعات، التي عُلّقت عليها الملابس مصنّفة بحسب اللون، فيما يشبه ألعاب تمييز درجات الألوان؛ كان المكان يفوح برائحة البخور، وكان دافئًا، حارًّا تقريبًا، بفضل أجهزة التدفئة الخاصة بالمنشآت التجارية، المثبّتة تحت النوافذ. كان المتجر في الماضي مقَرًّا لـ«تعاونية الترزيّة للمعاقين»، مثلما تشير اللافتة التي لا تزال مثبّتة على أحد الجدران. كانت ثمة نبتة كبيرة في الزاوية، تعريشة كستناء كبيرة الحجم لا بد أنها تضخمت خارج حدود حوض مالكها السابق منذ زمن؛ كانت عساليجها القوية تتسلّق الحوائط، مستهدفة الوصول إلى واجهة المتجر. كان المكان بأكمله يشبه خليطًا من مقهى اشتراكي، ومغسلة للتنظيف الجاف، ومتجر لتأجير الملابس التنكرية. وفي وسط كل ذلك كانت «بشائر».

هكذا أسميتها. فَرض الاسم نفسه بطريقة لا تقاوَم، من النظرة الأولى. بطريقة لا تُقاوم - يا له من وصف جميل وقويّ؛ عندما نستخدمه، لا نحتاج بعده إلى مزيد من التفسير.

«أريد سترة دافئة»، قلتها بخجل، ونظرَت الفتاة إليّ بذكاء، بلمعة في عينيها الداكنتين. أومأت برأسها مشجعة.

وهكذا، بعد وقفة قصيرة، تابعتُ: «لتدفئني وتحميني من المطر. أريدها مختلفة عن كل السترات الأخرى، لا رمادية ولا سوداء، ليست من ذلك النوع الذي قد يتشابه على الناس بسهولة في حجرة حفظ المعاطف. أريدها بجيوب، الكثير من الجيوب للمفاتيح، والحلوى للكلاب، وهاتف محمول، ووثائق - حتى لا أحتاج إلى حمل حقيبة، وأستطيع إبقاء يديّ حرّتين».

بينما أفصّل طلبي، أدركت أنني أضع نفسي بين يديها.

«أظن أن لديّ شيئًا لك»، كذلك أجابتني بشائر، وقادتني إلى أعماق مساحة ضيقة طويلة.

في الطرف البعيد كانت شمّاعة ملابس دائرية عُلّقت عليها سترات. من دون تفكير، مدّت يدها وسحبت معطفًا مبطنًا جميلًا بدرجة من القرمزي.

«ماذا عن هذا؟». كانت الأسطح الكبيرة للواجهات اللامعة تنعكس في عينيها، اللتين التمعتا بضوء صافٍ جميل.

نعم، كانت السترة مناسبة تمامًا. شعرتُ مثل حيوان أعيد إليه فراؤه المسروق. في الجيب عثرتُ على صَدَفة صغيرة، وقرّرتُ أنها هدية صغيرة من المالك السابق. مثل أمنية: «عسى أن يكون فيها نفعٌ لك».

اشتريت أيضًا قفازَيْن من المتجر. وتقدّمتُ للتنقيب في سلة مليئة بالقبّعات عندما لاحظتُ قطًا أسود كبيرًا يرقد فيها. وإلى جواره، بين الأوشحة، كان آخرٌ، مطابق، لكنه أكبر حجمًا. ذهنيًا، أسميتُ القطّين «قبّعة» و«وشاح»، ولو أني بعدها صرت أجد صعوبة كبيرة في التفريق بينهما. قطّا بشائر الأسودين.

أعدّت لي هذه البائعة الصغير الحلوة ذات الجمال المنشوري (كانت أيضًا تعتمر قبعة من الفرو الصناعي) فنجان شاي وسحبت لي كرسيًا إلى جوار مدفأة الغاز لكي أدفئ نفسي.

على ذلك النحو بدأت صداقتنا.

بعض الناس ما إن ينظر إليهم المرء نظرة واحدة حتى يغصّ حلقه وتفيض عيناه بالدموع. أولئك الناس يجعلون المرء يشعر وكأن ذكرى قوية من أيام براءتنا البعيدة قد استقرت فيهم، وكأنهم أعجوبة من أعاجيب الطبيعة، لم يحطمهم السقوط بالكامل. لعلهم رسُلٌ، مثل خدم يعثرون على أمير تائه لا يعرف شيئًا عن أصوله، فيعرضون عليه الرداء الذي كان يرتديه في موطنه الأصلي، ويذكّرونه كيف يرجع إلى دياره.

هي أيضًا كانت تعاني من مرضها الخاص - مرض نادر وشديد الغرابة. لم يكن لديها شَعر. لا حاجبان، ولا رموش. ولم يسبق أن نَبتَ لها أي شَعر - لقد ولدَت على هذا النحو. الجينات، أو الفلك. أنا بالطبع أقول إنه الفلك. آه، نعم، لقد تحققتُ من ذلك في **طالعها**: مريخ **معطوب**[1] بالقرب من **الصاعد**، على جانب المنزل الثاني عشر وفي تقابل مع زحل في المنزل السادس (المريخ في هذا الوضع ينتج أيضًا أنشطة مستترة ودوافع غير واضحة).

هكذا، رسمَت لنفسها حاجبين جميلين بقلم رصاص، وخطوطًا صغيرة ضئيلة على جفنَيها لتبدو مثل الرموش؛ كان الوهم مثاليًا. كانت تعتمر عمامة طوال الوقت، أو قبّعة، وأحيانًا باروكة، أو تلفّ وشاحًا حول رأسها. في الصيف كنت أحدق بدهشة في ساعديها، الخاليين تمامًا من هذه الشعيرات الصغيرة التي تنبت لنا جميعًا، داكنة أو فاتحة.

كثيرًا ما أتساءل لماذا نجد بعض الناس جذّابين دون غيرهم. ولديَّ نظرية في هذا الشأن، وهي أن ثمة ما يمكن وصفه بالشكل المثالي الذي تطمح إليه أجسادنا غريزيًّا. نحن نختار في الآخرين الملامح التي تبدو

---

(1) الكوكب المعطوب: في الفلك: هو الكوكب الذي يقع في مُجانبة غير مؤاتية أو في موقع غير مؤات على دائرة البروج. (المترجم)

متوافقة مع هذا النموذج. الهدف من التطور هدف جمالي بحت - ليس له علاقة بالتكيّف على الإطلاق. التطوّر متعلّق بالجمال، بتحقيق الشكل الأكثر مثالية لكل صورة.

فقط عندما رأيتُ هذه الفتاة أدركت كم هو قبيح شعر أجسادنا - هذه الحواجب في منتصف الجبهة، الرموش، الشعيرات على الرأس، وتحت الإبطين، وحول الأعضاء التناسلية. لأي غرض نحمل هذه الوصمة الغريبة؟ أظن أننا في الجنة لا بد كنا خلوًّا من الشعر. بجلود عارية ملساء.

أخبرتني أنها وُلدت في قرية مجاورة لكودزكو، في أسرة كبيرة العدد. كان والدها يعاقر الخمر ومات قبل أوانه. وكانت أمها مريضة، مرضًا خطيرًا. كانت تعاني من الاكتئاب وانتهى بها الحال في المستشفى، تتناول عقاقير تجعلها في خدر ذاهل. تحمّلت بشائر بقدر استطاعتها. أتمّت الامتحانات النهائية للمدرسة الثانوية بنجاح باهر، لكنها لم تدخل الجامعة لأنها لم تمتلك مالًا، وفوق كل ذلك كانت ترعى أخوتها. قررت أن تكسب المال لأجل دراساتها، لكنها لم تعثر على وظيفة. أخيرًا وظّفها صاحب هذه السلسلة من متاجر الملابس المستعملة، غير أن الراتب كان ضعيفًا جدًّا، تتعيش عليه بالكاد، ومن عام إلى عام صارت دراساتها تؤجَّل أكثر فأكثر. عندما تصير وحدها في المتجر، تعكف على القراءة. عرفتُ الكتب التي تحبها، لأنها تضعها على رفّ وتعيرها لزبائنها - قصص رعب كئيبة، روايات قوطيّة ذات أغلفة مكرمَشة تصوِّر رسمًا لخفّاش. رهبان منحرفون، أيدٍ مقطوعة تقتل الناس، توابيت تجتاحها السيول فتخرجها من قبورها. يبدو أن قراءة هذا النوع من القصص كان يؤكّد قناعتها بأننا لا نعيش في أسوأ العوالم قاطبة، ويعلّمها التفاؤل.

عندما سمعتُ بشائر تحكي قصة حياتها، بدأت ذهنيًّا أصيغ أسئلة تبدأ بكلمات: «لماذا لم تفعلي كذا»، يعقبها وصف لما يجب على الشخص، في رأينا، أن يفعله في مثل هذه المواقف. كانت شفتاي على وشك لفظ

واحدة من تلك الـ«لماذا لم تفعلي كذا» السفيهة، غير أني تمكنتُ من إطباقهما.

هذا بالضبط ما تفعله المجلات الملونة - للحظة أردتُ أن أكون مثلهم: يخبروننا بما فشلنا في فعله، كلما أخفقنا، ما الذي أغفلناه؛ في النهاية، يحرِّضوننا على أنفسنا، يملؤوننا باحتقار الذات.

هكذا لم أنطق بكلمة. قصص حياة الآخرين ليست موضوعًا للنقاش. ينبغي على المرء أن يسمعها، وأن يبادلها بالمثل. لذا حكيت لبشائر عن حياتي أنا أيضًا، ودعوتها إلى بيتي لمقابلة صغيرتيَّ. وهو ما حدث.

في محاولة لمساعدتها ذهبتُ إلى السلطة المحلية، بيدَ أني اكتشفت أنهم لا يقدمون دعمًا، لا مِنحَ لأمثال بشائر. نصحتني المرأة الجالسة وراء طاولة المكتب بمحاولة الحصول على قرض مصرفي، من ذلك النوع الذي تردّه فور أن تنتهي من دراساتك وتبدأ العمل. هناك أيضًا حاسوب مجاني، ودورات لصناعة الملابس وتنسيق الزهور. غير أن هذه، لسوء الحظ، مخصّصة للعاطلين فقط. لذا سيكون عليها أن تترك وظيفتها لكي تتقدّم إلى إحداها.

كذلك قمت بزيارة إلى المصرف، حيث أُعطيت كومة من الاستمارات لتعبئتها. لكن كان هناك شرط واحد أساسي - كان يجب على بشائر تأمين مكان في إحدى الكليات أولًا. وعرفت أنها سوف تحقّق هدفها في نهاية المطاف.

الجلوس في متجر بشائر أمر طيب. إنه المكان الأكثر حميمية في البلدة. الأمهات ذوات الأطفال يلتقين هنا، والسيدات المسنّات في طريقهنّ إلى الغداء في مقصف المتقاعدين. كذلك يأتي إلى هنا حارس أمن ساحة انتظار السيارات والبائعات المتجمّدات من البرودة من سوق الخضار. الجميع يحظى بشراب دافئ. لعل الأجدر أن نقول إن بشائر تدير مقهى هنا.

اليوم كان عليّ انتظارها إلى أن تُغلق ذلك الملاذ، ومن ثم ننطلق إلى التشيك مع ديزي لزيارة المكتبة التي تبيع بليك. كانت بشائر تطوي بعض مناديل الرأس. لم تكن تتكلّم كثيرًا، وإن تكلمت، كانت تفعل ذلك بهدوء، فيصير عليك الإنصات إليها بحرص شديد. الزبائن القليلون الأخيرون كانوا لا يزالون يستعرضون شمّاعات الملابس بحثًا عن صفقة رابحة. استرخيتُ على أحد المقاعد وأغمضتُ عينيّ بهناء.

«هل سمعتِ عن الثعالب التي شوهدت على الهضبة، بالقرب من مسكنك؟ ثعالب بيضاء ذات شعر أزغب».

تجمّدتُ. بالقرب من مسكني؟ فتحتُ عينيّ ورأيت الجنتلمان صاحب الكلب البودل.

«الواضح أن رجلًا ثريًا يحمل اسمًا غريبًا أطلق سراح بعضها من مزرعته»، كذلك قال، وهو يقف أمامي وعلى ذراعه عدة بناطيل. كان كلبه البودل ينظر إليّ، وعلى وجهه ابتسامة كلبيّة - وواضحٌ أنه تعرّف عليّ.

سألته: «مُصراني؟».

«ذاك هو»، أكّد لي الرجل، ثم توجه بحديثه إلى بشائر: «هلا وجدتِ لي من فضلك بنطالًا بمقاس وسط ثمانين سنتيمترًا؟». ثم عاد إلى قصته مجددًا. «لا يمكنهم العثور على الرجل. إنه مفقود. اختفى من دون أن يترك أثرًا. مثل إبرة في كومة قش»، كذلك تابع الجنتلمان المسنّ. «الأرجح أنه هرب مع عشيقته إلى بلد أدفأ. ولأنه ثريّ، سيسهل عليه الاختباء. يبدو أنه تورط في احتيال من نوع ما».

أجاب شابٌ له رأس حليق كان يسأل عن بدلة رياضية ماركة «نايكي» أو «بوما»، وكان يفتش الآن بين شماعات الملابس: «لم يكن احتيالًا، كانت المافيا»، قالها، من دون أن يفتح فمه تقريبًا. «كانوا يستوردون الفراء بصورة غير قانونية من روسيا، ويستخدمون مزرعته كغطاء. لم يستطع تسوية أموره مع المافيا الروسية، لذا خاف وهرب بجلده».

وجدت الموضوع مثيرًا للقلق. بدأت أشعر بالخوف.

«هل هذا البودل كلب أم كلبة؟»، سألتُ الجنتلمان المسن بأدب، في محاولة يائسة لتحويل النقاش إلى مسارات أقل شؤمًا.

«ماكسي؟ إنه صبي بالطبع. لا يزال أعزب»، قالها وهو يضحك. لكن بدا واضحًا أنه أكثر اهتمامًا بالنميمة المحلية، لأنه عاد إلى حليق الرأس واستطرد: «كان بالغ الثراء. كان لديه فندق على الطريق الرئيسي خارج كودكزو. متجر للمأكولات الجاهزة. مزرعة ثعالب. مسلخ ومصنع لمعالجة اللحوم. مزرعة خيول. ولا أحد يعرف ما سجّله أيضًا باسم زوجته».

«هذا مقاس ثمانين لأجلك»، قلتها، وأنا أناوله بنطالًا رماديًا بحالة جيدة للغاية.

فحصه بحرص ووضعه نظارته لقراءة بطاقة تعليمات الغسيل.

«آه، نعم، يعجبني هذا، سآخذه. تعرفين ماذا، أحب الأشياء المهندمة، المحبوكة على الجسم. إنها تبرز القوام». وقلت أنا: «طيّب، يا سيدي، كم يختلف الناس. أنا دائمًا أشتري كل شيء واسعًا جدًّا. هذا يعطيني حرية».

كان ديزي قد تلقّى بعض الأخبار المشجّعة. عرضَت عليه الصحيفة المحلية الأسبوعية، «كودزكو غازيت»، نشر ترجماته لبليك في زاوية الشعر. كان يشعر بالإثارة والرهبة معًا. قدنا على الطريق السريع المهجور تقريبًا باتجاه الحدود.

«أولًا أريد أن أترجم ‹الخطابات›، وبعدها فقط أرجع إلى الشعر. لكن إذا كانوا يطلبون الشعر... يا إلهي، ماذا يمكن أن أعطيهم؟ ماذا نعطيهم أولًا؟».

للحق، لم أستطع التركيز على بليك أكثر من ذلك. لاحظت أننا نمرّ

بنايات بائسة على المعبر الحدودي وندخل التشيك. كان الطريق هنا أفضل وتوقفَت سيارة ديزي وهي تقعقع.

سألته بشائر من المقعد الخلفي: «ديزي، هل موضوع الثعالب حقيقي؟ أنهم هربوا من مزرعة مُصراني ويتجولون في الغابة؟».

أكد ديزي الرواية. «حدث ذلك قبل بضعة أيام. في البداية ظنّت الشرطة أنه باع كل الحيوانات لشخص ما قبل اختفائه. لكن يبدو أنه أطلق سراحهم. غريب، أليس كذلك؟».

سألته: «هل يبحثون عنه؟».

أجاب ديزي أن أحدًا لم يبلِّغ عن تغيّبه، لذا لم يكن هناك سبب للبحث عنه. لم تتقدّم زوجته ببلاغ، ولا أولاده. ربما أعطى نفسه إجازة. زوجته زعمت أنها ليست المرة الأولى التي يتغيّب فيها. ذات مرة اختفى لأسبوع، ثم اتصل من جمهورية الدومينيكان. إلى أن تبدأ المصارف في مطاردته، ما من سبب يدعو للقلق.

«الإنسان حرّ أن يفعل ما يريد بحياته، إلى أن يقع في ورطة مع المصارف»، هكذا ألقى ديزي حكمته بيقين مُعدٍ. أظنه يمكن أن يصبح متحدّثًا صحافيًا رائعًا باسم الشرطة.

كذلك قال ديزي إن الشرطة تحاول التثبّت من مصدر المال الذي كان المأمور يدسّه تحت حزام بنطاله. إنه رشوة. الآن صاروا متأكّدين أنه كان في طريق عودته من اجتماع مع مُصراني. تستغرق الشرطة زمنًا طويلًا للتثبت من الأشياء التي تبدو واضحة.

«وهناك شيء آخر»، قال أخيرًا. «السلاح الذي يُعتقد بأنه استُخدم لقتل المأمور كان ملوّثًا بآثار دماء حيوانية».

وصلنا إلى المكتبة في اللحظة الأخيرة، وهي توشك على الإغلاق. عندما سلّمه هونزا ذو الشعر الفضي الكتابين اللذين كان قد طلبهما،

رأيتُ تورّدًا يظهر على خدّي ديزي. نظر إلينا، وهو يشعّ بالفرح، ثم رفع ذراعيه، وكأنما ليعطي هونزا حضنًا. كانا طبعتين قديمتين من السبعينيات، يتضمنان حواشٍ وافية. لا تقدَّران بثمن. عدنا جميعًا في حالة انتشاء، ولم يأتِ أحد على ذكر الحوادث المشؤومة مجددًا.

أعارني ديزي «الخطابات المختارة» لبضعة أيام، وفور وصولي إلى البيت، أشعلت الموقد، وأعددت لنفسي شايًا قويًّا وشرعت أقرأ.

فقرة بعينها راقت لي، لذا ترجمتها لنفسي بسرعة على كيس ورقي.

كتب بليك يقول: «أعتقد بأن حالتي البدنية جيدة. لكن فيها الكثير من الخصائص المتفرّدة التي لا يعرفها غيري. عندما كنت صغيرًا، كانت ثمة أماكن عديدة أرجع منها فأظل طريحًا في فراشي لليوم التالي، بل وأحيانًا ليومين أو ثلاثة. بالشكوى نفسها في كل مرة، والعذاب نفسه في المعدة. سير فرانسيس بيكون سيقول، إنه إغفال الانضباط في الأماكن الجبلية. سير فرانسيس بيكون كاذب. ما من انضباط يستطيع تحويل إنسان إلى إنسان آخر، ولا حتى ذرّة منه، ومثل هذا الانضباط أسمّيه وقاحة وحماقة».

وجدتُ ذلك فاتنًا. قرأتُ وقرأت، عاجزة عن التوقّف. وربما مثلما كان المؤلف ليأمل، توغّل كل ما قرأته في أحلامي - وظلت الرؤى تترى أمام عينيّ طوال الليل.

IX

أكبر الأشياء في أصغرها

قُبرة جريحة الجناح
تحرِم الملاك شَدْوَه والأفراح.

يبدأ الربيع في مايو، وتظهر بشائره عندما يخرج طبيب الأسنان حفّارته العتيقة وكرسيه الأثري. ينفض التراب بضربات خفيفة من قطعة قماش، واحد، اثنان، ثلاثة، فيحرره من شباك العناكب والقش - لقد قضى الكرسي والحفّارة الشتاء في الحظيرة، ولم يخرجا إلا بين حين وآخر عندما تطرأ حاجة ملحّة. لم يكن طبيب الأسنان يعمل فعليًا في الشتاء؛ من المستحيل أن تفعل أي شيء هنا في الشتاء، الناس يفقدون اهتمامهم بصحتهم. علاوة على ذلك، فالجو مظلم ونظره ضعيف. يحتاج إلى ضوء مايو أو يونيو الباهر أن يسطع مباشرة داخل أفواه مرضاه، المؤلّفين من عمّال الغابة والرجال ذوي الشوارب الذين يقضون النهار بأكمله متسكعين هنا وهناك فوق الجسر الصغير في القرية، ما أكسبهم محليًا اسم «لواء الجسر».

فور أن جفّت وَحْلة أبريل، بدأت أغامر بجرأة تزداد أكثر فأكثر إلى داخل الجيرة بذريعة القيام بجولاتي. في هذا الوقت من السنة كنت سعيدة بأن أسقط على أختوزيا، الضيعة المتاخمة للمحجر، حيث يعيش طبيب الأسنان. ومثل كل عام صادفتُ منظرًا مذهلًا - هناك على العشب الأخضر الزاهي، تحت صفحة السماء الزرقاء، كان ينهض كرسي

الأسنان الأبيض المتضعضع، يسترخي عليه أحدهم، فمه مفتوح على وسعه في مواجهة الشمس، بينما ينحني عليه طبيب الأسنان، والحفّارة في يده. في هذه الأثناء، كانت قدمه تتحرك برتابة، تضغط بانتظام على بدّال الحفّارة. وعلى بعد بضعة أمتار كان رجلان أو ثلاثة آخرون يراقبون المشهد في صمت ذاهل وهم يشربون بيرتهم.

كانت وظيفة طبيب الأسنان الأساسية تتمثّل في خلع الضروس المتوجِّعة، وأحيانًا، في أحوال أكثر ندرة، معالجتها. كذلك كان يصنع أطقم الأسنان. قبل أن أعرف بوجوده، كثيرًا ما تساءلت عن جنس البشر الذين استقروا هنا، في هذه المنطقة. كان الكثيرون من المحليين يمتلكون أسنانًا شديدة التميز، وكأنهم جميعًا من عائلة واحدة، وكأنهم يحملون الجينات نفسها أو يخضعون **للطالع** نفسه. خصوصًا الأكبر سنًّا منهم: كانت أسنانهم طويلة وضيّقة، بمسحة زرقاء. أسنان غريبة. وقد خرجتُ بفرضية بديلة أيضًا، إذ سمعتُ أن ثمة عروقًا غائرة من اليورانيوم تحت **الهضبة**، وهو المعدن الذي، كما يعرف الجميع، يتسبب في مختلف الشذوذات.

الآن صرت أعرف أنها الأسنان الزائفة التي يصنعها طبيب الأسنان، علامته التجارية، شعاره المميَّز. مثل كل فنان، كان متفرِّدًا.

في رأيي كان يمكن أن يكون مَعلَم جذب سياحي لوادي كودزكو، فقط لو كان ما يفعله مشروعًا. لسوء الحظ، قبل بضع سنوات جُرِّد من رخصة ممارسة مهنته بسبب الإفراط في معاقرة الخمر. غريبٌ أنهم لا يسحبون رخصة طبيب الأسنان بسبب ضعف النظر. هذا **الاعتلال** يمكن أن يكون أخطر بكثير على المرضى. وكان طبيب الأسنان يضع نظارة قوية، ثُبتت إحدى عدستيها في مكانها بشريط لاصق.

ذلك اليوم كان يحفر ضرس أحد الرجال. كان من الصعب التعرف على ملامح الرجل، بعد أن التوى وجهه في ألم ونمّلَ قليلًا بفعل

المشروب الكحولي، الذي كان طبيب الأسنان يخدِّر به مرضاه. جعل ضجيج الحفارة البشع يثقب دماغي، مثيرًا أفظع ذكريات الطفولة.

قلت أحييه: «كيف الحياة؟».

«محتمَلة»، هكذا أجابني طبيب الأسنان بابتسامة واسعة، ذكّرتني بالمثل القديم: «باب النجّار مخلّع». «لم تأتِ إلى هنا منذ زمن طويل. أظن آخر مرة التقينا كانت أثناء بحثك عن...».

«نعم، نعم»، قاطعته. «السير إلى هذه المسافة البعيدة كان مستحيلًا في الشتاء. فما إن أتمكن من إخراج نفسي من وسط الثلوج إلّا ويكون الظلام قد حلّ».

عاد إلى حَفرِه، ووقفت أنا مع غيري من المتفرّجين، مستغرقةً في مراقبة الحفّارة وهي تعمل في فم الرجل.

«هل رأيتِ الثعالب البيضاء؟»، سألني أحد الرجال. كان له وجه جميل. كان جديرًا، لو سارت حياته على نحو مختلف، بأن يصير نجمًا سينمائيًا. بيدَ أن مظهره الحسن كان يختفي الآن وراء شبكة من أخاديد وجهه وتجاعيده.

قال آخر: «يقولون إن مُصراني أطلق سراحهم قبل فراره».

وأضفتُ أنا: «ربما شعر بتأنيب ضمير. وربما أكلته الثعالب».

رمقني طبيب الأسنان بنظرة فضول. ثم أومأ برأسه وغاص بالحفّارة داخل ضرس المريض. انتفض المسكين في مقعده.

سألتُ: «ألا يمكن حشو الضرس من دون كل ذلك الحفر؟».

لكن أحدًا لم يبد مهتمًّا بالمريض.

تنهّد الرجل الجميل قائلًا: «أولًا القدم الكبيرة، ثم المأمور، والآن مُصراني... لقد أصبح الرجل منّا يخاف الخروج من المنزل. بعد الظلام أقول لامرأتي أن تتعامل مع كل شيء بالخارج».

قلت: «لقد وجدتَ حلًّا ذكيًا»، ثم أضفتُ ببطء: «الحيوانات تنتقم منهم بسبب الصيد».

قال الرجل الجميل متشكّكًا: «لا بد أنك تمزحين... القدم الكبيرة لم يكن يصطاد».

«بل كان مُهيِّج طرائد»، أجابه شخص آخر. «السيدة دوشيكو محقّة. وكان أكبر صياد غير شرعي في هذه المنطقة، أليس كذلك؟».

مسح طبيب الأسنان قطعة من المعجون الأبيض على شريحة صغيرة ووضعها داخل الضرس المحفور باستخدام مِلوَق، وهو يغمغم بينه وبين نفسه: «نعم، احتمال. احتمال قائم - لا بد أن ثمة وجودًا للعدالة، أليس كذلك؟ نعم، نعم. الحيوانات».

تأوّه المريض بأنينٍ مثيرٍ للشفقة.

«هل تؤمنين بعدالة السماء؟»، سألني طبيب الأسنان فجأة، وهو يقف بلا حراك فوق مريضه. كانت ثمة مسحة استفزازية في صوته.

قرقر الرجال في ضحكة مكبوتة، وكأنهم سمعوا شيئًا غير لائق. كان عليّ أن أفكر في الأمر.

«لأني أؤمن بها»، هكذا قال، من دون انتظار إجابة. أعطى المريض ضربة ودودة على الكتف، فقفز الرجل من على المقعد، سعيدًا. قال: «التالي»، فتقدّم رجل من بين مجموعة المتفرجين وجلس متردّدًا في الكرسي.

سأله طبيب الأسنان: «كيف حالك».

ردًّا على ذلك فتح الرجل فمه، واسترق طبيب الإنسان نظرة إلى داخله. أجفل على الفور، وهو يقول: «يا للمصيبة!»، وهو ما كان، لا بد، أوجزَ تقييم ممكن لحالة المريض السِّنّية. لبرهة جعل ينخس بأصابعه ليختبر مدى صلابة أضراس الرجل، ثم مدّ يده وراءه وتناول زجاجة فودكا. «هيا، اشرب. سنخلعه».

دمدم الرجل بشيء غير واضح، وقد أحبطه هذا الحكم غير المحمود. تقبّل القدَح شبه الممتلئ من الفودكا الذي قدّمه له طبيب الأسنان وتجرعه دفعةً واحدةً. مؤكد أنه لن يشعر بأي ألم بعد مخدّر بهذه القوة.

بينما ننتظر سريان مفعول الكحول، شرعَ الرجال متحمسين في الكلام عن المحجَر، الذي بدا وأنه سيُفتح من جديد. عامًا بعد عام سوف يلتهم الهضبة، إلى أن يبتلعها عن بكرة أبيها. سوف نضطر إلى الانتقال من هنا. إذا أعادوا فتحه فعلًا، سوف تكون ضيعة طبيب الأسنان أول ضيعة يُعاد توطين ساكنيها.

«لا، لا أؤمن بالعدالة السماوية»، قلتها. ونصحتهم: «شكِّلوا لجنة احتجاج. نظِّموا مظاهرة».

«Après nous le déluge»[1]، قالها طبيب الأسنان، وهو يدس أصابعه داخل فم المريض، الذي صار الآن غائبًا عن الوعي تقريبًا. ثم، بسهولة، ومن دون جهد، استخرج ضرسًا مسودًّا. كل ما سمعناه كان طقّة خافتة. وجعلني ذلك أشعر بدوار.

قال طبيب الأسنان: «ينبغي عليهم أن يثأروا لكل ذلك، الحيوانات يجب أن تهتك عرضهم جميعًا».

«صحيح. يهتكون عرضهم ويفشخونهم إلى أن تصير تلك الممارسة في طيّ النسيان»، حذوتُ حذوه، ورماني الرجال بنظرة اندهاش واحترام.

عدت إلى البيت من طريق ملتوٍ؛ الآن كنا تجاوزنا الظهيرة بوقت طويل. وكانت تلك هي اللحظة التي رأيت فيها، عند حافة الغابة، الثعالب البيضاء. اثنان منهم. كانا يتحركان ببطء، واحد وراء الآخر. كان بياضهما على خلفية المرجة الخضراء أشبه بشيء من عالم آخر. بديا أشبه ببعثة دبلوماسية من مملكة الحيوان، جاءت إلى هنا من أجل الاستطلاع.

---

(1) بالفرنسية: نحن وبعدنا الطوفان. (المترجم)

في بواكير مايو أزهرت الهندباء. في الأعوام المواتية تتفتح في نهاية أسبوع العيد، عندما يصل الملّاك إلى منازلهم للمرة الأولى بعد الشتاء. في الأعوام الأقل مواتاة لا تغطي المروج ببقع صفراء حتى «يوم النصر»، في الثامن من الشهر. كل عام، كنا أنا وديزي نقضي وقتًا في التأمل بمعجزة المعجزات.

لسوء الحظ، كان ذلك يمثل نذيرًا بأوقات عصيبة على ديزي؛ فبعدها بأسبوعين تهاجمه حساسياته المختلفة - تسيل الدموع من عينيه، وتضيق أنفاسه ويختنق. في البلدة كان الأمر محتملًا إلى حد ما، لكن في أيام الجمعة عندما يأتي لرؤيتي أصير مجبرة على إغلاق كل الأبواب والنوافذ بإحكام لمنع مثيرات الحساسية غير المنظورة من دخول أنفه. في يونيو، عندما تُزهر الأعشاب، يصير علينا نقل جلسات الترجمة إلى مسكنه في البلدة.

بعد شتاء طويل، ومرهق، وقاحل كهذا، كانت الشمس بدورها تترك تأثيرًا سيئًا بشكل استثنائي عليّ أنا أيضًا. لا أستطع النوم في الصباحات، أستيقظ عند الفجر ولا يفارقني الشعور بالقلق. طيلة الشتاء يصير عليّ الدفاع عن نفسي ضد الريح التي تعصف فوق الهضبة بلا نهاية، غير أني الآن فتحت النوافذ والأبواب على وسعها لأتركها تدخل وتطرد مخاوفي الزنخة وكل اعتلال ممكن.

كل شيء كان يبدأ في الطقطقة، كنت أحسّ بذبذبة محمومة تحت العشب، تحت طبقة الأرض، وكأن أعصابًا سُفلية شاسعة، منتفخة من فرط الجهد، على وشك الانفجار. كنت أجد صعوبة في تخليص نفسي من الشعور بأن ثمة إرادة قوية باطشة تترصّد تحت تلك الطبقة؛ إرادة بغيضة مثل القوة التي تجعل الضفادع تعتلي بعضها بعضًا، وتتسافد بلا كلل في بركة غريب الأطوار.

فور اقتراب الشمس من الأفق، بدأت عائلة من الخفافيش تظهر على

نحو منتظم. كانت تطير إلى الداخل بلا صوت، بنعومة؛ لطالما فكرت في طيرانها بوصفه مائعًا. ذات مرة أحصيتُ منهم اثني عشرًا، وهم يحلّقون فوق بيت تلو آخر. أود لو أعرف كيف يرى **الخفاش** العالم؛ أود لو أطير ولو مرة واحدة فوق الهضبة داخل جسده. كيف نبدو جميعًا هنا بالأسفل، مدرَكين بحواسه؟ مثل ظلال؟ مثل حِزَم من الاهتزازات، مصادر للضوضاء؟

عندما يقترب المساء، أجلس في الخارج وأنتظر ظهورهم، يطيرون واحدًا بعد آخر فوق بيت البروفيسور، ويزورون كلًّا منا تباعًا. ألوِّح لهم برقّة، أحييهم. الحقيقة أنني كنت أشترك معهم في أشياء كثيرة - أنا أيضًا كنت أرى العالم من منظور آخر، مقلوبًا رأسًا على عقب. أنا أيضًا كنت أفضل الغسق. أنا أيضًا لا أصلح للعيش في نور الشمس.

كان جلدي يتفاعل على نحو سيئ مع الأشعة القوية، القاسية، التي لم تلطّفها بعدُ أي أوراق أو سُحب زغبيّة. يصير أحمر ويتهيّج. مثل كل عام، في الأيام القليلة الأولى من الصيف، تبدأ بثور صغيرة أكّالة في الظهور على سطحه. أعالجها باللبن الرائب، وبمرهم الحروق الذي أعطاه لي ديزي. يصير لزامًا عليّ أن أخرج قبعات العام الماضي ذات الحواف العريضة، التي أثبّتها تحت ذقني بأشرطة لمنع الريح من الإطاحة بها.

ذات أربعاء، وأنا عائدة من المدرسة، في واحدة من تلك القبعات، سلكتُ مسارا ملتويًا لكي... في الحقيقة، لا أعرف حقًّا لماذا أخذت تلك اللفّة. هناك أماكن لا نختار زيارتها، ومع ذلك يجذبنا إليها شيء ما. ربما كان الرهبة. ربما هذا هو السبب الذي يجعلني أنا أيضًا، مثل بشائر، أحب قصص الرعب.

بصدفة غريبة، وجدت نفسي ذلك الأربعاء بالقرب من مزرعة **الثعالب**. كنت أقود الساموراي عائدة إلى البيت عندما انعطفتُ فجأة،

عند تقاطع الطرق، إلى الاتجاه المعاكس لطريقي المعتاد. بعدها مباشرة، انتهى الأسفلت، وعند تلك النقطة شممتُ النتانة البشعة التي كانت تنفّر أي إنسان يخرج للتمشية. كانت الرائحة المقرفة لا تزال هناك، ولو أن المزرعة أُغلقت رسميًا قبلها بأسبوعين.

كانت الساموراي تتصرف وكأنها تمتلك هي الأخرى حاسة شمّ - توقّفت فجأة. جلستُ في السيارة، تداهمني النتانة، وعلى بعد مئات الأمتار رأيت بعض المباني محاطة بسياج عال من الأسلاك - ثكنات مصطفّة واحدة وراء الأخرى. على طول السياج امتدت أسلاك شائكة ثلاثية. كانت الشمس ساطعة على نحو يُغشي الأبصار. كل نصل من العشب يلقي ظلًا حادًا، كل فرع يشبه سيخًا. كان المكان صامتًا مثل القبور. أصختُ السمع، وكأنما توقّعًا لسماع أصوات مروِّعة من وراء هذه الثكنة، أصداء ما حدث هنا في الماضي. لكن بدا واضحًا أنه ما من مخلوق بالداخل، لا إنسان ولا حيوان. على مدار الصيف سوف تتكاثف في المزرعة أعشاب الأرقطيون والقرّاص. في غضون عام أو عامين سوف تختفي الثكنة بين الخضرة، لتتحوّل إلى بيت رعب في أفضل الأحوال. خطر ببالي أن المرء يستطيع أن يجهّز متحفًا هنا. كتحذير.

بعدها بقليل أدرتُ السيارة وعدتُ إلى الطريق الرئيسي.

آه، نعم، كنت أعرف شكل المالك المفقود. سبق والتقيته على جسرنا الصغير بعد قليل من انتقالي إلى هنا. كانت مقابلة غريبة. لم أكن قد عرفت بعدُ من هو.

في عصر ذلك اليوم كنت في طريقي إلى البيت في الساموراي عائدة من التسوّق في البلدة. أمام الجسر الذي يقطع جدولنا رأيت سيارة دفع رباعي؛ كانت قد توقّفت على جانب الطريق، وكأنها شعرت برغبة مفاجئة أن تتمطّى لتُرخي عظامها: كل أبوابها كانت مفتوحة. هدّأتُ

السرعة. لا أحب هذه السيارات العالية القوية، التي صممها صانعوها متخيّلين حروبًا، لا نزهات في أحضان الطبيعة. إطاراتها الضخمة تحفر أخاديد في الطرق الترابية وتُتلف المماشي. محركاتها الجبارة تثير الكثير من الضجيج وتبعَث العوادم. لديّ قناعة أن ملّاكها من أصحاب القضبان الصغيرة الذين يعوّضون هذا النقص بامتلاك سيارات كبيرة. كل عام أحتجّ لنائب القرية على سباقات الرالي، التي تقام في تلك العربات المروّعة، وأقدم التماسًا. بيدَ أني لا أفوز إلا بردٍّ روتيني، مفاده أن النائب سوف ينظر في ملاحظاتي، وهذا كل شيء. الآن، كانت إحداها متوقفة هنا، إلى جوار الجدول مباشرة، على الطريق المؤدي إلى الوادي، على أعتاب بابي تقريبًا. تقدَّمتُ بسيارتي ببطء شديد، وجعلتُ أدقّق في ذلك الضيف غير المرغوب فيه.

كانت شابة صغيرة جميلة تجلس في المقعد الأمامي، تدخن سيجارة. كان لها شعر أشقر بلون ماء الأكسجين يبلغ طوله كتفيها، وعلى وجهها زينة وُضعت بعناية، وكانت إحدى ملامحها البارزة الشفتان المحدّدتان بقلم داكن. كانت تتمتّع بتلك السُّمرة الداكنة وكأنها خرجت للتوّ من فوق الشواية. وكانت أظافر قدميها مطلية بالأحمر. كانت تُدلّي ساقيها خارج السيارة، وقد انزلقت فردة صندل من إحدى قدميها وسقطت وسط العشب. توقفتُ وأخرجت رأسي من النافذة.

سألتها بنبرة ودية: «هل تحتاجين إلى مساعدة؟».

هزت رأسها لتقول لا، ثم رفعت عينيها باتجاه السماء وأشارت بإبهامها إلى مكان ما وراءها؛ وهي تبتسم ابتسامة ذات مغزى. بدت لطيفة جدًّا، ولو أني لم أفهم إيماءتها. لذا ترجّلتُ من السيارة. إجابتها بإيماءة بدلًا من الكلمات دفعتني إلى التصرف بهدوء؛ اقتربتُ منها على أطراف أصابعي تقريبًا. رفعتُ حاجبيّ مستفسرة. أعجبني ذلك الغموض.

قالت هامسة: «لا داعي للقلق. أنا أنتظر... زوجي».

تنتظر زوجها؟ هنا؟ لم أفهم المشهد الذي كنت أشارك فيه عَرَضًا أنا الأخرى. نظرتُ حولي مرتابة، وعندها رأيته، هذا الزوج. كان يخرج من وسط الأجمة. بدا غريبًا وهزليًّا إلى حد بعيد. كان يرتدي «يونيفورم» من نوع ما، زيًّا مموّهًا بالأخضر والبني. وكانت غصينات التّنوب قد التصقت به من رأسه إلى قدميه. كانت خوذته مغطاة بنفس قماش «اليونيفورم». وكان وجهه ملطخًا بالطلاء الأسود، مع شارب أبيض مهندَم يَبرز على تلك الخلفية. لم أستطع رؤية عينيه - كانتا مخبأتين وراء جهاز بصري غير معتاد، شيء يشبه الأداة التي يستخدمها اختصاصيّ النظّارات لاختبار عيوب النظر، مزوّدة بالكثير من البراغي والمفصّلات. بينما كان صدره العريض وكرشه الوافر مزدانين بأدوات سُفرة خلويّة، وحافظات خرائط، وطواقم بوصلات، وحزام ذخيرة. كان يمسك ببندقية مزودة بمنظار؛ بدت لي سلاحًا من فيلم «حرب النجوم».

«يا إله السموات!»، شهقتُ رغمًا عن نفسي.

لبضع ثوانٍ، ظللت عاجزة عن إخراج أي صوت بشري. جعلتُ أحدق في هذا المسخ، شاعرة بخوف وذهول، إلى أن ألقت المرأة سيجارتها على الطريق وقالت بصوت ساخر نوعًا: «وها هو».

تقدّم الرجل ناحيتنا وخلع خوذته.

لا أظنني سبق ورأيت شخصًا بهذه الهيئة الـ«زُحليّة» من قبل. كان متوسط البنية، له جبهة عريضة وحاجبان مشعّثان. توقف قليلًا ووقف وإحدى قدميه إلى الداخل. لم أستطع منع نفسي من التفكير في أنه متمرّس على التهتّك، وأنه لم يلاحق إلا شيئًا واحدًا طيلة حياته - الإشباع الدؤوب لرغباته، بأي ثمن. كان هذا أغنى رجل في الجيرة.

خامرني انطباع بأنه سُرّ لأن شخصًا آخر رآه بخلاف زوجته. كان معتزًّا بنفسه. حيّاني بتلويحة من يده، لكنه تجاهل وجودي تمامًا بعدها. اعتمر

خوذته وأعاد وضع المنظار الغريب على عينيه وحدّق في اتجاه الحدود. على الفور فهمت كل شيء وشعرت بدفقة من الغضب.

«هيا نتحرك»، قالت الزوجة بصبرٍ نافدٍ، وكأنما لطفل. ربما استطاعت هي أيضًا استشعار موجات الغضب المنبعثة مني.

لبرهة تظاهر بعدم سماعها، لكنه سرعان ما رجع إلى السيارة، وخلع كل المعدات عن رأسه، ووضع البندقية جانبًا.

«ماذا تفعل هنا»، هكذا سألته، إذ لم يخطر ببالي شيء آخر.

قال، من دون أن ينظر إليّ: «وماذا تفعلين أنتِ؟».

كانت زوجته تنتعل صندلها وتستقر في مقعد السائق.

أجبت ببرود: «أنا أعيش هنا».

«آه، أنت السيدة صاحبة الكلبين... لقد سبق وقلنا لك أن تُبقيهما بالقرب من البيت».

«إنهما في أرض خاصّة...»، كذلك شرعتُ أقول، لكنه قاطعني. التمع بياض عينيه على نحو مشؤوم في وجهه المسودّ.

«بالنسبة لنا لا يوجد شيء اسمه أرض خاصة، يا مدام».

كان ذلك قبل عامين، عندما كنت لا أزال أعثر على الأشياء بسهولة أكبر. كنت قد نسيت هذه المقابلة مع مُصراني. فما أهميته؟ لكن لاحقًا، انطلق كوكبٌ سريع الحركة فجأةً ليعبر نقطةً غير مرئية، فحدث تغيُّر، تغيُّر من ذلك النوع الذي لا ندركه هنا بالأسفل. ربما ثمة علامات صغيرة تكشف لنا مثل تلك الحوادث الكونية، غير أننا لا نلاحظها هي الأخرى – أحدهم داس على غُصَيْن ملقى على الممشى، زجاجة بيرة طرقعَت في مُجمّد برّاد بعد أن نسي أحدهم إخراجها في الوقت المناسب، أو ثمرتان حمراوان سقطتا من شجيرة ورد برّية. كيف يمكن أن نفهم كل ذلك؟

من الواضح أن أكبر الأشياء متضمّنة في أصغرها. إنها حقيقة لا

يخالطها الشك. في هذه اللحظة تحديدًا، وأنا أكتب، ثمة تشكيل كوكبي على هذه الطاولة، الكون بأكمله، إذا أردتَ: ميزان حرارة، عملة معدنية، ملعقة من الألومينيوم وفنجان من الخزف. مفتاح، هاتف محمول، ورقة وقلم. وإحدى شَعراتي الرمادية، التي تحتفظ ذرّاتها بذكرى أصول الحياة، ذكرى الكارثة الكونية التي منحت العالم بدايته.

X

كوكوجوس هيماتودِس

لا عِثّةٌ تَقتُل ولا فراشةٌ تَضرِب
فيوم الحساب يقترِب.

بحلول أوائل يونيو صارت البيوت مسكونة، في نهايات الأسبوع على الأقل، غير أني ظللتُ آخذ واجباتي على محمل الجد. مثلًا، كنت أصعد التل مرة يوميًّا على الأقل، وأمارس المراقبة المعتادة بالمنظار الميداني. أولًا أراقب البيوت، بالطبع. البيوت، بمعنى من المعاني، مخلوقات حية تتعايش مع الإنسان في تكافل نموذجي. امتلأ قلبي بالفرح حين رأيت مُتكافلاتها وقد رجعت إليها. مُلئت الدواخل الخاوية بذهابهم وإيابهم، بدفء أجسادهم، بأفكارهم. كانت أيديهم الرقيقة الطيبة تعالج كل الجروح والكدمات الصغيرة التي خلّفها الشتاء، تجفّف الحوائط الرطبة، تغسل النوافذ وتُصلح المحابس العوّامة. الآن بدت البيوت وكأنها استيقظت من السبات العميق الذي تغرق فيه المادة عندما لا يُقلق أحد راحتها. كانت الطاولات والكراسي البلاستيكية قد أخرجت إلى الأفنية الأمامية، والستائر الخشبية فُتحت، وأخيرًا صار بإمكان نور الشمس التوغّل إلى الداخل. في نهاية الأسبوع كان الدخان يتعالى من المداخن. صار البروفيسور وزوجته يظهران أكثر، دائمًا بصحبة أصدقاء. يسيرون بطول الطريق - لا يغامرون أبدًا بعبور حدود الحقول. يخرجون في تمشية يومية بعد الأكل إلى الكنيسة ويرجعون،

يتوقفون على الطريق، يستغرقون في الحديث. من حين إلى آخر، عندما تهب الريح من ناحيتهم، كانت تصل إليّ كلمات غريبة: «كناليتو»، «كياروسكورو»، «تينيبريزم».[1]

كذلك بدأ «البيّارة» يظهرون كل جمعة. في انسجام تام، يشرعون في نزع النباتات التي ظلت تنمو حول بيتهم إلى وقت عودتهم، ليزرعوا نباتات أخرى اشتروها من أحد المتاجر. كان من الصعب معرفة المنطق الذي يدفعهم إلى ذلك، لماذا لا يحبون البَيْلسان ويفضلون الوستاريّة في مكانه. ذات مرة، وأنا أقف على أطراف أصابعي لأنظر إليهم من فوق سياجهم الهائل، أخبرتهم أن الوستاريّة لن تنجو غالبًا من صقيع فبراير هنا، لكنهم اكتفوا بالابتسام، وأومأوا برؤوسهم وتابعوا ما يفعلونه. قطعوا شجرة ورد برّية جميلة وانتزعوا بعضًا من لفائف الزعتر. جلبوا بعض الأحجار لبناء تلة من عالم الخيال أمام البيت، وزرعوها بالمخروطيّات، بحدّ تعبيرهم: أَرز الزينة، والصنوبر الزاحف، والسّرو القزمي، والتّنوب. أمر عبثي تمامًا، في رأيي.

كانت السيدة الرمادية تأتي للبقاء فترات أطول الآن، وصرت أراها تسير بحذاء حدود الحقول بخطى بطيئة، متيبسة كعمود. ذات مساء ذهبت إلى بيتها ومعي المفاتيح وفواتير الإصلاح. عرضَت عليّ بعضًا من شاي الأعشاب. شربتُه من باب التهذيب. فور أن انتهينا من تسوية حساباتنا، تجرأتُ وطرحتُ سؤالًا:

«إذا أردتُ أن أكتب ذكرياتي، كيف أبدأ؟»، قلتها وقد بدا عليّ الارتباك.

«يجب أن تجلسي إلى الطاولة وتجبري نفسك على الكتابة. ستأتي

---

(1) كناليتو: فنان إيطالي عاش في القرن الثامن عشر. «كياروسكورو» و«تينيبريزم»: تقنيتان خاصتان في استخدام الضوء والظل في الفن التشكيلي. (المترجم)

من تلقاء نفسها. يجب ألا تفرضي رقابة على نفسك. يجب أن تدوّني كل ما يخطر برأسك».

نصيحة غريبة. لا أرغب في تدوين «كل شيء». أرغب فقط في تدوين الأشياء التي أجدها جيدة وإيجابية. ظننتُها ستستطرد، لكنها اكتفت بذلك. شعرتُ بإحباط.

«محبطة؟»، سألتني، كأنها تستطيع قراءة أفكاري.

«نعم».

قالت: «عندما يعجز المرء عن الكلام، عليه أن يكتب». وأضافت: «ذلك يساعدنا كثيرًا»، ثم لاذت بالصمت. ازدادت الريح قوة، وصرنا الآن نرى الأشجار في الخارج تتمايل بانتظام على إيقاع موسيقى غير مسموعة، مثل جمهور في حفل موسيقي في مسرح نصفي. في الطابق العلوي، صفقَ تيارُ هواء أحدَ الأبواب. وكأن أحدهم أطلق رصاصة. ارتجفت السيدة الرمادية.

«هذه الأصوات تزعجني - وكأن كل شيء هنا على قيد الحياة!».

قلت: «الريح تصنع ذلك الصوت دائمًا. لقد اعتدت على ذلك».

سألتها أي نوع من الكتب تؤلف، فقالت قصص الرعب. سرّني ذلك. لا بد أن أقدّمها إلى بشائر، مؤكد أنهما ستجدان الكثير من الأشياء تتحدّثان فيها. إنهما حلقتان في السلسلة نفسها. كل من يستطيع كتابة أشياء مثل تلك لا بد وأنه شخص شجاع.

سألتها: «وهل يجب أن ينال الشرير العقاب في النهاية دائمًا؟».

«لا أشغل بالي بذلك. لا يعنيني العقاب. فقط أحب أن أكتب عن أشياء مخيفة. ربما لأني خوّافة جدًّا أنا شخصيًّا. يفيدني ذلك».

«ماذا حدث لكِ؟»، سألتها، وقد تجرأتُ بحلول الغسق، وأشرتُ إلى الدعامة حول رقبتها.

«تحلّل الفقرات العنقية»، قالتها من دون أدنى انفعال، وكأنها تخبرني

عن جهاز منزلي معطوب. «الواضح أن رأسي ثقيل جدًّا. هكذا يبدو لي الأمر. رأسي ثقيل جدًّا. فقراتي لا تستطيع تحمّل وزنه، وهكذا، خششش، خشش، تتحلّل».

ابتسمَت وصبَّت لي المزيد من الشاي الفظيع.

سألتني: «ألا تشعرين بالوحدة هنا؟».

«أحيانًا».

«أنا معجبة بكِ. أتمنى لو كنت مثلك. أنتِ شجاعة».

«آه، لا، أنا لست شجاعة على الإطلاق. أمرٌ طيب أن يكون لديَّ ما أفعله هنا».

«أنا أيضًا أشعر بعدم الارتياح في غياب أغاتا. العالم هنا كبير جدًّا، يستحيل استيعابه»، قالتها، وهي تثبّت نظراتها عليّ لبضع ثوانٍ، تختبرني. «أغاتا زوجتي».

طرفتُ بعينيّ. لم يسبق لي سماع امرأة تتكلّم عن أخرى بوصفها «زوجتها». غير أني أحببت ذلك.

«تفاجأتِ، أليس كذلك؟».

فكرتُ لبرهة.

قلت باقتناع: «يمكنني أن أتخذ زوجة أنا أيضًا. العيش مع أحدهم أفضل من العيش وحيدة. خوض الحياة معًا أسهل من أن يخوضها كلٌّ بمفرده».

لم تردّ. كان الحديث معها صعبًا. أخيرًا سألتها أن تعيرني كتابها. أكثر كتبها رعبًا. وعدتني أنها ستطلب من أغاتا إحضاره. كان الغسق ينزل، لكنها لم تضئ النور. فور أن غطس كلانا في الظلام، قلت وداعًا وعدت إلى بيتي.

***

الآن، بعدما تأكّدتُ من عودة البيوت إلى حضن أصحابها، صرت

أستمتع بالخروج في نزهات تطول أكثر فأكثر، ولو ظللتُ أسمّي تلك الاستكشافات «جولتي». كنت أوسّع نطاق أراضيّ، مثل ذئبة منفردة. سرّني أن أترك ورائي مناظر البيوت والطريق. صرت أتوغل في الغابة - كان يمكنني أن أتسكع فيها من دون نهاية. هنا كانت الأشياء أهدأ؛ الغابة أشبه بملاذ شاسع، عميق، مضياف، يستطيع المرء الاختباء بداخله. كانت تُهدهد عقلي. هنا لم أضطر إلى إخفاء أكثر اعتلالاتي إزعاجًا - بكائي. هنا كان لدموعي أن تسيل، أن تغسل عينيّ وتحسّن نظري. ربما لهذا السبب كنت أرى أكثر مما يراه أصحاب العيون الجافة.

أولًا لاحظتُ غياب الغزلان - لقد اختفت. أو ربما استطال العشب كثيرًا حتى بات يُخفي ظهورها الحمراء عن العيون؟ المعنى الحقيقي لذلك أن الغزلان بدأت تضع صغارها.

يوم رأيت فتاةً لأول مرة ومعها شادن أبقع جميل، رأيت أيضًا رجلًا في الغابة، من مسافة قريبة للغاية، ولو أنه لم يرني. كان يحمل حقيبة ظهر، خضراء لها إطار خارجي، مثل تلك التي اعتادوا صنعها في السبعينيات، لذا خطر لي أنه لا بد في مثل عمري. ولأصدقكم القول، فقد بدا كذلك أيضًا - مسنًّا. كان أصلع الرأس، وجهه مغطّى بشعر رمادي نابت، وقد شُذِّب وقُصِّر، الأرجح بواحدة من ماكينات الحلاقة الصينية الرخيصة تلك التي تباع في شارع السوق. كان بنطاله الجينز الباهت الواسع منتفخًا عند الأرداف على نحو غير جذّاب بالمرّة.

كان هذا الرجل يسير على الطريق الذي يمتد بحذاء الغابة، بحرص، وهو ينظر تحت قدميه. لهذا السبب على الأرجح تركني أقترب إلى هذا الحدّ. عندما وصل إلى التقاطع، حيث كُدِّست جذوع أشجار الصنوبر المقطوعة، خَلع حقيبة ظهره، وأسندها إلى شجرة، ودخل الغابة. أظهر لي منظاري الميداني صورة مشوَّشة متذبذبة، وهكذا لم أعرف ما كان يفعله هناك إلا تخمينًا. رأيته ينحني على أرض الغابة ويفتِّش وسط

أكواز الصنوبر. كان الناظر ليظنه جامع فطر، غير أن موسم الفطر كان لا يزال بعيدًا. أخذت أراقبه لنحو ساعة. جلس على العشب، تناول ساندويتشات، ودوّن شيئًا في كراس. لثلاثين دقيقة أو نحو ذلك رقد على ظهره وذراعاه مطويّتان خلف رأسه يحدّق في السماء. ثم تناول حقيبته واختفى وسط الخضرة.

من المدرسة هاتفتُ ديزي لأنقل له الخبر - أني رأيتُ غريبًا يتجوّل في الغابة. أخبرته كذلك بما كان الناس يقولونه في متجر بشائر؛ أن المأمور قد تورّط في تهريب إرهابيين عبر الحدود. وكانت الشرطة قد اعتقلت بعض المشبوهين في مكان ليس بعيدًا من هنا. غير أن ديزي قابل تلك الكشوف بتشكّك. ورفض الاقتناع بأن الغريب ربما يتسكّع في الغابة لكي يمحو الأدلة المحتملة. ربما خبأ سلاحًا هناك؟

«لا أريد إثارة قلقك، لكن التحقيق على الأرجح سوف يُحفظ على الرف، لأنهم لم يعثروا على ما يمكن أن يلقي ضوءًا جديدًا».

«ماذا تقول؟ وماذا عن آثار الحيوانات حول الموقع؟ الغزلان هم من دفعوه إلى البئر».

ران صمت، ثم سألني ديزي: «لماذا تصرّين على أن تحدّثي الجميع عن تلك الحيوانات؟ لا أحد يصدقك على أي حال، وهم يعتبرونك إلى حد ما... يعتبرونك...»، تردد قليلًا.

«مخبولة، صحّ؟»، قلتها، لأساعده.

قال ديزي: «طيّب، صحيح. لماذا تصرّين على تكرار ذلك؟ تعرفين جيدًا أنه مستحيل»، وخطر لي أنني سأضطر إلى أن أشرح لهم الأمر بشكل واضح.

كنت ساخطة. لكن عندما دقّ الجرس لإعلان بدء الحصّة، سارعتُ بالقول: «على المرء أن يعلّم الناس كيف يفكّرون. لا بديل عن ذلك. وإلا جاء غيره وعلّمهم».

لم أنم جيدًا تلك الليلة، بعد إذ عرفتُ أن غريبًا يترصّد على هذا القرب من البيت. غير أن خبر الحفظ المحتمل للتحقيق أثار قلقًا مزعجًا ضاغطًا أيضًا. كيف «يُحفظ على الرف» على هذا النحو؟ من دون مراجعة الاحتمالات؟ وماذا عن تلك الآثار؟ ألم يضعوها في الاعتبار؟ لقد مات شخص في نهاية المطاف. كيف «يحفظوه على الرف»، بحق السماء؟

للمرة الأولى منذ انتقالي إلى هنا أوصدت الباب والنوافذ. وسرعان ما صار البيت مكتومًا. لم أستطع أن أخلد إلى فراشي. كنا في أوائل يونيو، لذا كانت الليالي دافئة وعَطِرة. شعرت وكأني حُبست حبسًا مؤبدًا في حجرة الغلّاية. أصختُ السمع إلى وقع الأقدام حول البيت، حلّلتُ كل حفيف، وقفزتُ مع كل طقطقة غصن. ضخّم الليل أوهى الأصوات، حوّلها إلى نخرات، آهات، أصوات بشرية. أظنني كنت مرعوبة. للمرة الأولى منذ انتقالي إلى هنا.

في الصباح التالي رأيت الرجل صاحب حقيبة الظهر يقف أمام بيتي. في البداية شلّني الخوف وشرعتُ أمدّ يدي داخل الخزينة السرية بحثًا عن رشّاش الفلفل.

«صباح الخير. معذرة على إزعاجك»، بادرني بصوت «باريتون» خفيض، جعل الهواء يرتعش: «أود أن أشتري بعض الحليب من البقرة».

قلت مندهشة، «من **البقرة**؟ ليس لدي حليب من **البقرة**، فقط من **الضفدوع**، هل يصلح هذا؟». كان **الضفدوع** اسم متجر البقالة في القرية.

بدا عليه الإحباط.

الآن، في ضوء النهار، بدا مظهره مقبولًا إلى حدّ كبير. لن أضطر إلى استخدام رشّاشي. كان يرتدي قميصًا كتانيًا أبيض له ياقة بلون اليوسفي، من ذلك النوع الذي كان الناس يرتدونه في الأيام الخوالي الجميلة. عن قرب، كان واضحًا أيضًا لكل عين أنه ليس أصلع في نهاية المطاف. لا

يزال لديه بعض الشعر المتبقي في مؤخرة رأسه، وقد ضفّره في ذيل خنزير صغير رفيع، بدا أشبه برباط حذاء متسخ.

«هل تخبزين خبزك بنفسك؟».

أجبته مندهشة: «لا. أشتريه من متجر أسفل التل أيضًا».

«أها. طيّب، لا بأس».

كنت في طريقي إلى المطبخ، غير أني استدرت لأخبره: «رأيتك يوم أمس. هل بتّ ليلتك في الغابة؟».

«نعم. هل يمكن أن أجلس هنا قليلًا؟ عظامي متيبسة جدًّا».

بدا شارد الذهن. كان ظهر قميصه مخضرًّا من بقع العشب. لا بد أنه انزلق خارجًا من حقيبة نومه. ضحكتُ بيني وبين نفسي.

«هل تريد فنجانًا من القهوة؟».

هزّ يديه: «لا أشرب القهوة».

كان واضحًا أنه ليس ذكيًا جدًّا. لو كان كذلك، لعرف أني لست مهتمة بتفضيلاته في الأكل والشرب.

«إذًا، ربما تروقك قطعة من الكيك»، قلتها، وأنا أشير إلى الطاولة، التي أخرجناها أنا وديزي مؤخرًا. كانت عليها كعكة راوِند، خبزتُها قبل يومين وأكلتُ معظمها.

سألني، وكأننا نتساوم: «هل يمكنني استخدام الحمام من فضلك؟».

قلت: «بالطبع»، وتركته يتقدّمني إلى الداخل.

شرب بعض الشاي وتناول شريحة من الكيك. كان اسمه بوريس سنايدر، لكنه كان ينطق اسمه الأول بطريقة غريبة، مطيلًا الحروف المتحركة: «بووروووس». وبالنسبة لي، التصق به الاسم. كانت لديه لكنة شرقية رقيقة، وفَسّرت لي ملاحظاته القليلة التالية أصولها – كان من بياوستوك.

«أنا اختصاصيّ في علم الحشرات»، قالها وفمه مليء بالكيك. «أدرِس نوعًا معينًا من خنفساء القِلْف المفلطحة، مهددًا بالانقراض، نادرًا وجميلًا. هل تعرفين أنك تعيشين في أبعد نقطة جنوبية من أوروبا تشاهَد فيها (الكوكوجوس هيماتودِس)؟».

لم أكن أعرف. صراحةً، شعرت بسرور - وكأن عضوًا جديدًا في العائلة جاء للانضمام إلينا هنا.

سألته: «كيف تبدو؟».

أدخل بوروس يده في جَرَبنديّة مهترئة من التّوال وأخرج بحرص علبة بلاستيكية صغيرة. دفعها بالقرب من وجهي: «هكذا».

داخل العلبة الشفافة كانت حشرة ميتة - هكذا كنت سأسميها، حشرة. صغيرة، بنّية، عادية المنظر تقريبًا. كنت قد رأيت حشرات شديدة الجمال من قبل. هذه لم تكن استثنائية من أي ناحية.

سألته: «لماذا هي ميتة؟».

«أرجوكِ لا تظنيني أحد أولئك الهواة الذين يقتلون الحشرات لتحويلها إلى عيّنات. كانت ميتة عندما عثرتُ عليها».

ألقيتُ نظرة على بوروس وحاولت تخمين مرضه الخاص.

كان يفتّش في جذوع الأشجار الميتة وأخشابها، سواءً قُطعت عمدًا أو كانت تتحلل على نحو طبيعي، بحثًا عن يرقات الكوكوجوس. كان يحصي اليرقات ويفهرسها، ويدوّن النتائج في كرّاس عنوانه: «توزيع أنواع منتقاة من خنفساء الأخشاب المتحللة في غابات مقاطعة كودزكو، بحسب ما وُصفت في قوائم الملحقين رقمي II وIV من التوجيه الصادر عن الاتحاد الأوروبي بشأن الموائل، ومقترحات لكيفية حمايتها. مشروع». قرأتُ العنوان بحرص شديد، ما وفّر عليّ الاضطرار إلى فتح الكراس نفسه.

فقط تخيلي، هكذا أخبرني، أن «مَصلحة الغابات» غافلة تمامًا عن حقيقة أن المادة 12 من «التوجيه» تُجبر الدول الأعضاء على إنشاء نظام صارم لحماية وإعادة إنتاج الموائل ومنع تدميرها. لكنهم يسمحون بإزالة الخشب من الغابة، الذي تضع فيه **الحشرات** بيضها، الذي تفقس منه اليرقات لاحقًا. هكذا، ينتهي الأمر باليرقات في المناشر ومصانع معالجة الأخشاب. لم يتبقّ شيء منها. كانت تَهلك، لكن أحدًا لم ينتبه على الإطلاق. لذا بدا أن اللوم لا يقع على كاهل أحد.

قال: «هنا، في هذه الغابة، كل قطعة خشب مليئة بيرقات الكوكوجوس. عندما تُزال أجزاء من الغابات تحترق بعض الفروع. أي إنهم يلقون الفروع المليئة باليرقات وسط النار».

خطر لي أن كل موت يُقترف ظلمًا يستحق أن يُفضح. حتى موت **الحشرة**. الموت الذي لا يلاحظه أحد فضيحةٌ مضاعفة. وأحببتُ ما يفعله بوروس. آه، نعم، لقد أقنعني. صرت في صفّه بالكامل.

لمّا كان عليَّ أن أخرج في جولتي اليومية بأي حال، قررت أن أجمع بين الفائدة والإثارة، فذهبت إلى الغابة برفقة بوروس. بمساعدته، كشفَت لي جذوع الأشجار عن أسرارها. تبيّن أن القرْمات ذات المظهر العادي ليست إلا ممالك كاملة من **المخلوقات** التي تَنقُب دهاليز، وحجيرات، وممرّات، وتضع بيضها الثمين هناك. ربما لا تكون اليرقات جميلة، غير أني تأثرت بإحساسها بالثقة - كانت تستأمن الأشجار على حياتها، من دون أن تتخيل أن تلك **المخلوقات** الضخمة غير المتحرّكة شديدة الهشاشة في أصلها، تعتمد، بدورها، اعتمادًا كاملًا على إرادة البشر. كان من المؤلم التفكير في اليرقات وهي **تهلك** وسط النيران. كان بوروس يغترف الفضلات لكي يعرض عليّ أنواعًا أخرى نادرة وأقل ندرة: **خنفساء الناسك**، **خنفساء ساعة الموت** - من يظن أنها تجلس

هنا، تحت قشرة لحاء؟ -الخنفساء الأرضية الذهبية- آه، هكذا تسمى إذًا؛ كنت قد رأيتها مرات عديدة من قبل، ولطالما فكرت فيها بوصفها لامعة لكن بلا اسم. الخنفساء المهرّجة، تشبه قطرة جميلة من الزئبق. خنفساء الأيل الصغرى. اسم غريب. أسماء الحشرات يجب أن تُمنح للأطفال. وكذا أسماء الطيور والحيوانات. «كوكشيفر كوفالسكي»، «دروسوفيلا نواك». «كورفوس دويسيكو». هذه مجرد عينة من الأسماء التي استطعت تذكرها. كانت يدا بوروس تتحرّكان حركات سحرية، وكأنهما تستحضران أرواحًا، ترسمان علامات غامضة، فإذا بحشرة تظهر، أو يرقة، أو بيضات ضئيلة وُضعت في شكل عنقودي. وعندما سألت بوروس أيٌّ منها مفيد، ثارت ثائرته.

«من وجهة نظر الطبيعة، ما مِن مخلوقات مفيدة أو غير مفيدة. هذا مجرد تمييز أحمق وضعه البشر».

مرّ بي تلك الليلة، بعد الغسق، إذ كنت قد دعوته للمبيت عندي. لم يكن لدي سرير إضافي، فجهزتُ له فراشًا في الصالة، لكننا جلسنا وتكلّمنا لبعض الوقت قبلها. جلبتُ نصف زجاجة من الشراب الحلو المتبقي من زيارة غريب الأطوار. بعد أن أخبرني بوروس بكل الانتهاكات والأفعال الخسيسة التي ترتكبها «مصلحة الغابات»، استرخى قليلًا أخيرًا. وجدت صعوبة في فهمه، إذ كيف يتمتّع امرئ بموقف شديد العاطفية على هذا النحو تجاه شيء يسمى «مصلحة الغابات»؟ الشخص الوحيد الذي ربطتُ بينه وبين هذه المؤسسة كان بستانيّ الغابة. «عين الذئب». كذلك أسميته بسبب حدقتيه الطوليّتين. وكان شخصًا لطيفًا.

هكذا، استقر بوروس في بيتي لأيام وأيام. كل ليلة يعلن أن طلابه أو متطوعين من «الحراك ضد مصلحة الغابات» قادمون لاصطحابه في الصباح، لكن كل يوم تظهر مشكلة جديدة؛ إما تتعطل السيارة، أو

يضطرون للذهاب إلى مكان ما في مهمة عاجلة، أو يتوقّفون قليلًا في وارسو على الطريق، بل ومرّة فقدوا حقيبة مليئة بالمستندات. وهكذا دواليك. بدأت أخاف أن يعيث بوروس في بيتي، مثل يرقة كوكوجوس في جذع تنّوب، ولا يصير أمامي حلٌ إلا استدعاء «مصلحة الغابات» لتطرده بالدخان. مع أني لاحظت أنه يبذل جهده كيلا يكون مزعجًا، بل وكان نافعًا بالفعل. مثلًا، نظّفَ الحمّام من أعلاه إلى أدناه بعناية فائقة.

في حقيبة ظهره كان يحمل مختبرًا مصغّرًا، يشمل علبة مليئة بالقوارير والزجاجات الصغيرة، يبدو أنها تحتوي بعض المواد الكيميائية التي، مع كونها مصنّعة، تشبه على نحو خادع فيرمونات الحشرات الطبيعية. كان هو وطلابه يجرون تجاربهم باستخدام تلك العناصر الكيميائية الفعّالة، لكي يتمكّنوا عند الحاجة من استثارة الحشرات للتكاثر في مكان مختلف.

«إذا مسحتِ قطعة من الخشب بهذه المادة، ستهرع إناث الخنافس إليها لكي تضع بيضها. ستهرع إلى قطعة الخشب هنا تحديدًا من كل مكان - تستطيعين أن تشمّي رائحتها من على بعد عدة كيلومترات. ولا يحتاج الأمر إلا لبضع قطرات».

سألت: «لماذا لا يشمّ الناس هكذا؟».

«ومن قال؟».

«أنا لا أشمّ أي شيء».

«ربما لا تعرفين أنك تقدرين، يا عزيزتي، وفي كبريائك البشرية تصرّين على الإيمان بإرادتك الحرة».

ذكّرني حضور بوروس كيف تكون الحياة عندما تعيش مع شخص آخر. وكيف تصير مربكة للغاية. كم تحيد بك عن أفكارك الخاصة وتُشتتك. كيف يبدأ الآخر في إثارة ضيقك من دون أن يفعل أي شيء

مزعج فعليًّا؛ بوجوده فقط. كل صباح عندما يخرج إلى الغابة، كنت أبارك خلوتي المجيدة. كيف يتمكّن الناس من العيش معًا لعقود داخل مساحة صغيرة؟ هكذا تساءلتُ. كيف ينامون في الفراش نفسه، يتنفّسون في وجوه بعضهم بعضًا، يتحاكّون عَرَضًا في نومهم؟ لا أقول إن ذلك لم يحدث لي أنا أيضًا. لبعض الوقت تشاركتُ الفراش مع رجل كاثوليكي، ولم يأتِ من وراء ذلك أي خير.

XI

غناء الخفافيش

أبو الحنّاء الحبيس ذو الصدر الأحمر
يثور له غضبُ السماء ويتفجّر.

إلى الشرطة،

أجد من واجبي أن أكتب إليكم هذا الخطاب، بوحي من شعوري بالقلق تجاه غياب التقدّم من جانب الشرطة المحلّية في التحرّيات المتعلّقة بوفاة جاري في يناير من هذا العام، ومن ثم وفاة المأمور بعدها بستة أسابيع.

وإذ وقع الحادثان الجَسيمان في جيرتي المباشرة، لن تَعجبوا مما أصابني حيالهما من حزن وانزعاج..

إنني على قناعة تامة أن ثمة العديد من الأدلة الواضحة التي توحي بأنهما ضحيتان لجريمة قتل.

وإني لم أكن لأغامر بهذا الزعم الخطير (وأنا أدرك أن الحقائق بالنسبة للشرطة بمثابة اللبِنات للبيت، أو الخلايا للكائن الحي - إذ يقوم عليها النظام بأكمله)؛ لولا موقعي كشاهدة مع اثنين من أصدقائي، ليس

على الحادثتين الفعليّين، ولكن على المشهد الذي تلاهما مباشرة، قبل وصول الشرطة. في الحالة الأولى كان جاري، شفيرستينزكي، وفي الثانية كان تلميذي السابق، ديونيزي.

ويتأسس يقيني بأن الراحلَيْن قد قضيا ضحية **للقتل العمد** على نوعين من الملاحظات.

أولًا: في كلتا الحالتين كانت **الحيوانات** حاضرة في مسرح الجريمة. في الحالة الأولى، رأينا، الشاهد شفيرستينزكي وأنا، مجموعة من **الغزلان** بالقرب من منزل القدم الكبيرة (بينما كان رفيقهم يستوي ذبيحًا في مطبخ الضحية). أما في حالة المأمور، فقد شاهد الشاهدان، بمن فيهم الموقّعة أدناه، العديد من آثار حوافر **الغزلان** على الثلج حول البئر التي عُثر فيها على جسده. لسوء الحظ، تسبب الطقس غير المواتي للشرطة في الطمس السريع لهذا الدليل بالغ الأهمية وغير المألوف، الذي يشير لنا مباشرة باتجاه مقترفي الجريمتين.

ثانيًا، قررتُ فحص المعلومات المميزة للغاية التي يُمكن استخلاصها من المخطط الفلكي الخاص بالضحيتين (المتعارف عليه باسم **الطالع**)، وفي كلتا الحالتين يظهر جليًا احتمال تعرّضهما لهجوم قاتل من قِبل **الحيوانات**. هذا تموضع شديد الندرة للكواكب، ومن ثم فلديَّ ثقة عظيمة في تزكيته لعناية الشرطة. إنني أسمح لنفسي بإرفاق كلا **الطالعين**، على أمل أن يراجعهما **فلكيُّ** الشرطة، ومن ثم يَدعم فرضيتي.
المخلصة
دوشيكو

***

كان بورروس قد أقام معي لثلاثة أو أربعة أيام عندما رأيت غريب الأطوار قادمًا بخطى مجهدة، وهو حدث استثنائي آخر، بالنظر إلى كونه لا يزورني أبدًا. ظننت أنه انزعج بعض الشيء من وجود رجل غريب في بيتي وجاء ليتحقّق من الأمر. دخل مجرجرًا خطاه، وانحنى على نفسه، مريحًا يدًا على أسفل ظهره وعلى وجهه نظرة ألم. ثم جلس متنهدًا.

«لومباغو»، قالها كتحية.

تبيّن أنه وهو ينشئ ممشًى جافًّا جديدًا لبيته من الفناء خلطَ الخرسانة في دلاء وكان على وشك صبّها، لكن عندما انحنى ليرفع الدلو طقّ شيءٌ في عموده الفقري. وهكذا علِقَ في وضعية شديدة الإزعاج ويده ممدودة تجاه الدلو، إذ لم يسمح له الألم بالاعتدال في وقفته. والآن بعد أن خفّ الألم قليلًا، جاء يطلب مساعدتي، إذ كان يعرف أني أفهم كل شيء في البناء - العام الماضي رآني أصبّ الخرسانة بطريقة مماثلة. ألقى نظرة شديدة الانتقاد على بورروس، خاصة على ذيل الخنزير في مؤخرة رأسه، الذي لا بد رأى فيه قدرًا كبيرًا من التظاهر والتصنّع.

قدمّت كلًا للآخر. مدّ غريب الأطوار يده بتردّد ملحوظ.

«التجوّل في الجيرة خطر - هناك أشياء غريبة تحدث في هذه الأرجاء»، هكذا قال بنبرة مشؤومة، غير أن بورروس تجاهل ذلك التحذير.

هكذا، ذهبنا لإنقاذ الخرسانة من التصلّب في الدلاء. وجعلنا نشتغل أنا وبورروس بينما جلس غريب الأطوار على كرسي وراح يصدر لنا تعليمات متنكّرة في صورة نصائح، ويبدأ كل ملاحظة بعبارة: «لو لي أن أنصحكما...».

«لو لي أن أنصحكما بسكب القليل في كل مرة، هنا مرة، وهناك مرة، وتغطيته فور أن ينسجم قوامه. لو لي أن أنصحكما بالانتظار قليلًا إلى أن يستقر. لو لي أن أنصحكما ألا يقف أحدكما في طريق الآخر حتى لا يربكه».

كان أمرًا مزعجًا. لكن بعد إنجاز العمل، جلسنا في رقعة مشمسة أمام البيت حيث كانت زهور الفاونيا تتفتح ببطء، وبدا العالم بأكمله مغطًى بغلالة رقيقة من أوراق الشجر الذهبية.

«ماذا فعلتِ في حياتك؟»، سألني بورروس فجأة.

كان سؤالًا غير متوقَّع إلى حد أني تركت نفسي على الفور أنجرف مع الذكريات. بدأت تُبحر أمام عينيّ، وكَحَال الذكريات، بدا كل ما فيها أفضل، وأجمل، وأسعد من الحقيقة. أمر غريب، لكننا لم ننطق بكلمة.

بالنسبة للناس في مثل سني، فالأماكن المحبَّبة حقًّا والتي كانوا ينتمون إليها في الماضي لم تعد هناك. أماكن طفولتهم وشبابهم كفّت عن الوجود، القرى التي كانوا يذهبون إليها في الأعياد، المتنزهات ذات المقاعد غير المريحة حيث ترعرع حبهم الأول، مدن ماضيهم، ومقاهيها، وبيوتها. ولو كانت هيئتها الخارجية قد بقيت على حالها، لكان ذلك أكثر إيلامًا، مثل صَدَفة لم يعد بداخلها شيء. لم يكن لديّ مكان أرجع إليه. الأمر أشبه بحالة السجن. جدران الزنزانة هي الأفق الذي لا أرى أبعد منه. وراءها يوجد عالم غريب عليّ ولا ينتمي إليّ. لذا فالشيء الوحيد الممكن بالنسبة لأمثالي هو هنا والآن، فكل مستقبل مشكوك فيه، كل ما لم يأتِ بعد ليس إلا تخطيطًا عموميًا وغير مؤكّد، مثل سراب تطمسه أوهى رعشة نسيم. هذا ما دار في عقلي ونحن جالسون هناك في صمت. كان أفضل من الحديث. لم يكن لديّ فكرة فيمَ يفكر أي من الرجلين. ربما في الشيء نفسه.

غير أننا اتفقنا على اللقاء مساء ذلك اليوم، عندما شربنا قليلًا من النبيذ معًا. بل واستطعنا أن نعقد جلسة غناء. بدأنا بـ«اليوم، لا أستطيع المجيء لزيارتك...»، لكن على نحو رقيق وخجول، وكأن آذان الليل الكبيرة تترصّد من وراء النوافذ التي تفتح على البستان، متأهبة لاستراق السمع لكل فكرة من أفكارنا، لكل كلمة، حتى كلمات الأغنية، وإرسالها لكي تخضع للفحص والتمعّن أمام أعلى المحاكم.

بوروس وحده لم يكن منزعجًا. وهذا أمر مفهوم - لم يكن في داره، وأداءات الضيوف دائمًا ما تكون بين الأكثر جنونًا. استرخى في كرسيه، متظاهرًا باللعب على جيتار، وشرع يغني وعيناه مغمضتان:

«كاااان هناااك بَيْتُن في نوووو أورلييينز، كاااانوا يسمووونه الشمس الـمُشرقاااا...»

وكأنما تحت لعنة سحرية، التقطنا أنا وغريب الأطوار الكلمات واللحن، وبعد إذ تبادلنا النظرات، وقد فاجأنا ذلك الاتفاق المتبادل، غنَّينا معه.

تبين أننا جميعًا نعرف الكلمات على نحو أو آخر حتى مقطع، «آه أيتها الأم، خبِّري أطفالك»، الذي يقول الكثير عن ذكرياتنا. عند تلك النقطة بدأنا ندمدم، نتظاهر بمعرفة ما يغنيه. لكننا لم نكن نعرف. انفجرنا في الضحك. آه، كان أمراً جميلًا، مؤثرًا. ثم جلسنا في صمت، نبذل جهدنا لتذكّر أغانٍ أخرى. لا أعرف حال المغنيَيْن الآخريْن، بيدَ أن كتابَ أغانٍ بأكمله طار فجأة من رأسي. ثم دخل بوروس لكي يجلب كيسًا بلاستيكيًا صغيرًا، أخرج منه قبضةً من الأعشاب المجفَّفة، وبدأ يلفها في سيجارة.

«يا ربّي! لم أدخن منذ عشرين عامًا»، قالها غريب الأطوار فجأة، والتمعت عيناه؛ نظرتُ إليه مندهشة.

كانت ليلة زاهية. البدر في يونيو يُسمى القمر الأزرق، لأنه يكتسب درجة لون ياقوتية جميلة للغاية في هذا الوقت من السنة. وفقًا لـ«الدليل الفلكي الكامل»، لا تطول هذه الليلة أكثر من خمس ساعات.

جلسنا في البستان تحت شجرة تفاح عجوز بدأ التفاح يثمر عليها بالفعل. كان البستان شذيًا يتنهّد في الريح. فقدت إحساسي بالزمن، وصار كل فاصل بين الكلام يبدو لا نهائيًا. انفتحت أمامنا هوّة زمنية سحيقة. أخذنا نثرثر لقرونٍ كاملة، نتكلّم بلا انقطاع حول الأشياء نفسها

مرارًا وتكرارًا، الآن بشفتين، الآن بأخريين، وننسى أن الرأي الذي نعارضه الآن كان هو الذي دافعنا عنه منذ قليل. لكن الحقيقة أننا لم نكن نتناقش على الإطلاق؛ كنا نقيم حوارًا، حوارًا ثلاثيًا، مثل ثلاثة من الـ«فاون»[1]، جنس آخر، نصف إنسان نصف حيوان. وأدركت أن أمثالنا كانوا كثيرين في الحديقة وفي الغابة، وجوهنا مغطّاة بالشعر. بهائم غريبة. كانت خفافيشنا قد استقرّت في شجرة وكانت تغني. من أصواتها الحادّة النابضة كانت تتهافت جزيئات مجهريّة من الضباب، وهكذا جعلَ الليل من حولنا يقرع أجراسه برقّة، ويستدعي كل المخلوقات إلى عبادة ليلية.

اختفى بوروس داخل المنزل لدهر كامل، وجلسنا أنا وغريب الأطوار من دون أن ننبس بكلمة. كانت عيناه مفتوحتين على وسعهما، يحدّق فيّ بقوة حتى إني انسللتُ إلى ظلال شجرة لأهرب من نظرته. وهناك اختبأتُ.

«سامحيني»، كان ذلك كل ما قاله، وتحرّك ذهني مثل قاطرة ضخمة في محاولة لفهم الكلمة. علامَ ينبغي أن أسامحه؟ فكّرتُ في المرات التي لم يردّ فيها تحيتي. أو اليوم الذي تكلّم فيه معي من وراء عتبة بيته عندما أحضرتُ له بريده، لكنه رفض إدخالي، إلى مطبخه الأنيق اللامع الظريف. وراودتني فكرة أخرى: إنه لم يعبأ بي على الإطلاق عندما كنت طريحة الفراش بسبب اعتلالاتي، ألفظ آخر أنفاسي.

لكن لماذا ينبغي أن أسامحه على أيّ من هذه الأشياء؟ ربما كان يفكر في ابنه الساخر البارد في المعطف الأسود. لكننا لسنا مسؤولين عن أفعال أبنائنا، أليس كذلك؟

أخيرًا ظهر بوروس في مدخل الباب حاملًا «لابتوب»، كان يستخدمه قبل ذلك بأي حال، وأدخل فيه قِلادته، المصنوعة على شكل ناب ذئب.

---

(1) الفاون: مخلوق في الميثولوجيا الرومانية، نصف إنسان نصف ماعز. (المترجم).

لوقت طويل جدًّا ران صمت تام، وظللنا ننتظر إشارة. أخيرًا سمعنا عاصفة، لكنها لم تُخِفنا أو تفاجئنا. هيمنَت على أصوات الأجراس التي تقرع في الضباب. ما من موسيقى أخرى كان بإمكانها الانسجام مع مزاجنا على نحو أفضل - لا بد أنها أُلِّفَت خصيصًا لهذه الأمسية.

«Riders on the Storm»، تردّد صدى الكلمات من اللامكان.

Riders on the storm
Into this house we're born
Into this world we're thrown
Like a dog without a bone
An actor on loan
Riders on the storm[1]

بدأ بوروس يدندن ويهتز في كرسيه، بينما ظلت كلمات الأغنية تتكرّر وتتكرّر، الكلمات نفسها في كل مرة، لا كلمات أخرى.

«ما الذي يجعل بعض الناس أشرارًا وبغيضين؟»، سأل بوروس، سؤالًا بلاغيًّا.

قلت: «زحل. الفلك التقليدي القديم أيام بطليموس يخبرنا أن السبب هو زُحَل. في مجانباته غير المواتية يمتلك زحل القدرة على جعل الناس ذوي أرواح حقيرة، حقودين، منعزلين، وشكّائين. يصيرون خبثاء، جبناء، وقحين، وجَهِمين، لا يتوقّفون عن التآمر، يتحدّثون بالشر، ولا يهتمون بأجسادهم. يريدون دائمًا أكثر مما يملكون، ولا يرضيهم شيء. هل هذا هو نوع الناس الذي تقصده؟».

---

(1) أغنية «ركّاب وسط العاصفة» لفريق «ذا دورز». جدير بالذكر أنها تتحدّث في مقطعها التالي عن قاتل حرّ طليق. (المترجم)

«يمكن أن يكون ذلك نتيجة لأخطاء في تربيتهم»، أضاف غريب الأطوار، وهو يلفظ كل كلمة ببطء وحرص، وكأنه يخشى أن يخادعه لسانه ويقول شيئًا مختلفًا تمامًا. وبعد أن استطاع نُطق هذه الجملة الواحدة، تجرأ وقال أخرى: «أو الحرب الطبقية».

أضاف بوروس: «أو تدريب سيئ على ‹النُّونِيَّة›»، وقلت أنا: «أُمٌّ مؤذية».

«أب سلطوي».

«انتهاك جنسي في الطفولة».

«الحرمان من الرضاعة الطبيعية».

«التلفاز».

«نقص الليثيوم والمغنيسيوم في النظام الغذائي».

«البورصة»، صرخ غريب الأطوار، بحماسة لا تصدق، لكنه في رأيي كان يبالغ.

قلت: «لا، لا تكن سخيفًا. من أي ناحية؟».

لذا صوّب نفسه: «الكَرب التالي للصدمة».

«التركيبة الجسمانية النفسية».

ظللنا نتقاذف الأفكار إلى أن نفدت منا، لعبة وجدناها مسلية للغاية.

«لكنه زحل»، قلتها في النهاية، وأنا أموت من الضحك.

أوصلنا غريبَ الأطوار سيرًا إلى بيته، ونحن نحاول جهدنا التزام الصمت، خوفًا من إيقاظ الكاتبة. لكننا لم نبرع في ذلك - كل بضع ثوانٍ كنا نشخُر من كثرة الضحك.

عندما ذهبنا للنوم، وقد أضفى النبيذ علينا جرأةً، تعانقنا أنا وبوروس، لنقول شكرًا على هذه الليلة. بعدها بقليل رأيته في المطبخ، يتناول حبوبه ويبتلعها بماء من الصنبور.

خطر لي أنه شخص طيّب جدًّا، بوروس هذا. وكان شيئًا طيبًا أن لديه اعتلالاته. أن يكون المرء سليمًا معافًى هي حالة غير مأمونة ولا تبشّر بالخير. الأفضل أن يكون المرء مريضًا بطريقة هادئة، عندها على الأقل نعرف ما سوف نموت بسببه.

جاءني في الليل وقرفصَ إلى جوار فراشي. لم أكن نائمة.

سألني: «هل أنت نائمة؟».

«هل أنت متديّن؟»، كان ينبغي عليَّ أن أطرح السؤال.

أجابني بفخر: «نعم. أنا ملحد».

وجدت ذلك غريبًا.

رفعتُ اللحاف ودعوته للانضمام إليّ، لكن حيثُ إني لست امرأة شاعرية ولا صاحبة عواطف جيّاشة، فلن أسترسل أكثر من ذلك.

***

اليوم التالي كان يوم سبت، وفي الصباح الباكر، ظهر ديزي.

كنت أعمل في حديقتي الصغيرة، أختبر واحدة من نظرياتي. أظنني أستطيع إيجاد دليل على أننا نرث الأنماط الظاهرية، وهو الأمر الذي يتحدّى علم الجينات الحديث. كنت قد لاحظت أن بعض الملامح المكتسبة تظهر على نحو غير منتظم في الأجيال التالية. لذا، قبل ثلاثة أعوام، شرعتُ في تكرار تجربة مِندِل على البازلاء الحلوة؛ وأنا الآن في منتصف التجربة. كنت أثلِّم بتلات الأزهار، عبر خمسة أجيال متتابعة (جيلان كل سنة)، ثم أنظر لأرى إن كانت البذور سوف تنتج بتلات مَتلُوفة. ويجب أن أقول إن نتائج التجربة بدت مشجعة للغاية.

ظهرَت سيارة ديزي القديمة المتضعضعة من وراء المنعطف بسرعة يمكن للمرء أن يصفها بأنها منقطعة الأنفاس ومفرطة في الحماس. قفز منها ديزي، مستثارًا بالقدر نفسه.

«لقد عثروا على جثة مُصراني. مات وشبع موتًا. منذ أسابيع وأسابيع».

شعرت بدوخة شديدة. توجّب عليّ الجلوس. لم أكن مستعدة لهذا.
«إذًا لم يهرب مع عشيقته»، قال بوروس، وهو يخرج من المطبخ ومعه كوب من الشاي. لم يُخفِ إحباطه.
نظر ديزي إليه وإليّ متردّدًا، وكانت المفاجأة قد عقدت لسانه. كان عليّ أن أقوم بتقديم سريع. تصافحا.
قال ديزي، وحماسته تفتر: «لقد عرفوا ذلك منذ دهر. كان قد ترك بطاقات ائتمانه وحساباته المصرفية لم تمَس. ولو أن جواز سفره لم يظهر».
جلسنا أمام البيت. قال ديزي إن لصوص الأخشاب عثروا عليه. دخلوا الغابة بسياراتهم بعد ظهر أمس من اتجاه مزرعة الثعالب، وهناك، قبل الغسق مباشرة، صادفوا رفاته – هذا ما قالوه. كانت بين السراخس، في حفرة كان الصلصال يُستخرج منها من قبل. والواضح أن تلك الرفات كانت بشعة المنظر، وملويّة ومشوَّهة، حتى إنهم احتاجوا إلى بعض الوقت قبل إدراك أنهم ينظرون إلى جثة رجل. في البداية فرّوا مذعورين، لكن ضمائرهم أنّبتهم. بداهةً، خافوا من الذهاب إلى الشرطة لسبب بسيط – فما إن يفعلوا ذلك، حتى ينفضح نشاطهم الإجرامي. آه، طيّب، كان بإمكانهم دائمًا الزعم بأنهم دخلوا الغابة لاختصار الطريق... لاحقًا في ذلك المساء اتصلوا بالشرطة، وفي الليل وصل فريق الطب الجنائي. مما تبقى من الملابس، استطاعوا التعرف مبدئيًا على مُصراني لأنه كان يرتدي سترة جلدية مميزة. لكن سوف نتأكد من كل شيء يوم الاثنين.

لاحقًا، وصف ابن غريب الأطوار سلوكنا بأنه «طفولي»، بيدَ أنه بدا لي منطقيًا: استقلّينا الساموراي جميعًا واتجهنا إلى الغابة وراء مزرعة الثعالب إلى الموقع الذي عُثر فيه على الجثة. لم نكن بأي حال الوحيدين الذين تصرفوا على نحو طفولي – نحو عشرين شخصًا كانوا قد جاءوا،

رجالًا ونساءً من تراسلفانيا، وكذلك عمال الغابة، هؤلاء الرجال ذوو الشوارب كانوا هناك أيضًا. كان شريط بلاستيكي برتقالي اللون قد مُدّ بين الأشجار، ومن المسافة المسموح بها للجمهور كان من الصعب تمييز أي شيء على الإطلاق.

تقدَّمَت تجاهي امرأة في منتصف العمر، وسألتني: «الواضح أنه ظل راقدًا هنا لشهور وشهور ظلت أثناءها الثعالب تقضم في جثته».

أومأت برأسي. تعرّفتُ عليها. كنا قد التقينا كثيرًا في متجر بشائر. كان اسمها «طاهرة»، ما ترك فيّ أثرًا عظيمًا. أمّا بخلاف ذلك فلم أحسدها – كان لديها عدة أبناء عاطلين لا فائدة ترتجى منهم على الإطلاق.

«الأولاد قالوا إنه كان أبيض تمامًا من العفن. قالوا إنه تعفن بالكامل».

سألت في جزع: «هل هذا ممكن؟».

قالت بثقة كبيرة: «آه، نعم يا مدام. وقالوا إن سِلكًا كان ملتفًّا حول ساقه، وكأنه قد انغرس في لحمه، كان مشدودًا بقوة كبيرة».

قلت: «مصيدة. لا بد أنه علقَ في مصيدة. يضعونها دائمًا في هذه النواحي».

سرنا بحذاء الشريط البلاستيكي، في محاولة لتبيّن شيء محدّد. مسرح الجريمة يثير الهلع دائمًا، لذا لم يكن المتفرجون يتبادلون الحديث إلا بالكاد، وإن تحدّثوا، كانوا يفعلون ذلك بصوت خفيض، وكأنهم في مقبرة.

جَرجَرَت طاهرة قدميها وراءنا، وهي تتحدّث إلى كل من أخرستهم الصدمة. «لكن لا أحد يموت بسبب مصيدة. طبيب الأسنان يصرّ دائمًا على أنه انتقام من الحيوانات. لأنهما يصيدانها، هل تعرفين ذلك؟ هو والمأمور».

«نعم، أعرف»، أجبتها، مندهشة من انتشار الخبر بهذه السرعة. «وأتفق معه».

«حقًّا؟ تظنين أنه من الممكن أن تكون الحيوانات...».

هززتُ كتفيّ. «أعرف أن هذا ما حدث. أظن أنها كانت تنتقم. هناك بعض الأشياء التي قد لا نفهمها، لكن نستطيع أن نحسّها جيدًا».

فكرَت في الأمر لبرهة، ثم اتفقَت معي أخيرًا. درنا حول الشريط وتوقفنا عند بقعة نحظى عندها بإطلالة جيدة على سيارات شرطة ورجال في قفازات مطاطية يقرفصون على أرض الغابة. واضح أن الشرطة كانت تحاول جمع كل الأدلة المحتملة، لتجنب ارتكاب نفس الأخطاء التي ارتكبوها في حالة المأمور. لأنهم ارتكبوا أخطاءً بحق. لم نتمكن من الاقتراب أكثر من ذلك، ظل شرطيان في زي رسمي يبعدوننا إلى الوراء وكأننا سرب من الدجاج. لكننا عرفنا أنهم يبحثون بدأب عن أدلّة، وكان عددٌ من الضباط يسيرون متثاقلين في أرجاء الغابة، يولّون انتباههم إلى كل تفصيلة. كان ديزي خائفًا منهم. فضّلَ ألّا يتعرف عليه أحد في تلك الظروف؛ فهو يعمل لحساب الشرطة في نهاية المطاف. وحين كنا نتناول وجبة خفيفة بعد الظهر، في الهواء الطلق -كان الطقس جميلًا جدًّا- استفاض ديزي في أفكاره.

«هذا يعني أن فرضيَّتي قد هُدمَت بالكامل. أعترف أني كنت متأكدًا تمامًا أن مُصراني هو من دفع المأمور إلى البئر. كانت لديهما مصالح مشتركة، وكانا قد تعاركا، أو ربما كان المأمور يبتزّه. ظننتُ أنهما تقابلا بجوار البئر ثم حدثت مشاجرة بينهما. على إثرها دفع مُصراني المأمور، ووقعت الحادثة».

قال غريب الأطوار: «لكن اتضح الآن أن الأمر أسوأ مما ظنه أي شخص. القاتل لا يزال طليقًا».

وقال ديزي، وهو يقضم الفراولة في التحلية: «وفكرة كونه يترصّد في مكان قريب من هنا».

وجدتُ الفراولة بلا طعم. تساءلتُ إن كان ذلك لأنهم يسمّدوها

بعض الروث، أو ربما لأن مجسّات التذوق عندنا قد شاخت، مع بقية أجسادنا. ولن نعود أبدًا لتذوّق نكهات الماضي. شيء آخر انتهى بلا رجعة.

أعطانا بوروس، وهو يرتشف فنجانًا من الشاي، وصفًا احترافيًّا لطريقة إسهام الحشرات في تحليل اللحم. تركته يقنعني بالرجوع إلى الغابة مجدّدًا بعد الظلام، بعد مغادرة الشرطة، لكي يستطيع إجراء أبحاثه. أما ديزي وغريب الأطوار، اللذان تقزّزا مما اعتبراه فعلًا شاذًّا شنيعًا، فقد بقيا في الشرفة.

***

التمع الشريط البرتقالي البرّاق بوهج فسفوري وسط ظلمة الغابة الخفيفة. في البداية رفضتُ الاقتراب أكثر، بيدَ أن بوروس كان شديد الثقة بنفسه وجرّني وراءه من دون كياسة. وقفتُ فوقه وهو يوجّه مصباح رأسه إلى داخل الهشير، مفتشًا وسط السراخس وحاشرًا إصبعه في طبقة الأوراق المتحلّلة بحثًا عن آثار حشرات. غريبٌ كيف يمحو الليل كل الألوان، وكأنه لا يأبه مطلقًا بمثل هذا البهرَج الدنيوي. جعل بوروس يهمهم لنفسه، بينما تركتُ نفسي، وقد بلغ قلبي الحلقوم من فرط الإثارة، أُحمل بعيدًا على جناح رؤيا:

عندما كان مُصراني يصل إلى المزرعة وينظر من النافذة، كان يرى الغابة، وجدارها المليء بالسراخس، لكن في ذلك اليوم رأى بعض الثعالب الحمراء البرية الجميلة ذات الشعر المنفوش. لم يبدُ عليهم أدنى خوف؛ كانوا يَقْعون على مؤخراتهم وحسب مثل الكلاب، يراقبونه بثبات وتحدٍّ. ربما تولَّدَ أملٌ في قلبه الصغير الجشع - أن يكون قد صادف هنا ربحًا سهلًا، إذ إن ثعالب جميلة وأليفة على هذا النحو يسهل إغواؤها وصيدها. لكن ما الذي يجعلها واثقة وأليفة إلى هذا الحد؟ هكذا فكّر.

ربما تكون هجينًا مع الثعالب التي تعيش في أقفاص وتقضي طيلة حياتها القصيرة تدور في دوائر، في مساحة صغيرة للغاية، حتى إن أنوفها تلامس ذيولها الثمينة. لا، ليس ممكنًا. ومع ذلك كانت تلك الثعالب كبيرة وجميلة. لذا، عندما رآها مجددًا ذلك المساء، فكّر في تعقّبها، ليرى بنفسه ذلك الشيء الذي يغويه، أي شيطان كان. ألقى على نفسه سترة جلدية وانطلق. ثم أدرك أنهم كانوا في انتظاره - حيوانات نبيلة جميلة بوجوه حكيمة. «هيا، يا ولد، هيا، يا ولد»، راح يكلمهم وكأنهم جراء، لكن كلما اقترب أكثر، انسحبوا أكثر إلى داخل الغابة، التي كانت لا تزال جرداء ورطبة في ذلك الوقت من السنة. قال لنفسه لن يكون من الصعب الإمساك بواحد منها - كانوا يحتكّون بساقيه تقريبًا. كذلك خطر بباله أنهم يمكن أن يكونوا مسعورين، لكن لم يهمّه الأمر. كان قد لُقِّح ضد السعار، عندما عضّه كلب بعد أن أطلق عليه النار. بعدها أجهز عليه بكعب بندقيته. لذا حتى لو كانوا مسعورين، لا يهم. كان الثعالب يلاعبونه لعبة غريبة. يختفون عن الأنظار ثم يعاودون الظهور، اثنان، ثلاثة منهم، ثم ظن أنه يستطيع رؤية بعض جراء الثعالب منفوشة الشعر، جميلة أيضًا. وأخيرًا، عندما أقبل أحدهم، الذكر الأكبر والأكثر وسامة من بينهم، وجلس بهدوء أمامه، أقعى مُصراني في إعجاب، وبدأ يتقدّم ببطء شديد، وساقاه محنيتان، وهو يميل إلى الأمام، وإحدى يديه ممدودة أمامه؛ تظاهرت أصابعه بأنها تُمسك بلقمة شهية، الأمر الذي قد يغري الثعلب، ومن ثم يمكن تحويله إلى ياقة جميلة من الفرو. غير أنه أدرك عندها فجأة أنه قد تَشَربَكَ في شيء ما، علقَت ساقاه ولم يعد يستطيع ملاحقة الثعلب. ومع ارتفاع ساق بنطاله، شعر بشيء بارد ومعدني على كاحله. لقد علقت قدمه. وعندما اتضح له أنه قد داس على مصيدة، سحب ساقه غريزيًا إلى الوراء، لكن الأوان كان قد فات. بهذه الحركة أصدر حكمًا على نفسه

بالإعدام. ضاق السلك وأطلق خطافًا بدائيًا - شجرة بتولا صغيرة، وقد لُويَت وثُبِّتت إلى الأرض، انبثقَت منتصبة فجأة، ساحبة جسد مُصراني إلى أعلى بقوة جعلته يتدلّى في الهواء لبرهة، وساقاه تتخبطان، لكن فقط للحظة، إذ سرعان ما تجمّد الجسد في مكانه. بعدها بثوان، انقصمت شجرة البتولا وقد أثقلها ذلك الحِمل الذي يفوق طاقتها، وعلى هذا النحو انتهى مُصراني على الأرض، في حفرة لاستخراج الصلصال، حيث تُبرعِم عساليج السراخس تحت فضلات الغابة.

الآن كان بوروس جاثيًا على ركبتيه في تلك البقعة.

قال: «أعطِني بعض الضوء، من فضلك. أظن أن لدينا بعض يرقات البوقيّات الضارية هنا».

«هل تصدق أن الحيوانات البرية تستطيع أن تقتل شخصًا؟»، سألته، مشغولة بما رأيته في رؤياي.

«أوه، نعم، بالطبع تستطيع. الأسود، النمور، الثيران، الثعابين، الحشرات، البكتيريا، الفيروسات...».

«وماذا عن حيوانات مثل الغزال؟».

«أنا واثق أنها تستطيع العثور على طريقة ما».

إذًا، كان في صفّي.

لسوء الحظ، لم تفسر رؤياي كيف خرجت الثعالب من المزرعة. ولا كيف تسبّبت المصيدة التي علقت بها ساقه في وفاته.

«عثرتُ على قُراديّات، وبوقيّات ضارية، ويرقات زنابير، وجلديّات أجنحة، أي أبو مقص»، قال بوروس على العشاء، الذي كان غريب الأطوار قد أعدّه في مطبخي. «ونمل بالطبع. نعم، والكثير من العفن، لكنهم سببوا له تلفًا كبيرًا وهم يرفعون الجثة. في رأيي كل ذلك يثبت أن الجسد عُثر عليه في مرحلة التخمّر الزُّبدي».

كنا نأكل الباستا مع صوص الجبن الأزرق.

قال بوروس: «لا يمكن تحديد إن كان عفنًا أم شمعًا دهنيًا متفحّمًا، بعبارة أخرى شمع الجثث».

«ماذا تقول؟ ما هو شمع الجثث بالله عليك؟ كيف تعرف كل هذا؟»، كذلك سأل غريب الأطوار وفمه مليء بالمعكرونة؛ كانت ماريسيا تجلس في حجره.

شرح بوروس أنه عمل في وقت ما مستشارًا للشرطة. وأنجز بعض التمرين في «التافونوميا».

سألت: «التافونوميا؟ وما التافونوميا؟».

«إنه العلم الذي يدرِس كيفية تحلل الجثامين. (تافوس) باليونانية تعني قبر».

«يا لطيف!»، تنهّد ديزي وكأنه يطلب تدخل العناية الإلهية. لكن أحدًا لم يتدخّل بالطبع.

«ذلك يدل على أن الجسد ظل في مكانه قرابة أربعين أو خمسين يومًا».

سارعنا بإجراء بعض الحسابات الذهنية. وكان ديزي أسرعنا.

قال متفكرًا: «إذًا، لعل ذلك حدث في أوائل مارس. أي بعد شهر واحد من موت المأمور».

على مدار ثلاثة أسابيع لم يتكلّم أحد في أي شيء آخر، إلى أن وقعت الحادثة التالية. لكن الآن كان عدد النسخ المتعلّقة بموت مُصراني، المنتشرة في الجيرة، شاسعًا. ديزي قال إن الشرطة لم تكن قد بحثت عنه إطلاقًا بعد اختفائه في مارس، لأن عشيقته اختفت هي الأخرى. كان الجميع يعرفون بأمرها، حتى زوجته. ومع أن عددًا من رفاقه فكروا أن رحيلهما بهذه الصورة المفاجئة أمرٌ غريب، اتفقوا جميعًا أن مُصراني كان يدير أعمالًا مشبوهة. لم يرغب أحد في دس أنفه في شؤون شخص

آخر. كذلك تصالحت زوجته مع اختفائه - بل وبدا أن ذلك يناسبها تمامًا. كانت قد أقامت دعوى طلاق بالفعل، لكن يبدو أن ذلك لم يعد ضروريًا. الآن صارت أرملة، وكان ذلك أفضل لها. في هذه الأثناء، عُثر على العشيقة؛ وتبيّن أنهما قد انفصلا في ديسمبر، وأنها تعيش مع أختها في الولايات المتحدة منذ الكريسماس. فكر بوروس أن الشرطة كان ينبغي أن تصدر إشعار «ابحث مع الشرطة» للبحث عن مُصراني، بالنظر إلى كل أنواع الشبهات التي كانت تحوم حوله. لكن ربما كانت الشرطة تعرف شيئًا لا نعرفه.

الأربعاء التالي اكتشفتُ في متجر بشائر أن وحشًا ما كان يترصد في الجيرة، في ما يبدو، وأنه مغرم بقتل الناس على وجه الخصوص. وأن الوحش كان يجوس العام الماضي في منطقة أوبوله، الفارق الوحيد هو أنه هناك كان قد هاجم حيوانات منزلية. الآن شعر سكان الريف برعب أخرجهم من صوابهم، وجعل الجميع يوصدون بيوتهم وحظائرهم بالمزاليج أثناء الليل.

«نعم، لقد سددتُ كل الفتحات في سياجي»، قال الجنتلمان صاحب الكلب البودل، الذي كان يشتري صديرية أنيقة هذه المرة.

سررتُ لرؤيته. ولرؤية البودل. جلس في أدب، يحدق فيّ وفي عينيه تعبير حكيم. كلاب البودل أذكى مما يظن الناس، ولو أن الذكاء لا يبدو عليهم بكل تأكيد. الأمر نفسه ينطبق على الكثير من المخلوقات الشجاعة الأخرى - لا نقدِّر ذكاءها.

غادرنا متجر بشائر معًا، ووقفنا لبرهة إلى جوار الساموراي.

«أتذكّر ما قلتِه تلك المرة، في مكتب حرس البلدية. وقد وجدته مقنعًا جدًّا. لا أظن أن لذلك علاقة بحيوان قاتل واحد، بل بالحيوانات على وجه العموم. ربما بسبب التغيرات المناخية أصبحوا أكثر عدوانية، حتى الغزلان والأرانب البرية. والآن يثأرون لكل شيء».

هكذا قال الجنتلمان المسنّ.

غادر بورروس. أوصلته إلى محطة البلدة. لم يصل طلابه من دارسي الإيكولوجيا قط - أخيرًا تعطلت عربتهم وما عاد ممكنًا إصلاحها. لعله لم يكن هناك وجود لأي طلاب من الأساس. لعل بورروس كانت لديه شؤون أخرى يتابعها هنا، لا تتعلق فقط بالكوكوجوس هيماتودس.

افتقدته كثيرًا لعدة أيام - أدواته في الحمام وحتى فناجين الشاي الفارغة التي كان يتركها في كل مكان في البيت. ظل يهاتفني كل يوم. ثم قلّت مكالماته، فصار يهاتفني كل يومين أو نحو ذلك. بدا من صوته وكأنه يعيش في بُعدٍ آخر، في عالم أرواح في شمال البلاد، حيث تبلغ الأشجار آلاف السنين عمرًا، وتتجول بينها حيوانات كبيرة بالخطوة البطيئة، خارج الزمن. ظللتُ أراقب بهدوء بينما تتلاشى صور بورروس سنايدر، اختصاصيّ علم الحشرات والتافونوميا، وتتبخّر، حتى لم يتبقّ منه إلا ذيل خنزير رمادي صغير معلّق في الهواء، سخيف. كل شيء يمرّ.

الإنسان الحكيم يعرف هذا منذ البداية، ولا يتحسّر.



XII

الوحش المنتقم

كلبُ الشحّاذ وقطّ الأرملة
أطعمهما تُسمن بطنَك النّاحلة.

قبيل نهاية يونيو بدأ المطر ينهمر في سيول. يحدث هذا هنا كثيرًا في الصيف. عندها يستطيع المرء، في ذلك الخَضَل المنتشر في كل مكان، سماع حفيف الأعشاب وهي تنمو، اللبلاب يتسلق الحوائط، وبويغات الفطر تتمدّد تحت الأرض. بعد المطر، عندما تشقّ الشمس السحاب لبعض الوقت، يكتسب كل شيء عمقًا يجعل عينيّ المرء تفيضان بالدموع.

كنت أذهب كل يوم عدّة مرات لتفحّص حالة الجسر الصغير فوق الجدول، للتأكد من أن المياه الجيّاشة لم تكتسحه في طريقها.

ذات يوم عاصف دافئ، ظهر غريب الأطوار ببيتي ومعه طلبٌ خجول. أرادني أن أساعده في صنع زي تنكّري من أجل حفل راقص يقيمه جامعو الفطر، يقام في ليلة منتصف الصيف، وتنظّمه «جمعية جامعي فطر البورسيني»، التي علمتُ، لدهشتي، أنه أمين صندوقها.

قلت متردّدة، لا أعرف فيمَ أفكر: «لكن الموسم لم يبدأ بعد».

«غير صحيح. الموسم يبدأ مع ظهور الفطر الأنبوبي وفطر الحقل، ويحدث هذا عادة في منتصف يونيو. بعدها لن نجد وقتًا للحفلات الراقصة، لأننا سنكون في الخارج نجمع الفطر». وكدليل على ذلك مد إحدى يديه، وكان يمسك فيها حبّتين جميلتين من فطر البتولا.

تصادف أني كنت جالسة تحت سقف شرفتي، أعمل على بحثي الفلكي. منذ منتصف مايو كان نبتون قد صار في مُجانبة جيدة مع برجي **الصاعد**، الأمر الذي كان له، مثلما سبق وأشرت، تأثيرٌ مُلهِم عليّ.

حاول غريب الأطوار إقناعي بمرافقته إلى اجتماع الجمعية. أظنه أرادني حتى أن أسجل اسمي وأدفع اشتراك العضوية على الفور. غير أني لا أحب الانتماء إلى أي جمعيات. ألقيتُ نظرة سريعة على **طالعه** أيضًا، واكتشفت أن نِبتون عنده أيضًا كان في مجانبة جيدة مع الزهرة. لعلّها فكرة طيبة أن أذهب إلى حفل جامعي الفطر الراقص؟ ألقيت عليه نظرة. كان جالسًا أمامي في قميص رمادي بهت لونه، وعلى ركبتيه سلّة صغيرة من الفراولة. دخلت إلى المطبخ وأحضرت سُلطانية. بدأنا نزع سُويْقات حبات الفراولة؛ كانت زائدة في النضج بعض الشيء، لذا كان علينا الإسراع. استخدَم ملقاطًا خاصًّا بالطبع، حاولت أنا أيضًا نزع السُّويقات بالملقاط. لكني وجدت استخدام أصابعي أسهل.

سألته: «ما اسمك الأول، بالمناسبة؟ إلام يشير حرف Ś قبل اسم عائلتك؟».

رد بعد وقفة قصيرة، ومن دون أن ينظر إليّ: «شفيتوبِلك».

«لا!»، صرختُ كرد فعل أوّلي، غير أني فكرتُ بعدها أن مَن مَنحه هذا الاسم التقليدي الغريب، أيًّا مَن كان، قد أصاب عين الهدف. شفيتوبِلك. بدا وكأن هذا الاعتراف قد منحه شعورًا بالارتياح. وضع حبّة فراولة في فمه وقال: «أبي أسماني كذلك نكاية بأمي».

كان والده مهندس تعدين. بعد الحرب كُلّف بمهمة إحياء منجم فحم ألماني سابق في فالدنبورغ، التي تغير اسمها إلى فالبرزيش بعد أن صارت جزءًا من بولندا. كان عليه أن يعمل إلى جانب رجل أكبر سنًّا، المدير الفني الألماني للمنجم، الذي لم يُسمح له بمغادرة البلاد إلى أن تبدأ الماكينات في العمل. في ذلك الوقت، كانت المدينة مهجورة؛ كان

الألمان قد غادروها، وكل يوم صارت القطارات تجلب عمالًا جددًا يُنقلون مما كانت بولندا الشرقية، لكنهم استقروا جميعًا في المكان نفسه، في حي واحد فقط، إذ أخافتهم ضخامة المدينة الخاوية. بذل المدير الألماني قصارى جهده لأداء واجبه بأسرع ما يمكن، لكي يستطيع أخيرًا المغادرة إلى سوابيا أو هيسه أو أينما كان. لذا كان يدعو والد غريب الأطوار للعشاء في منزله، وسرعان ما وقع المهندس في غرام ابنة المدير الفاتنة. الحقيقة أنه كان أفضل حل ممكن - أن يتزوج الشبّان الصغار. الحل الأفضل لصالح المنجم ولصالح المدير، وأيضًا لصالح ما يسمى سلطة الشعب، التي كانت تحتفظ وقتها بابنة الألماني رهينةً بشكل أو بآخر. غير أن زواجهما كان مضطربًا منذ بدايته. كان والد غريب الأطوار يقضي وقتًا طويلًا في العمل، غالبًا ينزل قاع حفرة، لأنه كان منجمًا صعبًا وكثير المتطلبات، حيث يُستخرج فحم الأنتراسيت من أعماق مهولة. أخيرًا صار يشعر بارتياح تحت الأرض أكبر مما فوقها، مهما كان ذلك عصيًّا على التخيل. بعد أن سار كل شيء وفق الخطة وبدأ المنجم في العمل، وُلدت طفلتهما الأولى. أعطي للفتاة الصغيرة اسم زيفيا، اسمًا سلافيًّا تقليديًّا، كطريقة للاحتفال بعودة الأراضي الغربية إلى البلد الأم. لكن تدريجيًّا أصبح واضحًا أن الزوج والزوجة يتبادلان كراهية شديدة. بدأ شفيرستينزكي يستخدم مدخلًا منفصلاً للبيت وحوّل القبو إلى مكتب وغرفة نوم له. عند تلك النقطة وُلد ابنهما، ألا وهو غريب الأطوار، ربما ثمرة وصالهما الجنسي الوداعي الأخير. وعندها، وإذ عرف أن زوجته الألمانية لديها مشكلة في نطق لقبها الجديد، ومدفوعًا بعاطفة ثأرية باتت في أيامنا هذه عصية على الاستيعاب، أعطى المهندس ابنه الاسم السلافي القديم شفيتوبلك. وقد ماتت الأم، التي لم تستطع نطق اسم ولديها، بعد دخولهما المدرسة الثانوية. في هذه الأثناء، كان الأب قد فقد عقله تمامًا وصار يقضي بقية حياته تحت الأرض، في القبو، واستمر في توسيع شبكة حجراته وممراته تحت الفيلا.

اختتم غريب الأطوار كلامه قائلًا: «لا بد أني ورثت غرابات أطواري من أبي».

تأثّرتُ بقصته حقًّا، لكني تأثّرت أيضًا بحقيقة أني لم أسمعه قبلها (أو بعدها) يلقي خطبة طويلة كهذه. تمنّيتُ لو عرفت حلقات أخرى في حياته -مثلًا، شعرت بالفضول لمعرفة من هي والدة المعطف الأسود- بيدَ أنه بدا حزينًا ومنهكًا. كما تبيّن لنا أننا قد التهمنا، من دون وعي تقريبًا، كل الفراولة.

الآن بعد أن كشف لي اسمه الحقيقي، لم يعد بوسعي رفض مرافقته إلى الاجتماع، وهكذا ذهبنا بعد ظهر ذلك اليوم. وجعلَت الأدوات التي أحتفظ بها في مؤخرة الساموراي تقعقع ونحن نتقدّم على الطريق.

سألني شفيتوبِلك: «ماذا تحملين في هذه السيارة؟ لأي غرض تحتاجين كل هذه الأشياء؟ برّاد تخييم؟ صفيحة بنزين؟ مجارف؟».

بالتأكيد كان يعرف أنك عندما تعيش بمفردك في الجبال ينبغي عليك أن تحرص على الاكتفاء الذاتي؟

لدى وصولنا كان الجميع قد اتخذوا مقاعدهم حول الطاولة، وشرعوا يشربون قهوة قوية مخمّرة في دورق زجاجي. لدهشتي لاحظتُ أن «جمعية جامعي فطر البورسيني» تتمتّع بحجم عضوية كبير، يشمل أناسًا كنت أعرفهم جيدًا من المتاجر والأكشاك، ومن الشارع، وبعضًا ممن صعب علي تمييزهم. إذًا فقد كان ذلك النشاط أحد الأشياء القادرة على التقريب بين الناس - جمع الفطر. هيمنَ على الحديث منذ البداية رجلان من جنس «ديك الغاب» جعلا، مثل تلك الطيور الصاخبة، يتبادلان الصراخ في محاولة لسرد مغامراتهما التي لا تحتوي على أدنى قدر من الإثارة، والتي أسماها كلاهما «نوادر». حاول عددٌ من الآخرين إخراسهما، لكن من دون جدوى. مثلما عرفتُ من المرأة الجالسة عن يساري، كان من المقرر إقامة الحفل الراقص في مركز الإطفاء، الواقع

بالقرب من مزرعة الثعالب، ليس بعيدًا عن «ناصية قلب الثور»، غير أن بعض الأعضاء كانوا يعارضون تلك الخطة.

«لن نحظى بكثير من المرح إذا أقمنا حفلة بالقرب من البقعة التي توفّى فيها أحد أصدقائنا»، كذلك قال الرجل الذي يرأس الاجتماع، الذي سرَّني أن تعرفتُ عليه بوصفه مدرّس التاريخ في المدرسة. ما كان لي قط أن أخمن أنه بدوره مهتم بالفطر.

«هذا من ناحية»، قالت المرأة الجالسة في مواجهتي، التي كانت تدير كشك سجائر، وكثيرًا ما تحتفظ لي بالمجلات. «من ناحية أخرى، ربما لا يزال الوضع خطيرًا هناك. بعض السيدات والسادة يدخّنون، على سبيل المثال، وسوف يرغبون في الخروج إلى الهواء الطلق...».

«ينبغي أن أذكر أن التدخين غير مسموح داخل مركز الإطفاء، بينما يُسمح لنا بتناول المشروبات الكحولية في الداخل فقط، وفقًا للتصريح الذي حصلنا عليه. خلاف ذلك سوف يكون شُربًا في الطريق العام وهو غير قانوني».

سَرَت همهمة وسط الرفاق المجتمعين.

صاح رجل يرتدي صديرية كاكيّة اللون: «ما هذا؟ أنا، عن نفسي، أحب التدخين وأنا أشرب. والعكس بالعكس. فماذا سأفعل؟».

وقعَ مدرس التاريخ الذي يرأس الاجتماع في حيرة، ووسط الارتباك الذي تلا ذلك، شرع الجميع يدلون باقتراحات حول كيفية التعامل مع الموقف.

«تستطيع الوقوف في مدخل الباب، تُمسك بيدك كأسك بالداخل، وباليد الأخرى تمسك سيجارتك في الخارج»، هكذا علا صوت من آخر الغرفة.

«سوف يدخل الدخان إلى الداخل بأي حال...».

وطرح أحدهم السؤال المنطقي: «توجد شرفة مسقوفة هناك. هل الشرفة تُحتسب داخلًا، أم خارجًا؟».

دقّ مدير الجلسة على الطاولة، وفي اللحظة نفسها دخل الغرفة أحد المتأخّرين - كان «الرئيس»، الواضح أنه كان عضوًا شرفيًا في الجمعية. التزم الجميع الصمت. كان الرئيس واحدًا من هؤلاء الذين اعتادوا البقاء في مركز الانتباه. من صِباه المبكر كنت تراه في مجلس شيء أو آخر؛ اتحاد طلاب المدرسة، «هيئة صبيان كشافة بولندا الشعب»، المجلس المحلي، شركة المحاجر - أجهزة إشرافية من كل شكل ونوع. ورغم أنه لم يخدم كعضو في البرلمان إلا لفترة واحدة، كان الجميع يسمّونه الرئيس. وسيرًا على عادته في إدارة الأمور، حلّ المشكلة على الفور.

«الحقيقة، يمكننا أن نجهّز 'بوفيه' في الشرفة، ونعلن التراس 'بوفيه زون'»، قالها ممازحًا، ولو أن قلة من الناس ضحكوا على توريته[1].

للحق، كان رجلًا حسن المظهر، وإن شوّهه كرشه الوافر. كان واثقًا بنفسه، ساحرًا، وكانت بنيته الجسمانية العملاقة (مثل كوكب المشتري بين الكواكب) توحي بالثقة. آه، نعم، هذا الرجل وُلد ليحكم. ولا يعرف كيف يفعل أي شيء آخر.

ألقى الرئيس المزهو بنفسه خطابًا قصيرًا عن ضرورة استمرار الحياة، حتى بعد المآسي العظمى. وطعّمه بنِكات صغيرة، وظل يوجّه مناشداته إلى «سيداتنا الجميلات». كانت لديه العادة السوقية نوعًا المتمثّلة في تكرار عبارة مفضلة بين حين وآخر. في حالته كانت «في الحقيقة».

كانت عندي نظرية عن هذا النوع من المداخلات: كل شخص لديه تعبيرٌ خاص يُفرط في استخدامه. أو يستخدمه على نحو خاطئ. تلك

(1) توريته: اللعب على كلمة 'بوفيه زون' التي تعني 'منطقة البوفيه' وقربها من كلمة 'بوفر زون' التي تعني 'منطقة عازلة'. (المترجم)

الكلمات والعبارات تمثّل مفاتيح لطريقة تفكير ذلك الشخص. السيد «من الواضح»، السيد «عمومًا»، السيدة «على الأرجح»، السيد «ملعونٌ أبو»، السيدة «ألا تعتقد»، السيد «وكأنما». الرئيس كان السيد «في الحقيقة». بالطبع هناك صَرْعات تروّج لبعض الكلمات، فمثل الصَّرْعات التي، لسبب جنوني ما، تجعل الجميع فجأة يبدأون في التجول في أحذية أو ملابس متطابقة - يبدأ الناس فجأة أيضًا في استخدام كلمة أو عبارة معينة. مؤخّرًا كانت كلمة «عمومًا» عصرية، لكن !الآن صارت كلمة «في الواقع» في المقدّمة.

«في الحقيقة، فإن الراحل العزيز» - عند هذه النقطة قام بإيماءة، وكأنه يحاول أن يَرشم نفسه بعلامة الصليب -»كان صديقًا عزيزًا لي- كان بيننا العديد من الاهتمامات المشتركة. كما كان من جامعي الفطر المتحمسين، وأنا متأكد أنه كان سينضم إلينا هذا العام. في الحقيقة، كان رجلًا بالغ اللطف، واسع الأفق. كان يوفر وظائف للناس، وفي الحقيقة، فإن ذلك في حد ذاته سببًا كافيًا لاحترام ذكراه. الوظائف لا تنمو على الأشجار. ولقد مات في ظروف غامضة، لكن في الحقيقة، ستصل الشرطة قريبًا إلى صُلب حقيقة القضية. في الحقيقة، لا ينبغي علينا السماح لأحد بإرهابنا، ولا الاستسلام للخوف. للحياة قواعدها التي لا نستطيع تجاهلها. الشجاعة، يا أصدقائي الأعزاء، وسيداتي الجميلات - في الحقيقة، أنا أناصر وضع حدٍّ للنميمة والهستيريا التي ليس لها أساس. في الحقيقة، يجب أن نثق في السلطات وأن نعيش وفقًا لقيَمنا المشتركة». كان يتحدّث وكأنه مرشح للانتخابات المقبلة.

لم أستطع منع نفسي من التفكير أن الشخص الذي يفرط في استخدام عبارة «في الحقيقة» كذّاب بطبيعته، لا شك في ذلك.

عاد المجتمعون إلى سجالهم الفوضوي. مجدّدًا طَرح أحدهم موضوع الوحش المترصّد في الريف بالقرب من كراكوف العام الماضي.

فهل الوضع آمن حقًّا لإقامة حفلة راقصة في مركز الإطفاء، على حافة أكبر غابة في المنطقة؟

«هل تتذكّرون كيف تتبع التلفاز عملية الشرطة في سبتمبر لاصطياد الحيوان الغامض في قرية قرب كراكوف؟ أحد المحليين استطاع أن يصوّر بالفيديو حيوانًا ضاريًا أثناء هروبه، الأرجح أنه أسد صغير»، كذلك قال شاب متحمّس. فكرتُ أني أعرفه من بيت القدم الكبيرة.

وردّ عليه الرجل في الصديرية الكاكيّة، «كلام فارغ! لا بد أن الأمور اختلطت عليك. أسد؟ هنا؟».

«لم يكن أسدًا، كان نمرًا صغيرًا»، كذلك قالت السيدة «زمّارة»؛ هذا هو الاسم الذي أطلقته عليها، لأنها كانت طويلة وعصبية وتحيك أزياء مليئة بالزخارف للسيدات المحليات، لذا كان هذا الاسم أكثر ما يناسبها. «رأيت الصور على التلفاز».

قالت النساء ساخطات: «إنه محقّ، دعوه يكمل، هذا ما حدث».

«قضت الشرطة يومين تبحث عن ذلك الأسد أو النمر، ذلك الحيوان – استخدموا المروحيات ولواءً لمكافحة الإرهاب، تتذكّرون؟ كلّف الأمر برمته نصف مليون لكنهم لم يعثروا عليه».

«ربما انتقل إلى هنا؟».

«الواضح أنه يستطيع القتل بضربة واحدة من مخالبه».

«إنه يعضّ الرؤوس فيفصلها عن الأجساد».

قلت: «التشوباكابرا».

ران صمت. حتى «ديكا الغاب» ثبّتا أنظارهما عليّ.

سألَت زمّارة، وقد بدا عليها الخوف: «ما هي التشوباكابرا؟».

«حيوان غامض لا يمكن اصطياده. وحش منتقم».

الآن صار الجميع يتكلّمون في وقت واحد. رأيت أن غريب الأطوار قد بدأ يتوتّر. كان يفرك يديه، وكأنه على وشك أن يفزع على قدميه ويخنق

أول شخص يقابله. الواضح أن الاجتماع صار على الحافّة ولم يعد بوسع أحد استعادة النظام الآن. شعرت بالذنب لإثارة موضوع التشوباكابرا، لكن ماذا يهم؟ أنا أيضًا كنت أشنّ حملة من نوع ما.

لا، لا، الناس في بلدنا لا يمتلكون القدرة على التكتل معًا لتشكيل مجتمع واحد، ليس حتى تحت لافتة فطر البورسيني. هذه جزيرة من الأنويِّين العُصابيين، كل منهم، فور أن يجد نفسه بين آخرين، يبدأ في التوجيه، النقد، الإهانة، بل واستعراض تفوّقه الحتمي.

أظن أن الأمر مختلف تمامًا في التشيك. الناس هناك أكثر قدرة على مناقشة الأمور بهدوء، ولا أحد يتشاجر مع أحد. وحتى إن أرادوا، لا يستطيعون، لأن لغتهم لا تصلح للشجار.

***

عدنا إلى البيت متأخرين، وفي مزاج عكر. لم ينطق غريب الأطوار بكلمة واحدة في رحلة العودة. أما أنا فقُدت الساموراي عبر طرق مختصرة، في مسارات مليئة بالحفر، واستمتعتُ كيفَ ظلّت ترمينا من باب إلى باب وهي تقفز فوق بركة بعد أخرى. تبادلنا الوداع بعبارة «إلى اللقاء» مقتضبة.

وقفتُ في المطبخ الخالي المظلم، وأحسست أنني على وشك السقوط فريسة للشيء نفسه كالعادة – البكاء. لذا فكرت أنه سيكون من الأفضل أن أتوقّف عن التفكير وأفعل شيئًا. وعليه، جلستُ إلى الطاولة وسطّرتُ الخطاب التالي:

إلى الشرطة

لمّا لم أتلق ردًّا على خطابي السابق، بالرغم من أن كل مكتب عمومي في البلاد ملزَم قانونًا بالرد في غضون أربعة عشر يومًا، أجد نفسي مضطرة إلى تكرار تفسيراتي المتعلّقة بالحوادث الأخيرة شديدة المأسوية في منطقتنا، وإبّان ذلك عرض ملاحظات معينة

تلقي الضوء على الميتة الغامضة لكل من المأمور ومُصراني، مالك مزرعة الثعالب.

بالرغم من كونها تبدو حادثة وقعت أثناء قيام رجل شرطة بإحدى المهمات الخطيرة، أو ربما مصادفة تعسة، يجد المرء نفسه مضطرًا إلى أن يسأل إن كانت الشرطة قد توصّلت إلى «ما كانت تفعله الضحية في ذلك الوقت في ذلك المكان؟». هل ظهرت أي دوافع، إذ يبدو الأمر بالنسبة للكثيرين، بمن فيهم الموقّعة أدناه، شديد الغرابة. علاوة على ذلك، كانت الموقّعة أدناه هناك في موقع الحادث، وعثرت (وهو الأمر الذي قد يكون ذا أهمية بالنسبة للشرطة) على عدد هائل من آثار أقدام الحيوانات، وبخاصة حوافر الغزلان. بدا كما لو أن المتوفّى قد استُدرج للخروج من سيارته واقتيد إلى الهشير، الذي كانت تختبئ تحته البئر القاتلة. احتمال كبير أن تكون الغزلان التي كان يعاملها بالظلم والاضطهاد قد ألحقت به عدالة ناجزة.

كذلك يبدو موقف الضحية التالية مشابهًا، ولو أنه لا سبيل لتأكيد وجود آثار الأقدام بعد مرور هذا الزمن الطويل. مع ذلك، فبالإمكان تفسير المسار الدرامي للحوادث من شكل المِيتة. هنا لدينا موقف يسهل تخيله، حيث استُدرجت الضحية إلى داخل الأجمة، إلى بقعة تُنصب فيها المصائد عادة. وهناك سقط في مصيدة وجُرِّد من حياته (أمّا كيف، فهذا أمر يجب أن يخضع للتحقيق).

في الوقت نفسه أودّ مناشدة السادة في الشرطة ألّا يتنصلوا من فكرة أن يكون مقترفو الجرائم المأسوية سالفة الذكر من

الحيوانات. لقد جهّزتُ بعض المعلومات التي تلقي قليلًا من الضوء على تلك المسائل، إذ مرّ وقت طويل منذ شهدنا حالات من الجرائم التي ترتكبها تلك المخلوقات.

لا بد أن أبدأ بالكتاب المقدس، الذي ينص صراحة على أنه إذا قتل ثورٌ امرأةً أو رجلًا، ينبغي أن يُرجم حتى الموت. سان برنارد نبذَ سربًا من النحل من الكنيسة، بعد أن منعه طنينها من العمل. وكان على النحل أيضًا أن يتحمّل سوء عاقبة موت رجل من مدينة فورمِس في العام 864. وقد حَكم عليهم البرلمان المحلي بالموت خنقًا. وفي العام 1394 في فرنسا قَتل بعض الخنازير طفلًا والتهموه. وقد حُكم على الخنزيرة الأم بالشنق، لكن أطفالها الستة أعفوا من العقاب، لصغر سنهم. وفي العام 1639 في فرنسا، أصدرت محكمة في ديجون حكمًا على حصان لأنه قتل رجلًا. ولم تقتصر الحالات على القتل العمد، بل شملت أيضًا الجرائم ضد الطبيعة. هكذا، في بازل في العام 1471 أقيمت دعوى قضائية ضد دجاجة، كانت تضع بيضًا ملوَّنًا بطريقة غريبة. وحُكم عليها بالموت حرقًا، لتآمرها مع الشيطان. وهنا ينبغي أن أضيف تعليقي الخاص، أن المحدودية الفكرية والقسوة البشرية لا تعرفان حدودًا.

أما أشهر المحاكمات قاطبةً فوقعت في فرنسا، في العام 1521. كانت محاكمة بعض الجرذان، بعد أن عاثوا في المدينة خرابًا. جرى استدعاؤهم إلى المحكمة عن طريق سكان المدينة وعُيِّن لهم محامٍ عمومي، محامٍ سريع البديهة اسمه بارتولوميو شاسّينيه. عندما لمّ يظهر موكّلوه في جلسة الاستماع الأولى، التمس شاسينيه التأجيل، مدعيًا أنهم يعيشون في شتات هائل، وفوق

ذلك تنتظرهم الكثير من الأخطار في الطريق إلى المحكمة. بل والتمس من المحكمة توفير ضمان بأن القطط التي يمتلكها المدّعون لن توقع أي أذى بالمدّعى عليهم وهم في طريقهم إلى جلسة الاستماع. لسوء الحظ، لم تستطع المحكمة توفير ضمان كهذا، لذا أجلت القضية عدة مرات. وفي النهاية، بعد خطبة عصماء من محاميهم، بُرِّئت ساحة الجرذان.

وفي العام 1659 في إيطاليا قام مُلّاك كروم العنب التي دمرتها البساريع بتسليمهم استدعاءً مكتوبًا للمثول أمام المحكمة. ثُبِّتت أوراقٌ كتب عليها الاستدعاء بمسامير في أشجار المنطقة، لإخطار البساريع بلائحة الاتهامات.

وإنني إذ أسرد تلك الحقائق التاريخية المعترَف بها، إنما أطالب بإيلاء اهتمام جاد لافتراضاتي وتخميناتي. إذ إنها تبيِّن أن تفكيرًا شبيهًا قد حدث في الاختصاص القضائي الأوروبي من قبل، الأمر الذي يمكن اعتباره سابقةً.

في الوقت نفسه ألتمس إخلاء سبيل الغزلان وغيرهم من الحيوانات المذنبة من دون عقاب، لأن فعلتهم المزعومة كان ردة فعل على سلوك الضحيتين القاسي الذي لا يعرف الرحمة، واللذين كانا، مثلما تحققتُ من ذلك بكل دقة، ممارسين نَشطين للصيد.

المخلصة،

دوشيكو

أول ما فعلتُه في الصباح أن قدت سيارتي إلى مكتب البريد. أردت إرسال الخطاب مسجَّلًا، لكي أحصل على دليل على إرساله. مع ذلك،

بدا لي كل ذلك عبثيًا، إذ يقع مركز الشرطة أمام مكتب البريد مباشرة، على الجانب الآخر من الشارع.

عندما خرجتُ، توقّفت سيارة تاكسي أمامي وأخرج طبيب الأسنان رأسه منها. عندما يشرب، كان يتنقّل في تاكسي، وعلى هذا النحو كان ينفق النقود التي يكسبها من خلع الأسنان.

ناداني: «هيه، سيدة دوشينكو». كان وجهه أحمر وفي عينيه نظرة غائمة.

«دوشيكو»، صوَّبتُ له.

«لقد اقترب يوم الثأر. أفواج الجحيم تضيّق الخناق»، صرخ، ولوّح لي من النافذة. ثم انطلق التاكسي مطلقًا صريرًا بإطاراته باتجاه كودوفا.

XIII

قوّاس الليل

ذلك الذي يعذّب روح الخنفساء
يحيك لنفسه عريشًا في ليلٍ ما له انتهاء.

قبل أسبوعين من احتفالية جامعي الفطر المقررة ذهبتُ لرؤية بشائر، وفي مؤخّرة المتجر جعلنا نفتش وسط أطنان من الملابس بحثًا عن أزياء تنكّرية. لسوء الحظ لم تكن الخيارات وافرة بين ملابس البالغين. معظم الملابس الجامحة كانت للأطفال، وفي هذا الصدد كان هناك الكثير مما يرسم الابتسامة -كان بوسع الأطفال أن يصيروا على أي هيئة أرادوا- ضفدع، زورو، باتمان، أو نِمر. غير أننا استطعنا العثور على قناع ذئب ممتاز. وهكذا قررتُ أن أكون ذئبًا؛ صنعنا بقية الزي بنفسَيْنا عن طريق تزويد زيٍّ من الفرو، مصنوعٍ من قطعة واحدة، بمخالب مصنوعةٍ من القفازات المحشوة. ناسَبَني الزي تمامًا. حين أضع القناع، كان بمقدوري النظر إلى العالم من داخل فكّي ذئبٍ.

لسوء الحظ، كان الأمر أصعب بالنسبة لغريب الأطوار. فشلنا في انتشال أي شيء يناسب تلك البنية الجسدية المهيبة. كل شيء كان صغيرًا عليه. لكن في النهاية خطرت لبشائر فكرة بسيطة إنما ألمعية. فإذا كان لدينا بالفعل ذئب... لا يتبقى إلا أن ينضم غريب الأطوار إلى الفكرة.

في مستهل يوم الحفل، بعد عاصفة ليلية، كنت أدرس الضرر الذي

سببه وابل الأمطار في نبتات البازلاء التجريبية في حديقتي عندما رأيت سيارة بستاني الغابة على الطريق ولوحتُ له لكي يتوقف. كان شابًا لطيفًا، وكان الاسم الخاص الذي أعطيته له هو «عين الذئب»، لأني كنت لأقسم بأغلظ الأيمان أن ثمة شيئًا غريبًا في حدقتيه - بدا شكلهما خارقًا للطبيعة، طولانيًا. كان هنا بسبب العاصفة أيضًا - كان يحصي أشجار التنّوب القديمة الكبيرة التي أصابها الضرر في المنطقة بأكملها.

«هل تعرف شيئًا عن **الكوكوجوس هيماتودس**؟»، سألته، منتقلةً من المجاملات الأولية إلى صُلب الموضوع.

أجاب: «نعم. نوعًا ما».

«وهل تعرف أنها تضع بيضها في جذوع الأشجار؟».

«نعم، لسوء الحظ»، رأيت أنه يبذل قصارى جهده للتنبؤ بالغاية التي يتجه إليها ذلك الاستجواب. «وفي أثناء ذلك، تُتلف خشبًا سليمًا وقيّمًا. لكن ما الذي تحاولين قوله؟».

عرضتُ عليه القضية باختصار. كرّرتُ له بالضبط تقريبًا ما أخبرني به بوروس. لكن من التعبير المرتسم على وجه عين الذئب رأيت أنه اعتبرني امرأة مجنونة. ضاقت عيناه في ابتسامة لطيفة سلطوية وتحدّث إليّ كما لو كنت طفلة.

«سيدة دوشينكو».

«دوشيكو»، صوّبتُ له.

«أنت امرأة طيبة القلب. تهتمين بكل شيء على نحو شخصي جدًا. لكنك بالتأكيد لا تتصورين أننا سنتوقف عن حصد الخشب بسبب بعض الخنافس؟ هل لديك أي مشروب بارد؟».

فجأة، استُنزفت كل طاقتي. لم يكن يأخذني على محمل الجد. لو كنتُ بوروس، أو المعطف الأسود، ربما كان سينصت إليّ، ويفكّر في حججه ويناقش معي المسألة. غير أني بالنسبة له كنت امرأة عجوزًا، طار

عقلها فجاءت تعيش في هذه البرية. كنت بلا فائدة ولا أهمية. لا أقول إني لم أعجبه. بل وشعرت بأنه مغرم بي إلى حدٍّ ما.

دخلتُ البيت متثاقلةً، ولحق بي. أخذ راحته في الشرفة وتجرّع نصف لتر من شراب الفاكهة المطبوخة. وبينما أشاهده يشرب، خطر لي أنني كان يمكن أن أخلط مستخلَص زنبقة الوادي في شرابه، أو أسحق بعض الحبوب المنوِّمة التي وصفها لي عَلِي وأضيفها إليه. وفور أن يسقط في النوم، بوسعي أن أحبسه في حجرة الغلّاية وأبقيه سجينًا لبعض الوقت على الخبز والماء. أو بالعكس - كان بوسعي أن أسمِّنه وأقيس سُمك إصبعه كل يوم لأرى إن كان وزنه قد صار مناسبًا للشواء بعد[1]. عندها كان سيتعلّم الاحترام.

«لم يعد في الطبيعة أي شيء طبيعي»، كذلك قال، وعندها رأيت بستاني الغابة هذا على حقيقته: مجرّد مسؤول آخر. «لقد فات الأوان. العمليات الطبيعية اضطربت، والآن علينا أن نُبقي كل شيء تحت السيطرة للتيقن من عدم وقوع كارثة».

«هل نحن مهددون بكارثة بسبب **خنفساء الكوكوجوس**؟».

«بالطبع لا. نحن نحتاج إلى الخشب للسلالم والأرضيات، للأثاث والورق. ماذا تتخيلين؟ هل تظنّين بأننا سنسير في أرجاء الغابة على أطراف أصابعنا لأن الكوكوجوس هيماتودِس تتكاثر هناك؟ علينا أن نطلق النار على الثعالب، وإلا سيزداد عددها كثيرًا وتصير خطرًا على الأنواع الأخرى. قبل بضعة أعوام كان هناك الكثير جدًا من الأرانب البرية حتى إنها دمّرت المحاصيل...».

«يمكننا أن ننثر موانع حمل لمنعها من التكاثر بدلًا من قتلها».

---

(1) إن كان وزنه قد صار مناسبًا للشواء: الإشارة إلى قصة «هانسل وغريتل»، وفيها يضيع الصبي هانسل وشقيقته غريتل في الغابة، ويجدان بيتا من الحلوى، تسكنه امرأة عجوز. تحرص العجوز، التي يتبين أنها ساحرة شريرة، على إطعام هانسل جيدا، لا لتعتني به، بل لكي يسمن وتستطيع أن تشويه وتأكله. (المترجم)

«هل تدركين كم يتكلّف ذلك؟ وهو ليس فعّالًا أيضًا. أحدها يأخذ كمية أقل من اللازم، والآخر كمية أكبر من اللازم. علينا أن نحافظ على نوع من النظام، بعد أن رأينا أن النظام الطبيعي لم يعد موجودًا».

«الثعالب...»، شرعت أقول، وفي ذهني «القنصل» النبيل، في رحلاته من وإلى التشيك.

«طيّب، تمامًا»، قاطعني. «هل تتخيلين أي مخاطر تمثّلها تلك الثعالب التي أُطلق سراحها من المزرعة، على سبيل المثال؟ لحسن الحظ أنهم نجحوا في الإمساك ببعضها ونقله إلى مزرعة أخرى».

«لا»، قلتها بآهة. وجدتها فكرة لا تُحتمل، غير أني سرعان ما عزّيت نفسي بكونهم قد عرفوا قليلًا من الحرية أخيرًا على الأقل.

«لم تكن مهيأة لحياة الحرية، يا سيدة دوشيكو. كانت ستهلك. لا تعرف كيف تصطاد، وأجهزتها الهضمية تغيرت، وعضلاتها صارت ضعيفة. أي فائدة تجنيها من فرائها الجميل في حياة الحرية؟».

رماني بنظرة، ورأيت أن الصبغة في قزحيته كانت موزَّعة على نحو غير متساوٍ على الإطلاق. كانت حدقتاه طبيعيتين تمامًا، مستديرتين، مثل حدقتَيك وحدقتيَّ.

«لا تزعجي نفسك إلى هذا الحد بتلك الأمور. لا تحملي العالم بأكمله على كتفيك. كل شيء سيكون على ما يرام»، قالها، وهو ينهض عن كرسيه. «طيّب، سأنطلق إلى العمل. سنُسقِط أشجار التنوب هذه. هل تريدين شراء بعض الخشب لأجل الشتاء؟ ستكون صفقة رابحة».

رفضتُ. فور مغادرته، شعرتُ بثقل جسدي حادًّا قويًا، ولم تعد لديَّ رغبة إطلاقًا في الذهاب إلى أي حفل، ناهيك عن حفلة جامعي الفطر الراقصة المملّة. الناس الذين يضيّعون اليوم بطوله وهم يتسكعون في أرجاء الغابة بحثًا عن الفطر لا بد وأن يكونوا مملّين إلى حد قاتل.

***

شعرت بسخونة وانزعاج داخل زيِّي؛ وصار ذيلي يجرجِر على الأرض حتى وجبَ عليّ الانتباه لكي لا أدوس عليه. قُدت الساموراي إلى منزل غريب الأطوار، واستمتعتُ بالنظر إلى زهور الفاونيا في حديقته أثناء انتظاري. سرعان ما ظهر بباب البيت. انعقد لساني من الدهشة. كان ينتعل حذاءً أسود برباط، ويلبس جوربًا طويلًا أبيض، وفستانًا حلوًا عليه زهور، وفوقه مريلة صغيرة. على رأسه، مربوطة أسفل ذقنه ربطة الفراشة، كانت قلنسوة حمراء صغيرة.

كان في مزاج سيئ. جلس في المقعد الأمامي ولم يتفوّه بكلمة واحدة طوال الطريق إلى مركز الإطفاء. أمسك بغطاء رأسه الأحمر على ركبتيه ولم يعتمره من جديد إلا عند توقّفنا أمام المركز.

قال: «كما ترين، لا أمتلك أي قدر من حسّ الدعابة».

كان الجميع قد جاءوا مباشرة من قدّاس خاص بجامعي الفطر، وكانت الأنخاب قد بدأت للتو. كان الرئيس يشارك بحماسة في تلك الأنخاب، واثقًا تمام الثقة في مظهره الرائع كونه قد جاء، ببساطة، في بدلة، ومن ثم كان متنكّرًا في هيئته ذاتها. معظم رواد الحفل كانوا لا يزالون يغيِّرون ملابسهم في الحمّام؛ لم يجرؤوا على الذهاب إلى الكنيسة بأزيائهم التنكّرية. غير أن الكاهن، الأب شَنشَن، كان هنا أيضًا. ببشرته السقيمة، وردائه الكهنوتي الأسود بدا هو أيضًا وكأنه متنكر في هيئة كاهن. غنّت «عُصبة ربّات بيوت القرية»، اللاتي دُعين كضيوف، بعضًا من الأغاني الفولكلورية، ثم جاء دور الفرقة الموسيقية، المؤلَّفة من رجل واحد يلعب بمهارة على جهاز مزوَّد بلوحة مفاتيح، استطاع من خلاله محاكاة كل المقطوعات الرائجة على نحو جيّد بحق.

هكذا كان الحال. كانت الموسيقى صاخبة ومقتحِمة. كان من الصعب الحديث بصوت مسموع وأنغامها تتردّد، وهكذا شرع الجميع ينشغلون بالسَّلَطات، ويَخنة الصيادين وشرائح اللحم البارد. كانت هناك

زجاجات من الفودكا في سلال مزيَّنة بالكروشيه صُنعت لمحاكاة أنواع مختلفة من الفطر. بعد تناول بعض الطعام وعدة كؤوس من الفودكا، نهض الأب شَنشَن عن الطاولة ورَشم الصليب على نفسه. عندها فقط بدأ الناس في الرقص، وكأن حضور الكاهن جعلهم يشعرون بالارتباك إلى الآن. ارتدّت الأصوات عن سقف مركز المطافئ القديم العالي، ثم سقطت تدقّ على الراقصين.

بالقرب مني جلست امرأة صغيرة رشيقة في بلوزة بيضاء، ظهرها مفرود ومشدودة. ذكّرتني بماريسيا، كلبة غريب الأطوار - كانت متوترة ومرتعشة بالقدر نفسه. في وقت سابق رأيتها تتّجه إلى الرئيس الذي شَعشَعَ رأسُه وتتكلّم معه لبرهة. انحنى عليها، ثم علا وجهه العبوس، بعد أن فقد صبره. جذبها من ذراعها ولا بد أنه قبض عليها بقوة، لأنها أجفلت. ثم لوّح بإحدى يديه، وكأنه يطرد حشرة مزعجة، واختفى بين أزواج الراقصين. هكذا، خمَّنتُ أنها لا بد زوجته. عادت إلى الطاولة وراحت تعبث بشوكتها في اليخنة. ولما كان غريب الأطوار يصادف نجاحًا هائلًا في هيئة «ذات الرداء الأحمر»، توجّهتُ إليها وقدّمتُ لها نفسي. «أوه، أنتِ»، قالتها، وظهر على وجهها الحزين ظل ابتسامة. حاولنا إدارة حوار، غير أن صخب الموسيقى كان قد تضاعف الآن بفعل دويّ خطوات الرقص على الأرضية الخشبية. دوم، دوم، دوم. لكي أفهم ما تقول كنت مضطرة إلى التحديق بانتباه في شفتيها. فهمتُ أنها كانت متلهّفة على أن تسحب زوجها لتعيده إلى البيت بأسرع ما يمكن. كان الجميع يعرفون أن الرئيس شديد المهارة في أمور العربدة، ولديه طابع جامح، سلافيٌّ نموذجيّ، يجعله خطرًا على نفسه وعلى الآخرين. بعدها يصير من الضروري إيقاف تصرفاته الهزلية. تبيّن أني أدرّس الإنكليزية لابنتهما الصغرى، ما جعل الحوار أسهل، خاصة وأن الابنة كانت تعتبرني «cool». كان إطراءً لطيفًا للغاية.

«هل صحيح أنك أنتِ من عثر على جثة المأمور؟»، سألتني المرأة، وهي تحاول تحديد موقع هيئة زوجها الطويل.

أكّدتُ أني مَن عثر على الجثة.

«ولم تخافي؟».

«بالطبع خفت».

«هل تعرفين، كل هذه الأشياء التي حدثت لأصدقاء زوجي. كان مرتبطًا بهم بقوة. أظنه خائف أيضًا، ولو أني لست واثقة تمامًا أي أعمال كانت بينهم. شيء واحد فقط يزعجني...». تردَّدَت، ثم لزمَت الصمت. نظرتُ إليها، في انتظار نهاية الجملة، لكنها اكتفت بهزّ رأسها ورأيت دموعًا في عينيها.

ازدادت الموسيقى سرعة وصخبًا، إذ كانوا يعزفون الآن «هلمّوا أيها الصقور». قفز كل من لم يرقص بعدُ على أقدامهم وكأنهم لُسعوا بالنار واتجهوا إلى ساحة الرقص. لم يكن مجديًا أن أرفع صوتي فوق الفرقة الموسيقية المؤلَّفة من رجل واحد.

عندما ظهر زوجها في مجال الرؤية لبرهة بصحبة غجرية جذّابة، شدَّت مِخلبي وقالت: «هيا نخرج لنشرب سيجارة».

طريقتها في الكلام أوحت بأنه لا يعنيها إن كنت أدخن أم لا. لذا لم أعترض، ولو أني كنت قد توقّفت عن التدخين قبل عقد من الزمن.

ونحن نشقّ طريقنا وسط الحشد الذي صار الآن في حالة هذيان، احتكّوا بنا وجعلوا يدعوننا إلى الرقص باندفاع. كان الحفل الراقص البهيج لجامعي الفطر قد تحوّل إلى عربدة كاملة. ووجدنا بعض الراحة في الوقوف بالخارج، في بِركة الضوء المنساب من نوافذ مركز الإطفاء. كانت أمسية رطبة من أمسيات يونيو، فوّاحة بعطر الياسمين. كان المطر الدافئ قد توقّف عن الهطول، لكن السماء لم تصفُ على الإطلاق. بدا وكأنها تستعد لأن تصب أمطارها من جديد. تذكّرتُ أمسيات مثل هذه

من الطفولة، وفجأة شعرتُ بالحزن. لم أعِد واثقة من كوني أرغب في مواصلة الحديث مع هذه المرأة المشوَّشة القلقة.

أشعلَت سيجارة بعصبية، وسحبَت نفسًا عميقًا وقالت: «لا أستطيع التفكير في الأمر. جُثث. تعرفين ماذا، كلما رجع إلى البيت من الصيد يُلقي رُبع غزال على طاولة المطبخ. عادة يقسمونه إلى أربعة أجزاء. ينسكب الدم الداكن على مفرش الطاولة. ثم يقطّعه إلى قِطَع ويضعها في المجمِّد. كلما مررتُ بالبرّاد أفكر أن هناك جسدًا ذبيحًا في الداخل». سحبَت نفسًا عميقًا آخر من سيجارتها. «أو يُعلِّق أرانب برية ميتة في الشرفة في الشتاء لتتشرّب تتبيلتها، وتظل مدلّاة هناك وعيونها مفتوحة، ودمٌ متخثّرٌ على أنوفها. أعرف، أعرف أنني عُصابية ومفرطة الحساسية، وينبغي أن أعالج».

ألقَت عليّ نظرةً بأمل مفاجئ، وكأنها تتوقّع مني أن أعارضها، غير أني في تلك الأثناء كنت أقول لنفسي إن العالم لا يزال فيه أناس طبيعيون. لكن الوقت لم يسعني للرد قبل أن تتكلّم ثانية.

«أتذكّر عندما كنت صغيرة، كانوا يحكون لي قصة ‹قوّاس الليل›. هل تعرفينها؟».

هززت رأسي نفيًا.

«إنها من هذه النواحي، أسطورة محلية، يقولون إنها ترجع إلى زمن الألمان. تحكي عن قوّاس الليل، الذي كان يجوس بعد الظلام، يصطاد الأشرار. كان يطير على ظهر لَقْلَق أسود، برفقة كلاب. الجميع كانوا يخافون منه، وفي الليل يوصدون أبوابهم ويغلقونها بالمزاليج. ذات يوم وقف صبي من هذه النواحي، أو ربما من نوفا رودا، أو من كودزكو، وصرخ داخل المدفأة، على أمل أن يقوم قوّاس الليل بصيدٍ لحسابه. بعد بضعة أيام سقط رُبع جسد بشري من المدفأة داخل منزل الصبي وأسرته، ثم حدث الشيء نفسه ثلاث مرات أخرى، إلى أن صاروا قادرين على

جمع الجسد بأكمله معًا ودفنه. لم يظهر القوّاس ثانية أبدًا، وتحوّلت كلابه إلى طحالب».

فجأة، أبحرَت ريح باردة من جهة الغابة، فجعلتني أرتعد. صورة الكلاب وهي تتحوّل إلى طحالب رفضَت الاختفاء من أمام ناظريّ. طرفتُ بعينيّ.

«إنها قصة غريبة، مثل حلم سيئ، أليس كذلك؟». أشعلَت سيجارة أخرى، والآن رأيت أن يديها ترتعشان.

حاولت التفكير في طريقة لتهدئتها، لكني لم أعرف ماذا أفعل. لم يسبق لي قط رؤية شخص على حافة انهيار عصبي من قبل. وضعتُ مِخلبًا على ساعِدها وربّتُّ عليه بلطف. قلت: «أنتِ شخص طيّب».

حدَّقَت بعينَيّ ماريسيا، وفجأة شرعَت في البكاء. صارت تبكي برقّة شديدة، مثل فتاة صغيرة، باستثناء أن كتفيها كانا يرتجفان. استمر الأمر وقتًا طويلًا؛ الواضح أنها كان لديها الكثير والكثير لتبكي عليه. وكان عليّ أن ألعب دور الشاهدة، أقف إلى جوارها وأشاهد. بدا أن ذلك كل ما تنتظره مني. وضعتُ ذراعي حولها، ووقفنا على هذا النحو معًا - ذئب مزيَّف وامرأة صغيرة وسط بِركة من الضوء من نافذة مركز الإطفاء. وراحت ظلال الراقصين تتراقص علينا.

قالت، بنبرة تدعو إلى الرثاء: «أنا عائدة إلى البيت. لقد أُنهكت تمامًا».

تعالت من الداخل أصوات دقّ الأقدام. كانوا يرقصون على نسخة الديسكو من «هلمّوا أيها الصقور» مجدّدًا - لا بد وأنها أكثر شعبية من أي أغنية أخرى، ومرّة بعد مرة سمعناهم يصرخون: «هلمّوا! هلمّوا!». مثل قذائف تنفجر.

قلت، بعد وقفة للتفكير: «اذهبي، يا عزيزتي». وجدتُ عزاء في الحديث معها بهذه الطريقة الشخصية والمباشرة. «سأنتظر زوجك

وأوصله إلى البيت. أنا مستعدة تمامًا لذلك. عليّ أن أنتظر جاري بأي حال. أين تعيشون بالضبط؟».

ذكرَت لي أحد هذه المنعطفات وراء «ناصية قلب الثور». كنت أعرف المكان.

قلت: «لا تقلقي من أي شيء. خذي حمّامًا واحصلي على قسط من الراحة».

أخرجَت مفاتيح السيارة من حقيبة يدها وتردَّدَت. «أحيانًا أفكر، يمكن أن تعيشي مع شخص ما لسنوات طويلة ولا تعرفينه قط»، قالتها، وهي تنظر في عينيّ بهلع جعلني أتصلّب. أدركتُ ما يدور في ذهنها.

قلت: «لا، ليس هو. بكل تأكيد ليس هو. أنا واثقة من ذلك».

الآن نظرَت إليّ متسائلةً. لم أكن واثقة إن كان ينبغي عليَّ أن أقول لها ذلك أصلًا.

«كانت عندي كلبتان. كانتا حريصتين على أن يُقسَّم كل شيء بينهما بالعدل - الطعام، التدليل، الامتيازات. الحيوانات لديها إحساس قوي بالعدالة. أتذكّر النظرة في عيونهما كلما ارتكبتُ خطأً، كلما وبّختهما على نحو ظالم أو لم ألتزم بكلمتي. كانتا تحدّقان فيّ بذلك الحزن الرهيب، وكأنهما لا تفهمان ببساطة كيف أمكنني انتهاك القانون المقدّس. تعلّمتُ منهما العدالة في صورتها الأساسية، الواضحة، البسيطة». توقّفتُ عن الكلام للحظة، ثم أضفتُ: «لدينا نظرة للعالم، لكن الحيوانات لديها إحساس بالعالم، هل تفهمين؟».

أشعلَت سيجارة أخرى. «وماذا حدث لهما؟».

«ماتتا». سحبتُ قناع الذئب لأُحكمه أكثر على وجهي. «كانت لديهما ألعابهما التي تشمل ممارسة الحيَل، كلٌّ على الأخرى، على سبيل المرح. إذا عثرَت إحداهما على عَظمة منسيّة منذ وقت طويل، ولم تعرف الأخرى كيف تأخذها منها، تتظاهر بأن سيارة قادمة على الطريق فيكون

عليهما أن تنبحا عليها. عندها تُسقِط الأولى العَظْمة من فمها وتهرع إلى الطريق، غير مدركة أنه إنذار كاذب».

«حقًّا؟ مثل البشر؟».

«كانتا أكثر إنسانية من البشر من كل ناحية. أكثر حنانًا، أكثر حكمة، أكثر مرحًا... والبشر يظنون أن بوسعهم فعل ما يريدون بالحيوانات، وكأنهم مجرّد أشياء. أعتقد أن الصيادين أطلقا عليهما النار».

سألتني ملتاعة: «لا - لماذا بالله عليك يفعلون ذلك؟».

«يقولون إنهم يقتلون فقط الكلاب البرّية التي تمثّل تهديدًا لبقية الحيوانات البرّية، لكن ذلك ليس صحيحًا. إنهم يطوفون بالبيوت نفسها».

أردتُ إخبارها بانتقام الحيوانات، لكني تذكّرتُ تحذيرات ديزي بألّا أحدّث أحدًا عن نظرياتي. الآن كنا نقف في الظلام فلا تتبين أيٌّ منا وجه الأخرى.

قالت: «هذا هراء. لن أصدق أبدًا أنه أطلق النار على كلبة».

«هل هناك فارق كبير حقًّا بين الأرنب البري، والكلب، والخنزير؟»، سألتها، لكنها لم تجب.

دخلَت سيارتها وسارعت بالانطلاق بعيدًا. كانت سيارة جيب شيروكي كبيرة فارهة. تعرّفتُ عليها. تساءلتُ كيف يمكن لامرأة صغيرة هشّة أن تتأقلم مع عربة كبيرة على هذا النحو، وعُدت إلى الداخل، لأنها بدأت تمطر مجددًا.

كان غريب الأطوار، وقد تورَّد خدّاه على نحو هزلي، يراقص امرأة متينة في زي فولكلوري من كراكوف، وبدا شديد السعادة. راقبته. كان يتحرّك برشاقة، من دون مبالغة، يقود شريكته بثبات. وأظنه رآني أنظر إليه، لأنه فجأة أدارها حول نفسها بثقة ومهارة. غير أن الواضح أنه نسي

ماذا يرتدي، وكان منظرًا غريبًا - امرأتان ترقصان، واحدة ضخمة، والأخرى ضئيلة.

بعد هذه الرقصة أُعلنت نتائج التصويت على أفضل زيّ. كان الفائزين زوجٌ وزوجته من ترانسلفانيا، تنكّرا في هيئة باقتين من الفطور السامة. وكانت الجائزة دليلًا ميدانيًا للفطور. وحصلنا نحن على المركز الثاني، وكانت جائزتنا كعكة على شكل الفطر. كان علينا أن نرقص معًا أمام الجميع في هيئة ذات الرداء الأحمر والذئب، بعدها نسيَنا الجميعُ تمامًا. عندها فقط تناولتُ كأسًا من الفودكا، واجتاحتني رغبة قوية في المرح - نعم، حتى إني سعدتُ كونهم عزفوا «هلمّوا أيها الصقور» من جديد. غير أن غريب الأطوار أراد العودة إلى البيت الآن. كان قلقًا على ماريسيا، التي لم يسبق أن تركها لهذا الوقت الطويل من قبل؛ خاصة وأنها مصابة بـ«تروما» من خبرتها في سقيفة القدم الكبيرة. أخبرته أنني ملتزمة بتوصيل الرئيس إلى بيته. معظم الرجال كانوا سينتظرون لمرافقتي في هذه المهمة العصيبة، لكن ليس غريب الأطوار. وجدَ شخصًا آخر أراد مغادرة الحفل مبكرًا، الغجرية الجذّابة، في ما أظن، واختفى بطريقة لا تناسب «جنتلمان». آه، طيّب، لقد اعتدت على إنجاز المهمات الصعبة بمفردي.

***

في الفجر، رأيت ذلك الحلم مجدّدًا. نزلت إلى حجرة الغلّاية وهناك كانتا - أمي وجدّتي. كل منهما ترتدي فستانًا صيفيًا مطبوع عليه أزهار، وكل منهما تحمل حقيبة يد، وكأنهما خرجتا إلى الكنيسة ثم ضلّتا طريقهما. تجنّبتا نظراتي عندما بدأت أوبّخهما.

سألتُ بغضب: «ماذا تفعلين هنا يا ماما؟ كيف يكون هذا ممكنًا؟».

كانتا تقفان بين كومة من الأخشاب والغلّاية، متأنقتين على نحو عبثي، ولو أن النقوش على فستانيهما بدت شاحبة وكأنها بهتت من الغسل.

«اخرجا من هنا!»، صحتُ فيهما، غير أن صوتي علق فجأة في حلقي. كنت أسمع صوت حركة أقدام وهمسات ترتفع قادمة من الكراج.

استدرتُ في ذلك الاتجاه ورأيتُ الكثير من الناس هناك: رجال، ونساء وأطفال، في ملابس احتفالية على نحو غريب كانت قد بهتت وارمدّ لونها. كانت في عيونهم نظرات قلقة، فزعة، وكأنهم لا يعرفون ماذا يفعلون هنا. كانوا يتدفّقون من مكان ما في سِرب، يتزاحمون في مدخل الباب، غير واثقين إن كان بإمكانهم الدخول. كانوا يتهامسون لبعضهم البعض بكلام غير مترابط، ويحرّكون نعال أحذيتهم على الأرضية الحجرية في حجرة الغلّاية والكراج. ظل الحشد ينضغط من الوراء، ويَدفع الصفوف الأمامية إلى الأمام. وتملّكني رعبٌ هائل.

تحسّستُ مقبض الباب ورائي وانسللتُ من هناك بأقصى سرعة، باذلةً قصارى جهدي كيلا أجذب الانتباه. ثم، ويداي ترتعشان من الخوف، قضيتُ وقتًا طويلًا في إغلاق باب حجرة الغلّاية بالمزلاج.

***

عندما استيقظت، كان القلق الناجم عن هذا الحلم لا يزال شديدًا. لم أعرف ماذا أفعل بنفسي، وفكّرت أنّ أفضل ما أفعله هو أن أذهب لزيارة غريب الأطوار. لم تكن الشمس قد صعدت بالكامل بعد، ولم أكن قد حظيت بالكثير من النوم. كانت شبّورة رقيقة تطفو فوق كل شيء، توشك أن تتحوّل إلى قطرات ندى.

فتح غريب الأطوار الباب، وقد بدا عليه النعاس. لا بد أنه لم يغتسل جيدًا: كانت البقع الحمراء التي صنعتُها له في اليوم السابق بأحمر الشفاه لا تزال على خديه.

سأل: «ما الخطب؟».

لم أعرف ماذا أقول.

غمغم: «أدخلي. إذًا، كيف سارت الأمور؟».

«على ما يرام. على خير ما يرام»، أجبته باقتضاب، إذ كنت أعرف أن غريب الأطوار يحب الأسئلة المقتضبة والإجابات المقتضبة.

جلستُ، وشرع هو في إعداد القهوة. أولًا قضى وقتًا طويلًا في تنظيف الماكينة، ثم صبّ الماء من إبريق قياس، ولاحظتُ أنه لم يتوقّف عن الكلام. كان غريبًا جدًّا أن أراه مفعمًا بالحيوية على هذا النحو. شفيتوبلك، الذي يتكلم ويتكلم.

قلت: «لطالما أردتُ معرفة ما تحفظه في ذلك الدُّرج».

«تفضّلي»، قالها، وهو يفتح ليريني. «على الرحب والسعة - لا شيء إلا أغراض أساسية».

«تمامًا مثل التي في الساموراي».

انزلق الدرج بصمت وفُتح بشَدَّة رقيقة من إصبعه. في خانات رمادية أنيقة استوت بعض من أدوات المطبخ المنظمة بعناية شديدة. مِرقاق لفَرد العجين، مضرب للبيض، خفّاقة حليب صغيرة تعمل بالبطارية، وملعقة آيس كريم. وأيضًا بعض الأدوات التي لم يمكنِّي تمييزها - بعض الملاعق الطويلة، والمغارف، وخطاطيف غريبة. بدت جميعًا مثل أدوات جراحية لعمليات معقّدة. كان واضحًا أن مالكها يعتني بها عناية فائقة - كانت مجلوّة وموضوعة في أماكنها الدقيقة.

«ما هذا؟»، سألته وأنا ألتقط كلّابة معدنية عريضة.

«هذا ملقاط لإزالة ورق البلاستيك عندما يلتصق ببكرته»، قالها، وصبّ القهوة في فنجانين.

ثم مدّ يده وتناول مضربًا صغيرًا، واستخدمه لخفق الحليب إلى رغوة ثلجية وصبّه على القهوة. من الدُّرج أخرج طقمًا من قوالب التزيين، وعبوة صغيرة من مسحوق الكاكاو. لبرهة تردد أي شكل يختار، وأخيرًا انتقى شكل قلب صغير. ثم رشّ مسحوق الكاكاو عليها، فإذا بقلب بنِّي من الكاكاو يظهر فوق الرغوة الثلجية على قهوتي. ابتسم ابتسامة واسعة.

لاحقًا، ذلك اليوم، فكّرتُ في دُرجه ثانية، وكيف غمرني اختلاس النظر إلى داخله بالهدوء، وكيف أني أود حقًا لو كنت واحدة من تلك الأدوات المفيدة.

بحلول يوم الاثنين عرف الجميع أن الرئيس قد مات. النساء اللاتي جئن لتنظيف مركز الإطفاء عثرن عليه مساء الأحد. ويبدو أن إحداهن أصيبت بصدمة وانتهى بها الأمر في المستشفى.

***

إلى الشرطة

أدرك أن الشرطة، لسبب وجيه ما، ليست في وضع يمكّنها من الرد على خطابات الجمهور (وليس فقط الخطابات المجهّلة). من دون الدخول في تلك الأسباب، سأسمح لنفسي بإحالتكم مرة أخرى إلى الموضوع الذي أثرتُه في خطابي السابق. غير أني أتمنى ألّا تقابله الأجهزة الشرطية أو غيرها بالتجاهل. الهيئات العامة عندما تتجاهل المواطن تنفي وجوده بشكل أو آخر. مع ذلك ينبغي ألّا ننسى أن من لا يملك حقوقًا لا يُلزم بأي واجبات.

يسرني إخباركم أنني استطعت الحصول على تاريخ ميلاد المرحوم السيد مُصراني ورسمَ **طالعه** (من دون توقيت الميلاد، لسوء الحظ، ما يجعل الخريطة السماوية أقل دقة)، وقد عثرت فيه على حقيقة شديدة الإثارة، تؤكّد بما لا يدع مجالًا للشك الفرضيات التي عرضتها عليكم من قبل.

وبناء عليه، يظهر أن الضحية، في لحظة موته، كان لديه كوكب المريخ في مرور عابر ببرج العذراء، وهو الأمر الذي يحمل، وفقًا لأفضل مبادئ علم الفلك التقليدي، الكثير من التناظرات مع الحيوانات ذات الفراء. في الوقت نفسه فإن وجود شمسه

في برج الحوت ينوِّه بأضعف أجزاء الجسد، مثل الكاحلين. إذًا يبدو وأن طالع السيد مُصراني الجِذري تنبأ بموته بكل دقة. وعلى ذلك، إذا أوْلَت الشرطة انتباهها لاكتشافات الفلكيين، يمكن إنقاذ العديدين من بلاء قد يصيبهم. إن تشكيل الكواكب يخبرنا بوضوح أن مقترفي جريمة القتل الوحشية تلك كانوا من الحيوانات ذات الفراء، الأرجح من الثعالب، إما البرية أو الهاربة من المزرعة (أو بالتواطؤ بينهما)، التي استطاعت على نحو ما سَوْق الضحية إلى داخل المصائد التي ظل الصيادون ينصبونها هناك لسنوات. لقد علقَ بشرك من نوع بالغ القسوة، يعرف باسم «المشنقة»، وظل متدليًا في الهواء لبعض الوقت.

يقودنا هذا الاكتشاف مباشرة إلى استنتاج عمومي. يتعيّن على الشرطة التحقّق من الموقع الدقيق لزُحَل بالنسبة لكل من الضحايا. ومن ثم سوف تكتشف أن زحل، لدى كل منهم، كان في برج حيواني؛ علاوة على ذلك كان زحل لدى الرئيس في برج الثور، الأمر الذي ينذر بميتة عنيفة خنقًا يسببها حيوان...

تجدون طيّه قصاصةً صحافية حول الإبلاغ عن رؤية حيوان لم يتم التعرف عليه بعد، شوهد في منطقة أوبوله، يقال إنه يقتل غيره من الحيوانات بضربة من مِخلبه في الصدر. مؤخّرًا، شاهدتُ في التلفاز مقطع فيديو مسجلًا على هاتف محمول، يُرى فيه بوضوح نمرٌ شاب. كل ذلك كان يحدث في منطقة أوبوله، أي ليس بعيدًا عنا. ربما كانت حيوانات هربت من حديقة حيوان، واستطاعت الصمود أمام الفيضانات ثم صارت الآن حرة طليقة؟ على أي حال الأمر يستحق التحقيق، خاصة وأن السكان المحليين، مثلما لاحظتُ، ينجرفون تدريجيًّا إلى خوف مرضي، إن لم يكن هلعًا.

وإذ كنت أكتب هذا الخطاب، قرع أحدهم بابي على استحياء. كانت الكاتبة، السيدة الرمادية.

قالت من على عتبة الباب: «سيدة دوشيكو. ما الذي يجري هنا؟ هل سمعتِ؟».

«أرجوك لا تقفي بالباب، الهواء شديد. تفضلي بالدخول». كانت ترتدي قميصًا مطرّزًا، يكاد يلمس الأرض. دخلَت، في خطوات صغيرة للغاية، وجلسَت على حافة أحد الكراسي.

سألَت بنبرة درامية: «إذًا، ماذا سيحدث لنا؟».

«هل أنتِ خائفة من أن تقتلنا الحيوانات نحن أيضًا؟».

اقشعرَّت. «لا أؤمن بنظريتك. إنها عبث».

«ظننت أنك، بوصفك كاتبة، تمتلكين خيالًا ومقدرة على الاستشراف، ولستِ منغلقة أمام الأفكار التي تبدو غير محتملة لأول وهلة. ينبغي أن تعرفي أن كل ما يمكن تصديقه هو صورة من صور الحقيقة»، هكذا اختتمتُ كلامي، مستشهدةً ببليك، ما بدا وأنه ترك فيها انطباعًا طيبًا.

«ما كنت لأكتب سطرًا واحدًا لو لم تكن قدماي راسختين على الأرض يا سيدة دوشيكو»، قالتها بنبرة مسؤول حكومي، ثم أضافت في نبرة أرَقّ: «لا أستطيع تخيل الأمر. هلا أخبرتِني من فضلك – هل اختنق فعلًا بالخنافس؟».

شرعتُ في إعداد الشاي. شاي أسود. دعها تعرف الشاي على حقيقته.

قلت: «هذا صحيح. كان مغطًّى بهذه الحشرات، كانت قد دخلت في فمه، في رئتيه، في معدته، في أذنيه. المرأة قالت إنه كان محشوًّا بالخنافس. لم أرَ بنفسي، لكنني أستطيع أن أتخيل جيدًا. كوكوجوس هيمانودس في كل مكان».

حدجتني بنظرة ثاقبة. لم أستطع تفسير تلك النظرة.

ثم قدّمتُ الشاي.

XIV

السقوط

الداهيةُ في طرح الأسئلة، الأرِيب
إن سُئل لن يعرف كيف يجيب.

في الصباح الباكر جاؤوا من أجلي، وقالوا إني يجب أن أدلي بإفادة. قلت إني سأبذل قصارى جهدي لكي أمرّ عليهم هذا الأسبوع.

«أنت لا تفهمين»، كذلك أجاب شرطي شاب، ذلك الذي كان يعمل مع المأمور. منذ موته رُقّي وكان الآن مسؤولًا عن مركز الشرطة في البلدة. «ستأتين معنا الآن، إلى كودزكو».

عندما سمعت نبرة صوته، لم أعترض. اكتفيتُ بإيصاد المنزل وأخذت معي فرشاة أسناني وحبوبي، تحسّبًا. آخر ما كنت أحتاج إليه أن أصاب بنوبة وأسقط مريضة هناك.

لمّا كان المطر لم ينقطع منذ أسبوعين، ولمّا كنا نشهد فيضانًا، مضينا على الطريق الطويل الملتفّ، على الأسفلت، الطريق الأسلم. وأثناء نزولنا من الهضبة إلى الوادي، رأيت قطيعًا من الغزلان؛ كانوا واقفين بلا حراك، يحدقون من دون خوف في سيارة الشرطة. مبتهجةً، أدركت أنني لا أعرفهم – لا بد أنه قطيع جديد عبَرَ الحدود من التشيك ليرعى في مرعانا الجبلي الأخضر الخلاب. لم يعبأ الشرطيان بالغزلان. لم يتحدثا إليّ، ولا تبادلا الحديث.

قدموا لي قدحًا من القهوة سريعة التحضير مع مسحوق الكريمة، وبدأت المقابلة.

«كنت ستوصلين الرئيس إلى بيته؟ صحيح؟ من فضلك خبّرينا بالتفاصيل، لحظة بلحظة - ماذا رأيتِ بالضبط؟».

والكثير من الأسئلة من هذا النوع.

لم يكن لدي الكثير لأحكيه، غير أني بذلت ما في وسعي لتحرّي الدقة في كل تفصيلة. قلت إني كنت قد قررت انتظار الرئيس في الخارج لأن الداخل كان صاخبًا. لم يعد أحد يعبأ بالمنطقة العازلة، وصار الجميع يدخِّنون في الداخل، ما كان له تأثير شديد السوء عليّ. لذا جلست على الدَّرَج وأخذت أنظر للسماء.

بعد المطر كانت الشِّعرى اليمانية قد ظهرت، وكان عمود المحراث[1] قد ارتفع... تساءلتُ إن كانت النجوم تستطيع رؤيتنا. وإن كانت تستطيع، فماذا قد تظنّ فينا؟ هل تعرف حقًّا مستقبلنا؟ هل تشعر بالأسف لأجلنا؟ لأننا عالقون في الزمن الحاضر، بلا فرصة للتحرك؟ لكن خطر ببالي أيضًا أننا، بالرغم من كل شيء، بالرغم من هشاشتنا وجهلنا، نتمتع بميزةٍ لا تصدَّق على النجوم - أن الزمن يعمل لأجلنا نحن، ما يمنحنا فرصة كبيرة لتحويل العالم المعذَّب المكابِد إلى عالم سعيد ومطمئِن. النجوم هي الحبيسة داخل قوّتها ذاتها، ولا تستطيع أن تساعدنا. إنها فقط تصمِّم الشبكات، وعلى الأنوال الكونية تَنسج خيط السُّداة الذي ينبغي علينا أن نُتمِّمه نحن بخيط لُحمة من جانبنا. ثم خطرت لي فرضية غريبة -ربما

---

(1) عمود المحراث: الإشارة إلى النجوم المكونة للجزء المستقيم من مجموعة الدب الأكبر النجمية، حيث تُشبَّه هذه المجموعة في بعض بلدان أوروبا الشرقية بالعربة التي تجرها الخيل، أو بالمحراث، كما تشير المؤلفة، وبذلك يكون عمود المحراث المقصود (المحور الخشبي الذي يُربط إلى دابة الحرث)، هو ذلك الجزء من مجموعة الدب الأكبر. (المترجم)

ترانا النجوم مثلما نرى كلابنا، على سبيل المثال- فلأننا نمتلك وعيًا أقوى من وعيهم، نعرف مصلحتهم أفضل منهم عند لحظات بعينها في الزمن؛ نتزِّههم وفي أعناقهم الأزمّة كيلا يضيعوا، نعقِّمهم كيلا يتناسلوا بلا حساب، نأخذهم إلى الطبيب البيطري للعلاج. لا يفهمون من أين يأتي هذا، لماذا يحدث، لأي غرض. مع ذلك ينصاعون لنا. إذًا ربما علينا الانصياع نحن أيضًا إلى سلطان النجوم، لكن في هذه الأثناء ينبغي أن نستنهض حساسيتنا البشرية. هذا ما كنت أتفكّر فيه وأنا جالسة على تلك الدرجات في الظلام. وعندما رأيتُ معظم الناس يخرجون، ويغادرون إما على الأقدام أو في السيارات، دخلتُ لتذكير الرئيس أني سأوصله إلى بيته. لكنه لم يكن هناك، ولا في أي مكان. تفقدتُ الحمّامات ودرت حول مركز الإطفاء، كذلك سألت كل جامعي الفطر النشوانين بالسكر إلى أين ذهب، لكن أحدًا لم يستطع إعطائي جوابًا ذا معنى. كان البعض لا يزال يدندن «هلمّوا، أيها الصقور»، وآخرون يُنهون بيرتهم، هازئين بالقواعد وهم يشربون في الخارج. لذا افترضتُ أن أحدهم لا بدّ قد اصطحبه إلى بيته بالفعل، لكني ببساطة لم ألاحظ. ولا زلت متأكدة أنه كان افتراضًا وجيهًا. أي سوء يمكن أن يصيبه؟ حتى إن سقط في النوم مخمورًا بين نباتات الأرقطيون، كان الليل دافئًا ولم يكن ثمة خطر. لم تخطر لي أي شُبهات، لذا استقليتُ الساموراي وعدنا إلى البيت.

«من هي الساموراي؟»، سأل الشرطي.

أجبته، ملتزمة بقول الحقيقة: «صديقة».

«اسمها الأخير من فضلك؟».

«ساموراي سوزوكي».

بدا عليه الضيق، لكن الآخر ابتسم لنفسه.

«من فضلك خبرينا، يا مسز دوشينكو...».

«دوشيكو»، صوّبتُ له.

«...دوشيكو. هل تراودك أي شكوك بخصوص مَن قد يكون لديه سبب لإلحاق الأذى بالرئيس؟».

اندهشتُ: «ألا تقرآ خطاباتي. لقد شرحتُ كل شيء فيها». تبادلا النظرات. «لا، لكننا نسألك سؤالًا جادًّا».

«وأنا أعطيك جوابًا جادًّا. لقد كتبت لكم. في الحقيقة، لم أتلقّ جوابًا حتى الآن. إنها قلة تهذيب ألا تجيبوا على الخطابات. وفقًا للمادة 171، الفقرة الأولى من القانون الجنائي، ينبغي أن يُسمح للأشخاص الخاضعين للاستجواب بالتعبير عن أنفسهم بحرية داخل الحدود المقرَّرة لغرض المهمة المعهودة، وبعدها فقط يحق توجيه أسئلة تهدف إلى استكمال إفاداتهم أو شرحها أو التحقّق منها».

قال الأول: «أنت محقة».

سألتُ: «هل صحيح أنه كان مغطّى بالكامل **بالخنافس**؟».

«لا نستطيع الإجابة عن ذلك السؤال. لمصلحة التحقيق».

«لكن كيف مات؟».

قال الأول: «نحن من نطرح الأسئلة، لا أنتِ». وأضاف الثاني: «الشهود الذين رأوكِ تتكلّمين مع الرئيس أثناء الحفل قالوا إنكما كنتما واقفان على الدَّرَج».

«هذا صحيح، كنت أذكِّره أني سآخذه إلى البيت لأن زوجته طلبت مني ذلك. لكنه لم يبدُ قادرًا على التركيز بالكامل فيمَ أقول. لذا فكرتُ أن الأجدر بي انتظاره إلى أن ينتهي الحفل ويصير مستعدًا للمغادرة».

«هل كنتِ تعرفين المأمور؟».

قلت للشاب: «بالطبع كنت أعرفه. وأنت تعرف ذلك تمام المعرفة. لماذا تسأل وأنت تعرف؟ أليس ذلك إهدارًا للوقت؟».

«وماذا عن أنزيلم مُصراني؟».

«كان اسمه أنزيلم؟ لم أكن لأخمّن ذلك أبدًا. قابلته مرة، بالقرب من

هنا، على الجسر الصغير. كان مع رفيقته. كان ذلك قبل وقت طويل، نحو ثلاث سنوات. ودار بيننا حوار قصير».

«حول ماذا؟».

«مجرد دردشة عمومية، لا أتذكر. كانت تلك المرأة هناك، يمكنها أن تؤكّد كل ذلك».

كنت أعرف أن الشرطة تحب تأكيد كل شيء.

«هل صحيح أنكِ تصرفتِ بعدوانية أثناء الصيد هناك، في المحلّة التي تعيشين فيها؟».

«سأقول إني تصرفت بغضب، لا بعدوانية. هناك فارق. لقد عبّرتُ عن غضبي لأنهم كانوا يقتلون الحيوانات».

«هل صدرَت منك تهديدات بالقتل؟».

«الغضب يمكن أن يدفع المرء إلى النطق بمختلف الكلمات، لكنه يمكن أيضًا أن يجعل المرء ينساها بعد ذلك».

«ثمة شهود قالوا إنك صرخت، وأنا هنا أقتبس» -عندها ألقى نظرة على الأوراق المفرودة على طاولة المكتب- «سوف أقتلُك يا (قول بذيء)، سوف تعاقَب على هذه الجرائم. أنت لا تعرف الخجل، أنت لا تخاف من أي شيء. سوف أفلق دماغك».

قرأ ذلك من دون انفعال، ما وجدتُه أمرًا مضحكًا.

«لماذا تبتسمين؟»، سألني الشرطي الثاني بنبرة جريحة.

«لأنني أفكر أنه أمرٌ هزلي أن أكون قد قلت تلك الأشياء. أنا شخص مسالم. ربما يبالغ شاهدُكم؟».

«هل تنكرين أنك مَثَلتِ أمام محكمة الصلح بتهمة إفساد وتدمير منابر صيد؟».

«لا، لن أحلم بإنكار هذا. وقد دفعتُ غرامة في المحكمة. هناك وثائق تثبت هذا».

«وأي شيء ليس له وثائق؟»، سأل أحدهما، ظانًّا أنه يطرح سؤالًا مراوغًا، لكني راوغته بمهارة -في ما أظن- حين قلت: «الكثير من الأشياء، يا سيدي. في حياتي وفي حياتك. مستحيل تسجيل كل شيء بالكلمات، ناهيك عن الوثائق الرسمية».

«لماذا فعلتِ ذلك؟».

حدّجتُه بنظرة وكأنه قد نزل لتوه من القمر. «لماذا تسألني عن شيء تعرفه تمام المعرفة؟».

«من فضلك أجيبي عن الأسئلة. يجب أن نسجل أقوالك في المحضر».

في تلك اللحظة كنت قد وصلت إلى حالة من الاسترخاء الكامل.

«أها. إذًا، من جديد: فعلت ذلك حتى لا يطلق أحد النار على الحيوانات من فوقها».

«وكيف تحصَّلتِ على مثل تلك المعلومات الدقيقة بخصوص بعض التفاصيل المتعلّقة بجرائم القتل؟».

«مثل ماذا؟».

«المتعلقة بالرئيس، على سبيل المثال. كيف عرفتِ أن الحشرة كانت -نظر في ملاحظاته- كوكوجوس هيماتودس؟ هذا ما قلتِه للكاتبة».

«أوه، هل قلتُ ذلك؟ إنها خنفساء شائعة في هذه المناطق».

«إذًا كيف عرفتِ ذلك؟ من عالم الإنتو.. رجل الحشرات الذي أقام معك في الربيع؟».

«ربما. لكن في المقام الأول من الطوالع، مثلما سبق وأوضحتُ. الطوالع تحتوي على كل شيء. أدقّ التفاصيل. حتى شعورك اليوم، أو لونك المفضل للملابس الداخلية. فقط عليك أن تعرف كيف تقرأ كل ذلك. الرئيس كانت لديه مُجانبات شديدة السوء في المنزل الثالث، وهو المنزل المرتبط بالحيوانات الصغيرة. بما في ذلك الحشرات».

لم يستطع الشرطيان منع نفسَيْهما من تبادل نظرات ذات مغزى، كانت بالنسبة لي غير مهذبة. في مهنتهما هذه، لا ينبغي لأي شيء أن يصيبهما بالدهشة. تابعتُ كلامي بثقة كاملة في النفس؛ كنت قد عرفتُ الآن أنهما زوجان من الهواة.

«أنا أمارس علم الفلك منذ سنوات طويلة، وأمتلك خبرة واسعة. كل شيء مرتبط بكل شيء آخر، ونحن جميعًا عالقون في شبكة من المراسلات من كل نوع. ينبغي أن يعلّموكم ذلك في كلية الشرطة. إنه تقليد راسخ وقديم. من سويدِنبرغ[1]».

«مِن مَن؟»، سألا في صوت واحد.

«سويدنبرغ. رجل سويدي».

رأيت أحدهما يدوِّن الاسم.

ظلّا يتكلمان معي على هذا المنوال لساعتين أخريين، وعصر ذلك اليوم أظهرا لي أمر اعتقال لثمانية وأربعين ساعة وإذنًا بتفتيش منزلي. أصابني الهلع وأنا أتساءل إن كنت قد تركت أي ملابس داخلية متّسخة على مرأى البصر.

ذلك المساء سُلِّمت كيسًا بلاستيكيًا، خمّنتُ أنه من ديزي وبشائر. كانت فيه فرشاتا أسنان (لماذا اثنتان؟ للصباح والمساء ربما؟)، وقميص نوم، فاخر ومثير جدًّا (لا بد أن بشائر استخرجته من المجموعة الجديدة)، وبعض الحلوى وجزء من بليك بترجمة شخص يدعى فوستوفيتش. آه يا ديزي العزيز.

---

(1) إيمانويل سويدنبرغ (أو سفيدنبوري) (1688-1772): فيلسوف وعالم لاهوت ومتصوِّف سويدي بارز. ألف عدة أعمال زعم فيها تواصلًا صوفيًا مع الرب والملائكة والشياطين، وانتقد فيها الكنيسة ومعتقداتها. تأثّر به وليام بليك تأثّرًا كبيرًا في البداية، ثم انقلب عليه وعلى آرائه. (المترجم)

للمرة الأولى في حياتي انتهى بي الأمر في سجن مادّي حقيقي، وكانت تجربة بالغة الصعوبة. كانت الزنزانة نظيفة، وفقيرة ومقبضة. عندما أُوصَد الباب ورائي، استولى عليَّ الهلع. راح قلبي يدقّ بقوة في صدري وخفت أن أشرع في الصراخ. جلستُ على السرير الصغير خائفة أن أتحرك. عند هذه النقطة خطر لي أني أفضّل الموت على قضاء بقية حياتي في مكان كهذا. آه، نعم، من دون شك. لم أنم طوال الليل - لم أرقد حتى على الفراش. ظللت جالسة في الوضعية نفسها حتى الصباح. كنت متعرّقة ومتّسخة. شعرت وكأن الكلمات التي تفوّهت بها ذلك اليوم قد لطّخَت لساني وفمي.

يأتي الشرر من قلب النور ويُجبَل من البريق الصافي - هكذا تقول أقدم الأساطير. عندما يوشك إنسان أن يولَد، تبدأ شرارةٌ في السقوط. أولًا تطير مخترقةً ظلمة الفضاء الخارجي، ثم المجرات، وأخيرًا، قبل أن تسقط هنا، إلى الأرض، تصطدم المسكينة في مدارات الكواكب. كل منها يلوِّث الشرارة ببعض الخصائص، بينما تَعتم وتخبو.

في البداية، يرسم بلوتو الإطار لهذه التجربة الكونية ويكشف مبادئه الأساسية - الحياة حدثٌ سريع الزوال، يعقبه موتٌ، ما سيجعل الشرارة ذات يوم تتحرّر من الشَّرَك؛ ما مِن طريق آخر للخروج. الحياة تشبه ساحة اختبار شاقة. من الآن فصاعدًا كل شيء تفعله سوف يُحتسب، كل فكرة وكل فعل، لكن ليس لكي تعاقَب أو تكافأ عليه في ما بعد، بل لأن هذه الأشياء هي ما تَبني عالمك. هكذا تعمل الآلة. وإذ تستمر الشرارة في السقوط، تعبر حزام نِبتون وتضيع وسط أبخرته الضبابية. كترضية، يعطيها نبتون كل أنواع الأوهام، ذكرى ناعسة عن نزوحها، أحلامًا عن الطيران، خيالات، مخدرات، وكتبًا. أورانوس يزوّدها بالقدرة على التمرد؛ من الآن فصاعدًا ستكون تلك القدرة دليلًا على ذكرى المكان

الذي جاءت منه الشرارة. مع مرور الشرارة بحلقات زحل، يتضح أن ما ينتظرها في القاع ليس إلا سجنًا. معسكر سُخرة، مستشفًى، قواعد وقوالب، جسدًا سقيمًا، مرضًا قاتلًا، موتَ حبيب. لكن المشتري يمنحها العزاء، والكرامة، والتفاؤل، هدية بديعة: كل شيء سيصبح على ما يرام. المريخ يضيف القوة والإقدام، وهما مفيدان بكل تأكيد. وبينما تمرّ بالشمس، تعميها، ولا يتبقى من وعيها السابق بعيد المدى إلا مجرد ذات صغيرة متقزِّمة، معزولة عن البقية، وعلى هذه الحال سوف تبقى. أتخيلها على هذا النحو: جذع صغير، كائن معوَّق نُزعت أجنحته، ذبابة عذّبها أطفال قساة؛ من يعرف كيف ستعيش في العتمة. الحمد لله، الآن تقف الزهرة في طريق سقوطها. منها تحصل الشرارة على نعمة الحب، التعاطف الصافي، الشيء الوحيد الذي يمكن أن ينقذها وغيرها من الشرارات؛ بفضل عطايا الزهرة، تصير جميعًا قادرة على الاتحاد ودعم بعضها البعض. وقبل السقوط مباشرة، تُبصر كوكبًا صغيرًا غريبًا يشبه أرنبًا منوَّمًا، ولا يدور حول محوره هو، بل يتحرك بسرعة، محدِّقًا في الشمس. هذا هو عطارد، الذي يعطيها اللغة، القدرة على التواصل. وإذ تمرّ بالقمر، تكتسب شيئًا غير ملموس يشبه الروح.

عندها فقط تسقط إلى الأرض، وعلى الفور تُكسى بجسد. إنسان، أو حيوان، أو نبات.

هكذا تسير الأمور.

***

أُطلق سراحي في اليوم التالي، قبل انقضاء الساعات الثماني والأربعين المشؤومة. جاء ثلاثتهم لاصطحابي، وألقيتُ نفسي بين أذرعهم وكأني كنت في عالم آخر لسنواتٍ وسنوات. بكى ديزي، بينما جلست بشائر مع غريب الأطوار متصلّبين في مقعد السيارة الخلفي. كان واضحًا أن ما حدث أصابهما بصدمة، أكبر بكثير من صدمتي، وفي النهاية كنت أنا من واساهما. طلبتُ من ديزي التوقف أمام المتجر، واشترينا آيس كريم.

بيدَ أني إجمالًا، منذ وقت إقامتي القصيرة رهن الاحتجاز، صرتُ شاردة الذهن تمامًا. لم أستطع التصالح مع حقيقة أن رجال الشرطة فتّشوا بيتي، ومن وقتها فصاعدًا صرت أحس بوجودهم في كل مكان -كانوا قد نبشوا الأدراج، ودواليب الملابس، وطاولة المكتب. لم يجدوا شيئًا، إذ ماذا كان يمكن أن يجدوا؟ لكن النظام كان قد تشوَّش، والسلام تحطّم. أخذت أتجول بلا هدف في البيت، عاجزة عن إنجاز أي عمل. ظللت أحدّث نفسي، وأدركت أني لست على ما يرام. جذبتني نوافذي الكبيرة -وقفت فيها، عاجزة عن إبعاد أنظاري عما أراه- الأعشاب الخمرية المتموجة، رقصتها في الريح غير المرئية، مهيِّجة حركتها. ورقعٌ متلألئة من الخَضَار بكل الدرجات أيضًا. أصبحت ساهيةً مشغولة البال، وصرت أهيم وسط أفكاري لساعات في كل مرة. وضعت مفاتيحي في الكراج، على سبيل المثال، وظللتُ أسبوعًا أبحث عنها. حرقتُ غلّاية مياه. كنت أخرج الخضروات من المجمّد ولا أراها بعد ذلك إلا وقد تغضَّنت وفقدت طزاجتها. من طرف عيني كنت أرى الحركة التي لا تنقطع في بيتي - أناس يأتون ويذهبون، من حجرة الغلّاية صعودًا على السلم وإلى الحديقة، ثم رجوعًا. صغيرتاي تركضان بمرح في الصالة. ماما تجلس في الشرفة تشرب الشاي. صرت أسمع صلصلة ملعقة الشاي وهي تضرب الفنجان وتنهداتها الطويلة الحزينة. لم يكن الهدوء يسود إلا عندما يأتي ديزي؛ وكان دائمًا تقريبًا يأتي بصحبة بشائر، عندما لا يكون أمامها تسليمٌ للبضائع في اليوم التالي.

عندما اشتدت الآلام، استدعى ديزي الإسعاف ذات يوم. بدا واضحًا أنني يجب أن أذهب إلى المستشفى. كان وقتًا مواتيًا لحضور الإسعاف - أغسطس، كان الطريق صلبًا وجافًا، والطقس جميلًا و -الحمد للكواكب- كنت قد أخذت دُشّي الصباحي، وكانت قدماي لطيفتين ونظيفتين.

الآن كنت راقدة في العنبر، الخاوي على نحو غريب، ذي النوافذ المفتوحة، التي منها يدخل عبقَ الروائح القادمة من حدائق التخصيص - الطماطم الناضجة، الأعشاب الجافة، سيقان النباتات المحترقة. كانت الشمس قد دخلت العذراء، التي كانت تبدأ تنظيفها الخريفي وتجمّع المؤونة للشتاء.

جاؤوا لرؤيتي، بالطبع، لكن لا شيء يُشعرني بالانزعاج أكثر من أن يزورني أحدهم في المستشفى. لا أعرف عندها ماذا أفعل بنفسي. كل حوار في هذا المكان الكريه يصير غير طبيعي، واضطراري. أتمنّى ألا يكونوا قد أساءوا الظن بي لأني طلبت منهم الرجوع إلى بيوتهم.

علِي، طبيب الأمراض الجلدية، كان كثيرًا ما يأتي لزيارتي ويجلس على سريري. يمر عليَّ من العنبر المجاور، جالبًا لي مجلات قديمة استعملتها أيدٍ كثيرة. أخبرته بجسري في سوريا (أتساءل إن كان لا يزال هناك؟)، وأخبرني عن عمله مع القبائل الجوّالة في الصحراء. لبعض الوقت عمل طبيبًا للبدو الرحّل، وسافر معهم، يفحصهم ويعالجهم. في حالة ترحال دائم. هو نفسه كان رحّالة. لم يستمر قط في أي مستشفى لأكثر من سنتين قبل أن يبدأ شيءٌ يجعله يشعر فجأة بالتهيّج والتململ، فيجرّب وظيفة أخرى في مكان آخر. المرضى الذين تغلبوا على كافة أوجه التميز وانتهوا أخيرًا إلى الوثوق به يُهجَرون - يأتي يوم، وتظهر لافتة على باب غرفة الاستشارات الخاصة به تقول إن الدكتور علي لم يعد هنا. بطبيعة الحال، أثار أسلوب حياته الطوّاف وأصوله الإثنية اهتمام مختلف أجهزة الاستخبارات - على ذلك، كان هاتفه مراقَبًا دائمًا. أو هذا ما يزعمه على الأقل.

سألته ذات مرة: «هل لديك أي **اعتلالات** أنت نفسك؟».

آه، نعم، كانت لديه **اعتلالاته**. كل شتاء كان يعاني من الاكتئاب، وكانت الغرفة في نُزل العمال، التي خصَّصتها له السلطات المحلية،

تعمّق من سوداويته أكثر وأكثر. كان لديه غرض واحد قيّم تحصّل عليه بعد سنوات من العمل - مصباح كبير يرسل أشعة تشبه ضوء الشمس، ومن ثم فهو مصمَّم لرفع الروح المعنوية. كان كثيرًا ما يقضي المساء وهو يعرِّض وجهه لهذه الشمس الصناعية، بينما يطوف بذهنه في صحاري ليبيا أو سوريا، أو ربما العراق.

تساءلتُ عن طبيعة **طالعه**. غير أني كنت مريضة على نحو لا يسمح لي بإجراء الحسابات. هذه المرة كنت في حالة سيئة. كنت راقدة في غرفة مظلمة، أعاني من حساسية حادة تجاه الضوء؛ كان جلدي أحمر ومليئًا بالبثور، يؤلمني وكأن مشارِط صغيرة تضرب فيه هنا وهناك.

حذّرني قائلًا: «يجب أنَ تتجنّبي ضوء الشمس. لم يسبق لي رؤية جِلد مثل جِلدك - لقد **خلقني** للحياة تحت الأرض».

ضحكَ، لأن ذلك بالنسبة له كان عصيًّا عن التخيّل - كانت تُروسه موجهة بالكامل نحو الشمس، مثل زهرة عبّاد الشمس. بينما أشبه هندباء برية بيضاء، برعمًا على حبّة بطاطس - كان بوسعي قضاء بقية حياتي في حجرة الغلّاية.

كنت معجبة به لكونه -هكذا قال لي- لا يمتلك من الأغراض إلا ما يستطيع حمله في حقيبتين لدى سماع الإشارة، في أقل من ساعة. قررتُ أن أتعلم منه هذه المهارة. تعهدتُ لنفسي أن أتمرن فور خروجي. حقيبة ظهر و«لابتوب»، هذا يجب أن يكفي أي **شخص**. على هذا النحو، حيثما انتهى عليّ، يجد نفسه في موطنه.

ذكّرني هذا الطبيب الهائم كيف يجدر بنا ألا نؤسس لأنفسنا حياة مريحة أكثر من اللازم في أي مكان، وفي هذا الصدد، يبدو أني تماديتُ كثيرًا مع بيتي. أعطاني دكتور علي «جلّابية» -قميص أبيض يصل إلى الكاحلين، له كمّان طويلان، يُزرَّر إلى الرقبة. قال إن اللون الأبيض يعمل كمرآة، يعكس أشعة الضوء.

في النصف الثاني من أغسطس ساءت حالتي كثيرًا إلى حدّ أنهم أخذوني إلى فروتسلاف لإجراء بعض الفحوص الطبية، الأمر الذي لم يزعجني بحقّ. في حالة نصف وعي استمرت لأيام لا تنتهي، صرت أتلهّف شوقًا على رؤية بازلائي الحلوة، وأصابني القلق كوني ينبغي أن أرعى الجيل السادس، وإلا انقطعت نتائج بحثي، ومن ثم سنرجع إلى الاعتقاد السائد بأننا لا نرث خبرة حياتنا، وأن كل العلوم في العالم ليست إلا وقتًا مهدرًا، وأننا غير قادرين على تعلم أي شيء من التاريخ. حلمتُ أني هاتفت ديزي، لكنه لم يجب على الهاتف لأن صغيرتيَّ كانتا قد أنجبتا عددًا كبيرًا جدًّا من الأطفال، تناثروا على الأرض في الصالة والمطبخ. كانوا من البشر، عِرقٌ جديد بالكامل من البشر أنجبته حيوانات. كانوا لا يزالونا عميانًا - لم يفتحوا عيونهم بعد. وحلمتُ أني أبحث عن صغيرتيّ في المدينة الكبيرة؛ في الحلم كان الأمل لا يزال يحدوني، غير أنه كان أملًا غبيًّا، أمرًا مؤلمًا جدًّا.

ذات يوم جاءت الكاتبة لزيارتي في المستشفى في فروتسلاف لمواساتي بأدب وإخباري بلطف أنها عرضت بيتها للبيع.

«لقد تغيّر المكان»، قالتها، وهي تقدّم لي بعض فطائر «بانكيك الفطر» من أغاتا.

قالت إنها تشعر بطاقة سلبية هناك، إنها صارت تخاف في الليل، وفقدت شهيتها.

«العيش في مكان تحدث فيه أشياء كهذه أمر مستحيل. هؤلاء القتلة المرعِبون سلّطوا الضوء على مختلف الخدع والبذاءات الصغيرة. اتضح لي أني كنت أعيش وسط وحوش»، قالتها عابسة. «أنتِ الشخص الوحيد النزيه في المكان كلّه».

قلت، وقد أربكني الإطراء: «تعرفين ماذا، كنت أخطّط للتوقّف عن الاعتناء بالبيوت في الشتاء القادم على أي حال».

«قرار حكيم. ستكونين أفضل حالًا في بلد دافئ...».

قلت: «من دون شمس. هل تعرفين أي مكان من هذا النوع، بخلاف الحمّام؟».

تجاهلَت سؤالي.

قالت: «لقد وضعتُ إعلانًا لبيع بيتي في الصحيفة». توقفَت برهة لتفكر ثم أضافت: «على أي حال، كان الجو عاصفًا جدًّا هناك. لم أستطع تحمّل العواء المستمر للريح. التركيز يصير مستحيلًا بينما شيء ما يخشخش ويصفّر ويدمدم في أذنِك طوال الوقت. هل لاحظتِ قدر الضوضاء التي تصنعها الأوراق على الأشجار؟ خصوصًا على أشجار الحور - بأمانة لا تُحتمل. تبدأ في يونيو وتظل تهتز حتى نوفمبر. إنه كابوس».

لم يسبق لي أن فكرت في ذلك.

قالت بسخط، وهي تغيّر الموضوع فجأة: «لقد استجوبوني، هل عرفتِ؟».

لم يفاجئني ذلك على الإطلاق، لأنهم استجوبوا الجميع. كانت هذه القضية الآن على رأس الأولويات عندهم. «الأولويات»، يا لها من كلمة بشعة.

«ثم؟ هل أفدتِهم بأي شيء؟».

«تعرفين، أحيانًا يبدو لي أننا نعيش في عالم نختلقه لأنفسنا. نقرر ما هو خيرٌ وما هو غير ذلك، نرسم خرائط للمعاني من أجل أنفسنا... ثم نقضي طيلة حياتنا ونحن نصارع ما قد اخترعناه لأنفسنا. المشكلة أن كلًّا منا لديه نظرته الخاصة للعالم، لذا يجد الناس صعوبة في فهم بعضهم بعضًا».

كان ثمة شيء صحيح في ما قالته.

عندما وقفَت لتودّعني، فتشتُ في أغراضي وأعطيتها حافرَ غزال. وإذ أخرجَته من لفافته الورقية، التوى وجهها في تكشيرة نفور.

«ما هذا؟ بالله عليك يا سيدة دوشيكو، ماذا تعطيني؟».

«من فضلك خذيه. إنه يشبه إصبع الرب. إنه مجفَّف بالكامل، ليست له رائحة».

سألتني في ارتياع: «وماذا يفترض أن أفعل به؟».

«استغلّيه في شيء مفيد».

لفَّت الكارع مجددًا، وتردَّدَت عند مدخل الباب، ثم مَضت.

قضيت زمنًا طويلًا أتأمل في ما قالته السيدة الرمادية. وأعتقد بأنه ينسجم مع إحدى نظرياتي -إيماني بأن النفس الإنسانية تطوّرت لكي تحمينا من رؤية الحقيقة. لكي تمنعنا من رصد آلية العمل. النفس هي منظومتنا الدفاعية - إنها تحرص على ألا نفهم ما يحدث حولنا أبدًا. مهمتها الأساسية هي ترشيح المعلومات، حتى مع القدرات الهائلة لعقولنا. إذ يستحيل علينا حمل المعرفة بكل ثقلها. لأن كل ذرة من العالم مجبولة من كَبَد.

***

على هذا النحو، خرجت أولًا من سجن. ثم خرجت من مستشفى. لا شك أني كنت أصارع تأثيرات زحل. مع ذلك فقد انتقل ذلك الجرم السماوي في أغسطس بعيدًا بما يكفي عن المُجانبات السلبية، وهكذا، قضينا بقية السنة مثل أسرة واحدة. أنا راقدة في غرفة معتمة، وغريب الأطوار يرتّب البيت ويديره، بينما يتولّى ديزي وبشائر الطبخ والتسوق. فور أن شعرت بتحسن، قمنا برحلة أخرى إلى التشيك، إلى المتجر الاستثنائي حيث زرنا هونزا وكُتبه. تناولنا العشاء معه مرتين، وعقدنا اجتماعنا الخاص المصغّر حول بليك، من دون أي منحة أو دعم من الاتحاد الأوروبي.

عثر ديزي على فيديو قصير على الإنترنت. لا يتجاوز طوله دقيقة واحدة. أيل جميل المنظر يهاجم صيادًا. نراه يقف على قائمتيه الخلفيتين،

يضرب الرجل بحافريه الأماميين. الصياد يسقط، لكن الحيوان لا يتوقف، يظل يدوس عليه في اهتياج، لا يعطيه فرصة للزحف بعيدًا على ركبتيه. يحاول الرجل حماية رأسه والفرار من الحيوان الثائر، لكن الأيل يظل يُسقطه مرة بعد أخرى.

المشهد بلا نهاية - لا نعرف ما حدث بعدها، لا للصياد ولا للأيل.

راقدةً في غرفتي المظلمة، في منتصف الصيف، جعلتُ أشاهد الفيديو مرارًا وتكرارًا.

XV

القديس هوبِرت

الخوارُ الذي يجأر به اللحاء ويزأر
أمواجٌ تجلِد شاطئ السماء وتهدُر.

زُهرتي معطوبٌ، أو في المنفى - هذا ما تقوله عن كوكب لا يمكن العثور عليه في البرج الذي ينبغي أن يكون فيه. علاوة على ذلك، يتموضع بلوتو في مُجانبة سلبية مع الزهرة، وفي حالتي يهيمن بلوتو على **الصاعد**. ونتيجة لهذا الوضع، فأنا مصابة، بحسب فهمي، بمتلازمة «الزهرة الكسول». ذلك هو الاسم الذي أعطيه لهذا **التوافق**. في هذه الحالة نحن نتعامل مع شخص منحه المستقبل كثيرًا من العطايا، لكنه أخفق تمامًا في استخدام إمكانياته. مثل هؤلاء الناس لامعون وأذكياء، لكنهم يهتمون بدراساتهم، ويستخدمون ذكاءهم للعب الورق أو «السوليتير» عوضًا عن ذلك. لديهم أجساد جميلة، لكنهم يدمّرونها بالإهمال، يسمّمون أنفسهم بالمنشطات، ويتجاهلون الأطباء وأطباء الأسنان.

الزُهرة في حالته هذه يحفّز نوعًا غريبًا من الكسل - فُرص عُمْرٍ تضيع عليك، لأنك لم تستيقظ في موعدك، لأنك لم تشعر برغبة في الذهاب، لأنك تأخّرت، لأنك أهملت وقصّرت. إنه نزوع للانغماس في الملذات، للعيش في حالة نصف وعي خفيفة، لإهدار حياتك في مسرّات تافهة، للنفور من الجهد والتجرّد من أي مَيْل للمنافسة. صباحاتٍ طويلة، خطابات لم تُفتح، مهمات أُجّلت لوقت لاحق، مشروعات أُهملت.

نفور تجاه كل سلطة ورفض للخضوع لها، السير في طريقك بصمت وكسل. يمكنك القول إن مثل هؤلاء الناس ليست لهم أي فائدة على الإطلاق.

ربما لو كنتُ بذلت جهدًا، لاستطعت الرجوع إلى المدرسة في سبتمبر، غير أني لم أستطع استدعاء القوة اللازمة للملمة شتات نفسي. كنت أشعر بالأسف لأن الأطفال خسروا شهرًا كاملًا من التدريس. لكن ماذا كان بوسعي أن أفعل؟ كنت أتألم في كل موضع.

لم أستطع العودة إلى العمل حتى أكتوبر. عندها شعرت بتحسّن كبير حتى إني نظّمت ناديًا للغة الإنكليزية مرتين أسبوعيًّا، وساعدت تلاميذي على تعويض الدروس الفائتة. بيدَ أن العمل بالطريقة العادية كان مستحيلًا. في أكتوبر بدأ إعفاء الأطفال من حضور دروسي بسبب الاستعدادات التي تجري على قدم وساق لافتتاح وتكريس كنيسة شُيّدت حديثًا. كانت ستُكرّس باسم القديس هوبرت في عيده، 3 نوفمبر. رفضتُ أن أترك الأطفال يذهبون. كنت أفضل أن يتعلموا بضع كلمات إنكليزية إضافية على أن يحفظوا حيوات سِيَر القديسين عن ظهر قلب. لكن المديرة الشابة تدخَّلت.

«أنت تبالغين. هناك أولويات معينة»، قالتها، وبدت كمن لا يؤمن بما يقول.

كلمة «أولوية»، في رأيي - كلمة شديدة القبح، مثل كلمة «جيفة» أو كلمة «مُساكَنة»، بيدَ أني لم أرغب في الشجار معها، لا حول إعفاء الأطفال ولا حول الكلمات.

قالت: «مؤكد أنك ستحضرين تكريس الكنيسة، أليس كذلك؟».

«أنا لست كاثوليكية».

«لا يهم. نحن جميعًا كاثوليك ثقافةً، سواءً أحببنا أم لا. لذا من فضلك تعالي».

لم أكن مستعدة لهذا النقاش تحديدًا، لذا لم أقل شيئًا. عوَّضنا أنا والأطفال الدروس الفائتة في نادي بعد الظهر.

استُجوب ديزي مرتين أخريين، وأخيرًا طُلبت منه الاستقالة من وظيفته بالتراضي. كان سيعمل حتى نهاية السنة. أُعطي بعض المبررات الفضفاضة، تخفيضات الموظفين، تقليص النفقات، الأعذار المعتادة. أمثال ديزي دائمًا أول من يُستبعَدون. لكني أظن بأن الأمر له علاقة بإفاداته. هل كان مشتبهًا به؟ لم ينزعج ديزي من الأمر. كان قد قرّر أن يصبح مترجمًا. خطّط للعيش على ترجمة شعر بليك. يا له من أمر رائع -الترجمة من لغة إلى أخرى، وتقريب الناس بعضهم إلى بعض- يا لها من فكرة جميلة.

كذلك كان يُجري تحرياته الخاصة، ولا عجب - الجميع كانوا ينتظرون على أحرّ من الجمر أن تكشف الشرطة عن حقائق جديدة، مفاجآت تضع حدًّا لهذه السلسلة من الميتات. لهذا الغرض ذهب حتى لزيارة السيدة مُصراني وزوجة الرئيس، وتعقّب تحركات الضحايا بقدر الإمكان.

كنا نعرف أن الثلاثة قضوا بضربة ثقيلة على الرأس، غير أن الأدوات المستخدمة في ذلك ظلت مجهولةً. تكهنّا أنها يمكن أن تكون مجرد قطعة خشب، فرع شجرة غليظ ربما، غير أن ذلك كان سيترك أثرًا مميزًا على الجلد. عوضًا عن ذلك بدا أن أداة الجريمة لا بد أن تكون شيئًا كبيرًا له سطح ناعم وصلب. وفوق ذلك، كانت الشرطة قد عثرت على آثار ضئيلة من دم حيواني عند نقطة الاصطدام، الأرجح دم غزال.

ألححتُ مجدّدًا: «أنا كنت محقة. إنهم الغزلان، هل ترون؟».

كان ديزي يميل باتجاه فرضية مفادها أن الجرائم متعلّقة ولا بد بتصفية حسابات. من الحقائق المعروفة أن المأمور كان في طريق عودته من بيت مُصراني ذلك المساء، وأن مُصراني أعطاه رشوة.

«ربما لحق به مُصراني وحاول استعادة المال، فتشاجرا، وسقط المأمور، ثم استولى الخوف على مُصراني فتخلى عن فكرة البحث عن النقود»، قالها ديزي مستغرقًا في تأملاته.

سأل غريب الأطوار متفلسفًا: «لكن مَن قتل مُصراني؟».

الحقيقة، أعجبتني فكرة الأشرار الذين يُقصون بعضهم بعضًا، في سلسلة متتالية.

أطلق غريب الأطوار العنان لخياله ثانية: «همم، ربما كان الرئيس؟».

بدا أن المأمور كان يغطّي جرائم مُصراني. لكن هل كان للرئيس علاقة بالأمر، لم تكن لدينا فكرة. إذا كان الرئيس هو من قتل مُصراني، إذًا فمَن قتل الرئيس؟ دافع الثأر يظل احتمالية قائمة مع ثلاثتهم، وفي هذه الحالة أيضًا ثمة احتمال أن يكون للأمر علاقة بصفقات عمل. هل يمكن أن تكون النميمة حول المافيا صحيحة؟ هل تمتلك الشرطة أي دليل على ذلك؟ كان ثمة احتمال كبير يتمثّل في تورط رجال آخرين من الشرطة في تلك الممارسات الخبيثة أيضًا، ولعل ذلك هو سبب تقدّم التحريات بهذا البطء الشديد.

كنت قد توقّفت عن الحديث عن نظريتي. الحقّ أنها كانت تعرّضني للاستهزاء ليس إلا. السيدة الرمادية كانت محقّة - الناس لا يفهمون إلا ما يخترعونه لأنفسهم ويتغذّون عليه. فكرة التآمر بين أشخاص من السلطات البلدية، فاسدين ومعدومي الأخلاق، كانت تناسب نوع القصص التي يتلذّذ التلفاز والصحف بإعداد تقارير عنها. لا الصحف ولا التلفاز يهتمون بالحيوانات، ما لم يهرب نمرٌ من حديقة.

***

يبدأ الشتاء بعد عيد جميع القديسين مباشرة. هكذا الأمور هنا؛ يأخذ الخريف كل أدواته ودُمَاه، يهزّ الأوراق ليُسقطها عن الأشجار -لن تعود بحاجةٍ إليها- ويكنسها تحت حدود الحقل وينزع الألوان عن الأعشاب

إلى أن تصير باهتة ورمادية. ثم يصبح كل شيء أسود على خلفية من البياض: الثلوج تسقط على الحقول المحروثة.

«جرّ محراثك فوق عظام الموتى»، قلتها لنفسي في كلمات بليك؛ أهكذا تسير الأمور.

وقفتُ عند النافذة أراقب الطبيعة وهي تنجز أعمالها المنزلية بسرعة شديدة، إلى أن حل الغسق، ومن وقتها فصاعدًا ظل زحف الشتاء يتواصل في الظلام. في الصباح التالي أخرجتُ سترة مبطّنة، تلك السترة الحمراء من متجر بشائر، وقبعاتي الصوف.

كانت نوافذ الساموراي مغطاة بصقيع ضارب إلى الرمادي، لا يزال حديثًا، رقيقًا جدًّا وهشًّا، مثل غَزْل فِطريٍّ كَونيّ. بعد يومين من عيد جميع القديسين، قُدت سياراتي إلى البلدة، لزيارة بشائر وشراء حذاء للثلج. من الآن فصاعدًا صار على المرء الاستعداد للأسوأ. كانت السماء واطئة، كالمعتاد في هذا الوقت من العام. والشموع المنذورة في المقابر لم تكن قد احترقت بالكامل، ومن وراء السياج السّلكي استطعت رؤية الأضواء الملونة ترتعش في النهار، وكأن الناس، بتلك الشعلات الصغيرة الواهنة، يحاولون مساعدة الشمس التي يصيبها الوهن داخل برج العقرب. كان بلوتو قد أحكم السيطرة على العالم. جعلني ذلك أشعر بالحزن. بالأمس كنت كتبت رسائل إلكترونية لأرباب عملي الكرام أنبئهم بأني لن أضطلع هذا العام بمهمة العناية ببيوتهم في الشتاء.

كنت انطلقت في طريقي قبل أن أتذكّر أن اليوم هو الثالث من نوفمبر وأن الاحتفالات ستقام في البلدة بمناسبة عيد القديس هوبرت.

كلما نُظّم احتيالٌ مشبوه، تجد الأطفال يُجرجَرون إليه من اللحظة الأولى. أتذكرهم وقد فعلوا معنا الشيء نفسه في موكب الأول من مايو في الحقبة الشيوعية. قبل زمن بعيد، بعيد. الآن كان الأطفال يُجبَرون على المشاركة في «مسابقة الفنون الإبداعية للأطفال والنّاشئة في مقاطعة

كودكزو»، تحت عنوان «القديس هوبِرت كعالم بيئة حديث نموذجي»، ثم في استعراض عن حياة القديس وموته. كنت قد كتبت خطابًا حول هذا الموضوع إلى مجلس التعليم في أكتوبر، غير أني لم أتلقّ جوابًا. اعتبرتُ ذلك -مثل الكثير من الأشياء الأخرى- فضيحة.

كان هناك الكثير من السيارات المتوقفة على طول الطريق، ما ذكّرني بالقدّاس، وقرّرتُ دخول الكنيسة لأرى نتيجة التجهيزات الخريفية المطوّلة التي تسببت في ضرر كبير لدروسي في اللغة الإنكليزية. ألقيتُ نظرة على ساعتي فأدركت أن القدّاس قد بدأ بالفعل.

كان يحدث أحيانًا أن أدخل كنيسة عَرَضًا وأجلس في سلام لبرهة وسط الناس. لطالما أحببت تواجد الناس هنا معًا، من دون الاضطرار إلى الكلام بعضهم مع بعض. لو كان بوسعهم تبادل الحديث، لشرعوا على الفور في تبادل الترهات، أو النميمة، لشرعوا في اختلاق الأشياء والاستعراض. لكنهم هنا يجلسون في مقاعد الكنيسة، كل منهم غارق في أفكاره، يراجع ذهنيًا ما حدث مؤخرًا ويتخيل ما سيحدث في القريب العاجل. على هذا النحو، يراقبون حيواتهم. ومثل الآخرين، كنت أجلس في مقعد وأغوص في حالة نصف واعية. تتحرّك أفكاري بتراخٍ، وكأنها تترى من خارجي، من رؤوس الآخرين، أو ربما من رؤوس الملائكة الخشبية القائمة بالقرب مني. في كل مرة، كان يحدث لي شيء جديد، شيء مختلف عمّا لو كنت أجترّ أفكاري في البيت. على هذا النحو، يمكن اعتبار الكنيسة مكانًا طيبًا.

في بعض الأحيان كنت أشعر وكأن بمقدوري قراءة أذهان الآخرين هنا إذا أردت. في مناسبات عدة بدا لي أني أسمع أفكار الآخرين: «أيّ نقشٍ ينبغي أن نختاره لورق الحائط الجديد في غرفة النوم؟ هل النوع الناعم أفضل، أم المطبوع برسوم رقيقة؟ النقود في حسابي لا تحقّق إلا القليل من الأرباح، المصارف الأخرى تعطي معدّلات أفضل، أوّل ما

يجب أن أفعله يوم الاثنين أن أتفقد عروضها وأُجري التحويل. من أين تأتي بالأموال؟ كيف تتحمّل كلفة الأشياء التي ترتديها؟ ربما لا يأكلون، يكتفون بإنفاق كل دخلهم على ملابسها... يا ربي! كم شاخَ، كم غزا الشيب شعره! هذا الذي كان ذات مرة أكثر رجال القرية وسامة. لكنه الآن حطام... سأقولها للطبيب مباشرة - أريد إذنًا بالغياب المرَضي... لا يمكن، لن أوافق أبدًا على أي شيء من هذا القبيل، لن أسمح بمعاملتي كطفل...».

وهل ثمة ما يعيب مثل هذه الأفكار؟ هل أفكاري مختلفة؟ أمر طيّب أن الرب، إن كان موجودًا، وحتى إذا لم يكن، يعطينا مكانًا نستطيع التفكير فيه في سلام. ربما هذا هو المغزى من الصلاة أصلًا - أن تفكر مع نفسك في سلام، ألّا ترغب في أي شيء، ألّا تطلب أي شيء، بل ترتب ذهنك ببساطة. ذلك سيكون كافيًا.

لكن بعد اللحظات السارة القليلة الأولى من الاسترخاء، دائمًا تعاودني الأسئلة القديمة ذاتها من أيام الطفولة. غالبًا لأني طفولية بعض الشيء بطبيعتي. كيف يمكن للرب أن ينصت إلى كل الصلوات في العالم أجمع في الوقت نفسه؟ وماذا لو تعارضَت بعضها مع بعض؟ هل يضطر إلى تلبية دعوات كل هؤلاء من أبناء الحرام، والشياطين، والأشرار؟ هل يصلّون؟ هل هناك أماكن يغيب عنها الرب؟ هل هو في مزرعة الثعالب، على سبيل المثال؟ وكيف يفكر في الأمر؟ أو في مسلخ مُصراني؟ هل يذهب إلى هناك؟ أعرف أنها أسئلة غبية ساذجة. اللاهوتيون سوف يَضحكون عليّ. لديَّ رأس خشبي، مثل الملائكة المعلّقين من قبة السماء الصناعية.

لكنْ حالَ بيني وبين التفكير صوت الأب شَنشَن الدؤوب الكريه. لطالما بدا لي أن جسده الذاوي النحيل، المكسو بجلد داكن فضفاض، يُشنشِن قليلًا كلّما تحرك. كان رداؤه الكهنوتي يحتكّ ببنطاله، وذقنه

تحتك بطوق عنقه، ومفاصله تطقطق. أي نوع من مخلوقات الرب كان، هذا الكاهن؟ كان له جلد جاف متغضّن، وكان هناك قدر زائد قليلًا منه في كل موضع. الواضح أنه كان مفرط السمنة يومًا، لكنه عولج منها جراحيًا، بأن جعلهم يُزيلون نصف معدته. والآن صار شديد النحول، ربما ذلك هو السبب. لم أستطع منع نفسي من التفكير أنه مصنوع بالكامل من ورق الأرز، ذلك النوع الذي يستخدم لصناعة مظلات للمصابيح. بالنسبة لي كان أشبه بمخلوق صناعي، أجوف من الداخل، وقابل للاشتعال أيضًا.

في بواكير يناير، عندما كنت لا أزال غارقة في ظلمة القنوط الحالكة بسبب صغيرتيّ، زارني أثناء جولته التقليدية في أرجاء الإبرشية بمناسبة العام الجديد. أولًا مرَّ شمامسته عليّ، في أردية كهنوتية بيضاء فوق سترات دافئة، صِبيَة لهم خدود حمراء، ما نال من جديتهم بوصفهم مبعوثين من طرف الكاهن. كان عندي بعض «الحلاوة»، كنت أحب أن أقضم منها من وقت إلى آخر، وهكذا كسرتُ قطعة لكل منهم. أكلوها، وأنشدوا بعض الأناشيد، ثم خرجوا.

ظهر الأب شَنشَن، يسير بسرعة وبأنفاس لاهثة؛ ومن دون أن ينفض الثلج عن حذائه دخل غرفة معيشتي الصغيرة، وخطا مباشرة على البساط. أخذ يرشّ بالمَرَشّة على الحائط، ونكّس أنظاره وتلا صلاة، ثم سريعًا مثل طرفة عين، وضع صورة دينية على الطاولة وربض في زاوية من الأريكة. فعل كل ذلك بسرعة البرق - لم تستطع عيناي مجاراته إلا بالكاد. بدا لي وكأنه لا يشعر براحة في بيتي ويريد مغادرته بأسرع ما يمكن.

سألته على استحياء: «فنجان شاي، ربما؟».

رفض. لبرهة جلسنا صامتين. وكنت أرى صِبيَة المذبح وهم يتضاربون بكرات الثلج في الخارج.

فجأة شعرت بحاجة عبثية لأن أدسَّ وجهي ليستكن في كُمّه الواسع المنشَّى.

«لماذا تدمعين؟»، سألني في دارِجَة الكهَنة الغريبة المتجرّدة تلك، التي يقولون فيها «تهيُّب» بدلًا من «خوف»، و«فطنَ» بدلًا من «تنبَّهَ»، و«يَفقهون» بدلًا من «يعلمون»، وهكذا. لكن حتى ذلك لم يكن بوسعه إيقافي. واصلتُ البكاء.

«كلبتاي ضاعتا مني»، قلتها أخيرًا.

كان عصر يوم شتوي، وكانت الغبشة تنسكب داخل غرفة معيشتي عبر النوافذ الصغيرة، ولم أستطع رؤية التعبير على وجهه.

بعد وقفة قصيرة قال: «أتفهمّ ألمك، لكنهما كانتا مجرّد حيوانات».

«كانتا أكثر من أحب، كانتا عائلتي، ابنتيّ».

«من فضلك لا تجدّفي»، قالها محتدًّا. «لا يجوز أن تتكلمي عن الكلاب بوصفها بناتك. لا تدمعي أكثر من ذلك. الأفضل أن تصلّي - هذا يجلب الراحة في أوقات الشدّة».

شددتُ كمّه النظيف الجميل لأسحبه إلى النافذة، وأطلعتُه على مقبرتي. كانت شواهد القبور تنتصب حزينة، مغطاة بالثلج؛ وفوق أحدها فانوسٌ صغير تحترق بداخله شمعة.

«لقد تصالحتُ مع حقيقة موتهما. الأرجح أن الصيادين أطلقوا عليهما النار، هل تعرف ذلك؟».

لم يُجب.

«أتمنى لو استطعتُ دفنهما في النهاية. كيف أنعيهما من دون أن أعرف حتى كيف ماتتا وأين جثتيهما؟».

اختلج الكاهن بعصبية. «لا تجوز معاملة الحيوانات وكأنهم بشر. إنها خطيئة - هذه المقبرة هي نتاج للاختيال البشري. الرب وضع الحيوانات في مرتبة أدنى، في خدمة الإنسان».

«من فضلك خبّرني ماذا أفعل. ربما تعرف، يا أبانا؟».

أجاب: «يجب أن تصلّي».

«لأجلهما؟».

«لأجلكِ أنتِ. الحيوانات لا تملك أرواحًا، وهي ليست خالدة. لن تعرف خلاصًا. من فضلك صلّي لنفسك».

ذلك ما خطر ببالي، هذا المشهد الحزين قبل نحو عام، قبل أن أعرف ما أعرفه الآن.

كان القدّاس لا يزال مستمرًا. اتخذتُ مقعدًا قريبًا من المَخرج، بجوار أطفال الصف الثالث، الذين بدوا فاتنين للغاية، بالمناسبة. معظمهم ارتدى زي الظبيات، والأيائل، والأرانب البرية. كانت معهم أقنعة مصنوعة من الورق المقوّى وبدا أنهم لا يطيقون صبرًا لتأدية العرض بها. فهمتُ أن العرض سيعقب القدّاس مباشرة. أفسحوا لي مكانًا بأدب. فجلست هناك وسط الأطفال.

«أي نوع من العروض سيكون؟»، همستُ لفتاة من صف (3أ) تحمل الاسم الجميل «تُوتة».

قالت: «مقابلة القديس هوبِرت مع الغزلان في الغابة. أنا ألعب دور أرنب بري».

ابتسمتُ لها. غير أني لم أفهم المنطق: هوبِرت، قبل أن يصير قديسًا، كان شخصًا لا فائدة منه وسفيهًا. يعشق الصيد. يَقتل الحيوانات. وذات يوم، أثناء الصيد، يرى المسيح على الصليب، فوق رأس غزال يحاول قتله. يخرّ على ركبتيه ويدخل الإيمان قلبه. يدرك كيف ظلّ غارقًا في الخطايا حتى هذه اللحظة. ومن وقتها فصاعدًا يتوقّف عن القتل ويصير قديسًا.

كيف يصير شخص كهذا قديسًا راعيًا للصيادين؟ صدمني الغياب الواضح للمنطق في كل ذلك. إذا كان أتباع هوبرت يريدون الاقتداء به

بحق، سيكون عليهم التوقّف عن القتل. لكن إذا كان الصيادون يتّخذون منه راعيًا، فهم يجعلون منه قدّيسًا راعيًا للخطيئة التي كان يرتكبها، والتي تحرّر منها. من ثم فهم يجعلون منه القديس الراعي للخطيئة. كنت قد فتحت فمي وشرعت أسحب الهواء إلى داخل رئتيّ لكي أشارك تُوتة شكوكي، غير أني أدركت أنه ليس بالوقت ولا بالمكان المناسب للنقاش، خاصة والكاهن ينشد بصوت بالغ العلو لا يستطيع أحد معه سماع جاره. لذا اكتفيت بصياغة فرضية في ذهني، مفادها أن صُلب القضية هنا هي الاستباحة من خلال التضادّ.

كانت الكنيسة مملوءة عن آخرها، ليس فقط بسبب أطفال المدرسة الذين سيقوا كالقطعان إلى هنا، لكن لأن عددًا كبيرًا من الرجال غير المألوفين كان يملأ المقاعد الأمامية. اخضرّ كل شيء أمام عيني بسبب أزيائهم الموحّدة. ووقف المزيد منهم على جانبي المذبح، يمسكون بأعلام ملونة مرخيّة. حتى الأب شَنشَن كان في مزاج احتفالي، ولو أن وجهه الرمادي المتهدّل بدا ثقيلًا بليدًا. لم أستطع الغوص في حالتي المفضلة والانصراف إلى التأمل كالمعتاد. كنت قلقة ومتوترة، وشعرت أني أنزلق تدريجيًا إلى حالة بدأت فيها الذبذبات تتهافت بداخلي.

مسّني أحدهم على الذراع برقّة فاستدرت. كان غرزيس، صبي من السنة النهائية، له عينان جميلتان ذكيتان. كنت أدرّس له العام الماضي.

همس قائلًا: «هل عثرتِ على كلبتيك؟».

على الفور تذكّرتُ كيف ساعدني فصلُه في الخريف الماضي في تعليق إعلانات على الأسيجة وفي مواقف الحافلات.

«لا يا غرزيس، للأسف».

طرف غرزيس بعينيه: «أنا آسف جدًّا يا سيدة دوشيكو».

«شكرًا لك».

كسر صوت الأب شَنشَن الصمت البارد، الذي لم تصحبه إلا

حكحكات أقدام ونحنحات متفرّقة، وراوح الجميع بين أرجلهم، استعدادًا للركوع بعد لحظات، بدمدمات وصل صداها إلى قبة السقف.

«يا حَمَل الربّ...»، دوّت الكلمات فوق الرؤوس، وسمعتُ ضوضاء غريبة، أصوات ارتطامات خافتة من كل الاتجاهات - كان الناس يقرعون على صدورهم وهم يصلون **للحَمَل**.

ثم تقدموا باتجاه المذبح، خارجين من صفوف المقاعد وقد ضم كل منهم يديه معًا ونكّس رأسه، خطاةٌ تائبون، وسرعان ما جعلوا يتزاحمون في الممر، ولو بنوايا طيبة أكثر من المعتاد، وهكذا من دون تبادل النظرات راحوا يفسحون الطريق بعضهم لبعض، وقد بدت على وجوههم جدّية بالغة.

لم أستطع منع نفسي عن التساؤل عمّا كان في بطونهم. أيُّ طعام تناولوه اليوم والأمس، وما إذا كانوا قد هضموا بالفعل لحم **الخنزير**، وما إذا كانت **الدجاجات، والأرانب، والعجول** قد نَزلت من مِعَدهم بعدُ.

كان الجيش الأخضر في الصفوف الأمامية قد نهض بدوره وأخذ يتحرك بين صفوف المقاعد باتجاه المذبح. وكان الأب شَنشَن يتقدّم الآن إلى الدرابزين، بصحبة صبيّ المذبح، يناولهم لُقمة اللحم التالية، هذه المرة في شكل رمزي، لكنها لحم على أي حال، جسد **مخلوق حي**.

خطر لي أنه إن كان ثمة إله طيب بحق، فلا بد أن يتجلّى الآن في هيئته الحقيقية، هيئة **خروف**، أو **بقرة**، أو **أيل**، ويصرخ بصوته الجبار كهزيم الرعد، يزأر، فإن لم يستطع الظهور بشخصه، يتعيّن عليه إرسال نوابه، رؤساء ملائكته الناريين، لكي يضع حدًّا نهائيًا لهذا النفاق الرهيب. لكنه بالطبع لم يتدخّل. إنه لا يتدخل أبدًا.

كانت مراوحة الأقدام تهدأ لحظة بعد أخرى، وأخيرًا عاد لفيف الناس تدريجيًا إلى مقاعدهم. في صمت، شرع الأب شَنشَن بوقار في غسل الآنية. خطر لي أن غسّالة أطباق صغيرة قد تفيده، من ذلك النوع الذي

يناسب طقمًا واحدًا من أدوات المائدة؛ لن يكون عليه إلا أن يضغط زرًّا وسيصير لديه مزيد من الوقت لموعظته. صعد المنبر، وسوّى كمّيه المصنوعين من الدانتيلا عاودتني صورتهما قبل عام في غرفة معيشتي- وقال: «يسرّني أن نكرّس كنيستنا في هذا اليوم السعيد. وسعيد أكثر بالمشاركة في هذه المبادرة القيّمة كمرشد روحي للصيادين».

ران الصمت، وكأن الجميع أراد قضاء بعض الوقت للهضم في سلام بعد الوليمة. جال الكاهن ببصره وسط الحضور، وتابع: «مثلما تعرفون، إخوتي وأخواتي الأعزاء، منذ سنوات ظللت كاهنًا لصيادينا الشجعان. بوصفي مرشدهم الروحي، أبارك مقارّ الصيد، وأنظم الاجتماعات، وأقدم القرابين المقدسة، وأرسل المتوفين إلى ‹ساحات الصيد الأبدية›؛ كذلك أهتم بالأمور المتعلقة بأخلاقيات الصيد وأبذل قصارى جهدي لتوفير منافع روحية للصيادين».

بدأت أتململ مضطربة، بينما واصل الكاهن.

«هنا في كنيستنا، يحتل مُصلّى القديس هوبرت، ذلك المُصلّى الجميل، صحنًا واحدًا. لدينا تمثال مقدّس على المذبح، وسرعان ما سيزيَّن المُصلّى أيضًا بنافذتين من الزجاج الملون. سيُرسم على إحداهما الأيل ذو الصليب المشعّ الذي، وفقًا للحكاية الشعبية، التقاه القديس هوبرت أثناء صيده. وعلى النافذة الأخرى سيُرسم القديس نفسه».

أدارت الرعيّة رؤوسها ناحية الاتجاه الذي أشار إليه الكاهن.

تابع الكاهن: «أما من بادروا بإنشاء هذا المُصلّى الجديد، فهم صيادونا الشجعان».

استدارت كل العيون باتجاه الصفوف الأمامية. واستدارت عيناي أيضًا - على مضض. تنحنح الأب شَنشَن وظهر أنه يستعد لإلقاء خطبة بالغة الجلال.

«أخوتي وأخواتي الأعزاء، الصيادون سفراءٌ وشركاءٌ للرب الإله في

صنيعة الخلق، في العناية بحيوانات الصيد، في التعاون. الطبيعة، التي يعيش بينها الإنسان، تحتاج إلى مساعدة لكي تزدهر. من خلال الإماتة الوقائية، يمارس الصيادون السياسة الصحيحة. لقد شيّدوا وداوموا على تموين «-عند هذه النقطة اختلس نظرة إلى ملاحظاته-»واحدٍ وأربعين معلفًا لغزلان اليحمور، أربعة مذاود تخزين للغزلان الحمراء، خمسٍ وعشرين ناثرة حبوب لإطعام طيور التَّدْرُج، ومئة وخمسين لعَاقة مَلح للغِزلان...».

«وعندما تأتي الحيوانات لتناول الطعام يطلقون عليها النار»، قلتها بصوت عالٍ، واستدارت إليّ رؤوس الجالسين بقربي موبّخة. وأضفتُ: «الأمر يشبه دعوة شخص إلى العشاء ثم قتله».

نظر الأطفال إليّ بعيون مفتوحة على وسعها، في هلع. الأطفال أنفسهم الذين أدرِّس لهم - فصل (3 ب).

كان الأب شَنشَن، المشغول بخطبته، أبعد من أن يسمعني. ظل واقفًا على المنبر، يداه مدسوستان في كمّي ردائه الكهنوتي المصنوعين من الدانتيلا ورفع عينيه إلى قبة الكنيسة، حيث بدأت النجوم التي رُسمت قبل وقت طويل تتقشّر.

استطرد قائلًا: «في موسم الصيد الحالي وحده جهَّزوا خمسة عشر طنًّا من العلف المركّز لفترة الشتاء. وعلى مدار سنوات عديدة ظلت رابطة الصيد في بلدتنا تشتري طيور التَّدْرج وتُطلق سراحها في البيئة، بأغراض التقاط الصور بمقابل مادي للسوّاح، الأمر الذي يوفّر دخلًا إضافيًا للرابطة. إننا نغرس عادات الصيد وتقاليده، التي تشمل عملية انتخاب للأعضاء الجدد، وإلزامهم بحلف اليمين»، قالها، وكانت ثمة لمحة من كبرياء في صوته. «نحن نمارس الصَّيدتين الأهم في السنة، في عيد القديس هوبرت، اليوم، وفي عشيّة الميلاد، وفقًا للتقاليد واحترامًا لقواعد الصيد. غير أن رغبتنا الأساسية أن نعيش جمال الطبيعة، أن نغذّي العادات والتقاليد»، كذلك تابع بحماسة. «لا يزال هناك الكثيرون

من الصيادين غير الشرعيين، الذين لا يراعون قوانين الطبيعة ويقتلون الحيوانات بطريقة وحشية من دون احترام لقانون الصيد. أما أنتم فتحترمون ذلك القانون. في أيامنا هذه، لحسن الحظ تغير مفهوم الصيد. لم يعد يُنظر إلينا كأشخاص يريدون إطلاق النار على كل ما يتحرك، بل كأشخاص يراعون جمال الطبيعة؛ يراعون النظام والانسجام. في السنوات الأخيرة شيّد صيادونا الأعزاء استراحة صيادين خاصة بهم، حيث يجتمعون لمناقشة موضوعات الثقافة، والأخلاقيات، والانضباط، والسلامة أثناء الصيد، وغيرها من القضايا المهمة بالنسبة لهم».

شخرتُ من الضحك بصوت عالٍ جعل نصف الكنيسة الآن تلتفت لتنظر إليّ. كنت أكاد أختنق. ناولني أحد الأطفال منديلًا ورقيًا. في الوقت نفسه شعرت بساقيّ وقد شرعتا في التيبّس، وبتنميل بغيض يأتي في الطريق، ما جعلني أحرّك قدميّ، ثم ربلتيّ! - لو لم أفعل ذلك، في ثوان ستنفجر قوةٌ رهيبة في عضلاتي. فكرتُ أني أتعرض لنوبة، وخطر لي أيضًا أنه أمر جيد جدًّا. نعم، أمر ممتاز. أنا أتعرض لنوبة.

الآن، اتضح لي لماذا تُسمّى أبراج الصيد تلك، التي تحمل في نهاية المطاف شبهًا قويًّا بأبراج المراقبة في معسكرات الإبادة، «منابر». في المنبر يضع الإنسان نفسه فوق بقية المخلوقات ويمنح نفسه حق التحكم في حياتها وموتها. يصبح طاغيةً ومغتصبًا.

تحدّث الكاهن بإلهام، بل وبانتشاء تقريبًا: «اجعلوا الأرض متاعًا لكم. لقد كان الرب يخاطبكم أنتم، أيها الصيادون، بتِلكُم الكلمات، لأن الرب يجعل الإنسان وليًّا له، يشارك في صنيعة الخلق، ويحرص على استمرار هذه الصنيعة حتى النهاية. الصيادون لديهم رسالتهم المتمثلة في رعاية هبة الله التي هي الطبيعة بوعي، وحصافة، وحكمة. ندعو الله أن تزدهر تلك الشراكة، وأن تخدم أخوتكم من بني البشر والطبيعة بأكملها...».

تمكنتُ من الخروج من الصف. وعلى قدمَين متيبستين على نحو غريب، تقدمتُ حتى اقتربت كثيرًا من المنبر.

قلت: «هيه، أنتَ، انزل من هناك. يكفي هذا».

ران الصمت، وبرضًا سمعتُ رجعَ صوتي وهو يرتدّ عن القبة والصحن، فيصير قويًّا؛ لا عجب أن المرء يمكن أن ينتشي بخطبته ذاتها في هذا المكان.

«أنا أكلمك. ألا تسمعني؟ انزل!».

حدّق شَنشَن فيَّ بعينين مفتوحتين على وسعهما، في هلع، وشفتاه ترتعشان، وكأنه، إذ أُخذ على حين غرّة، يحاول العثور على شيء مناسب يُقال. لكنه لم يستطع. «طيّب، طيّب»، ظل يقول، لا بعجز، ولا بعدوانية.

صرختُ: «انزل من فوق هذا المنبر حالًا! واخرج من هنا!».

ثم شعرت بيدِ شخص على ذراعي ورأيت أحد الرجال في الزي الموحد يقف ورائي. نترتُ ذراعي بقوة، لكن سرعان ما هرع إليّ رجل ثانٍ وأمسكا بي معًا بقوة من ذراعيّ.

قلت: «قَتلة».

كان الأطفال يحدّقون فيّ برعب. في أزيائهم التنكرية بدوا غير حقيقيين، مثل جنس جديد من أنصاف البشر وأنصاف الحيوانات على وشك الميلاد. شرع الناس يهمهمون ويتململون في مقاعدهم، هامسين بعضهم لبعض في سخط، بيدَ أني رأيت في عيونهم تعاطفًا كذلك، الأمر الذي أثار غضبي أكثر وأكثر.

زعقتُ: «فيم تحملقون؟ هل غلبكم النوم؟ كيف تنصتون إلى هراء كهذا من غير أن يطرف لكم جفن؟ هل فقدتم عقولكم؟ أم قلوبكم؟ هل ما زالت في صدوركم قلوب؟».

كنت قد كففت عن محاولة تحرير نفسي. تركتهم يقتادونني بهدوء إلى خارج الكنيسة، لكن عند الباب، استدرتُ وصرخت فيهم جميعًا:

«اخرجوا من هنا! كلكم! الآن!»، لوّحتُ بذراعيّ. «اخرجوا! هِش! هل نُوِّمتم مغناطيسيًّا؟ هل فقدتم آخر ذرة من الشفقة؟».

«أرجوكِ، هدّئي نفسك. الجو ألطف هنا»، قالها أحد الرجلين فور أن صرنا في الخارج. أما الآخر، فحاول أن يبدو مهدِّدًا، فأضاف: «وإلا سنطلب الشرطة».

«أنت محق، يجب أن تطلب الشرطة. ثمة تحريض على الجريمة يحدث هنا».

تركاني وأغلقا الباب الثقيل لمنعي من الرجوع إلى الكنيسة. خمنتُ أن الأب شَنشَن يواصل موعظته. جلستُ على جدار خفيض واستعدت هدوئي تدريجيًّا. مرّ غضبي وانقضى، ولطّفَت الريح الباردة وجهي الملتهب.

الغضب يترك وراءه فراغًا، ينهمر فيه فورًا سيلٌ من الحسرة، ويظل يتدفّق مثل نهر عظيم، بلا بداية ولا نهاية. سالت دموعي؛ تجدَّدَت مواردها مرة أخرى.

راقبتُ طائرَي عَقْعق يمرحان على المرجة أمام سَكَن الكاهن، وكأنما لتسليتي. وكأنما ليقولا، لا تنزعجي، الوقت في صالحنا، المهمة يجب أن تُنجز، لا بديل عن ذلك... على نحو غريب جعلا يتفحصان غلاف عِلكة لامعًا، ثم التقطَته الأنثى بمنقارها وطارت بعيدًا. تبعتهُا بأنظاري. لا بد أن لديهما عشًّا فوق سقف السَّكَن. طيور العَقْعق. مشعلو الحرائق.

***

في اليوم التالي، ورغم عدم ارتباطي بأي دروس، هاتفتني المديرة الشابة وطلبت مني الحضور إلى المدرسة عصرًا بعد أن يخلو المبنى. من دون أن أطلب منها، أحضرَت لي قدحًا من القهوة وقطعَت لي شريحة من كيك التفاح. وعرفت أنا ما تحمله الريح.

قالت، وقد بدا عليها الانشغال: «أنا واثقة أنك تفهمين، يا جانينا، أنه بعد ما حدث...».

«أنا لست جانينا، سبق وطلبت منكِ ألا تناديني بهذا الاسم»، صححتُ لها، لكن ربما بلا جدوى. كنت أعرف ما ستقوله - غالبًا كانت تحاول التباهي بثقتها في نفسها باللجوء إلى تلك الشكليّات.

«طيب، سيدة دوشيكو».

«نعم، أعرف. كنت أفضّل أن تنصتي أنتِ والأطفال إليّ لا إلى الصيادين. الأشياء التي يقولونها مُفسِدة للأطفال». تنحنحت المديرة.

«لقد سبّبتِ فضيحة، والأسوأ أن ذلك كان في كنيسة. والأنكى أنه حدث أمام الأطفال، الذين ينبغي أن يحتل لديهم شخص الكاهن، والمكان الذي حدث فيه ذلك، مكانة خاصة».

«خاصة؟ هذا سبب أدعى لمنعهم من الاستماع لمثل هذه الأشياء. لقد سمعتِ بنفسك».

سحبَت المرأة الشابة نفسًا عميقًا، ومن دون النظر إليّ، قالت: «سيدة دوشيكو، أنت مخطئة. هناك قواعد وتقاليد معينة متأصّلة في حياتنا. لا نستطيع رفضها هكذا ببساطة».

كان واضحًا أنها تشحذ عزيمتها الآن، وعرفتُ ما ستقوله.

«لكني لا أريد أن نرفضها، مثلما تقولين. فقط أرفض أن أترك أي شخص يشجّع الأطفال على فعل أشياء شريرة أو يعلّمهم النفاق. تمجيد القتل شرٌّ. الأمر بهذه البساطة».

أسندَت المديرة رأسها على يديها وأجابت بصوت خفيض: «أنا مضطرة لإنهاء عقدك. لا بد أنك خمّنتِ ذلك. سيكون من الأفضل أن تقدّمي طلبًا بإجازة مرضية في هذا الفصل الدراسي - هذا سيكون تقديرًا لجهودك. لقد كنت معتلّة بالفعل، لذا فبمقدورنا الآن تمديد إجازتك المرضية. أرجوكِ افهميني - ليس لدي حل آخر».

«وماذا عن اللغة الانكليزية؟ من الذي سيدرّسها؟».

احمرّ وجهها. قالت وهي ترميني بنظرة غريبة: «مدرِّس التربية الدينية لدينا دَرّسَ في مدرسة لغات. على أي حال...». تردّدَت قبل أن تواصل. «لقد وصلتني شائعات من قَبل عن أساليب التدريس غير التقليدية التي تتبعينها. الواضح أنك تحرقين شموعًا، أو ألعابًا نارية من نوع ما أثناء الدروس، وقد اشتكى بعض المدرسين من رائحة الدخان في الفصل. يخشى الآباء أن تكون ممارسة شيطانية. عبادة شيطان. لعلّهم مجرد أشخاص بسطاء... وأنت تعطين الأطفال أشياء غريبة ليأكلوها. حلوى بنكهة الدوريان[1]، على سبيل المثال. ما هذا بالله عليك؟ إذا أصيب أي منهم بالتسمم، من الذي سيكون مسؤولًا؟ هل توقفتِ قط وفكرتِ في ذلك؟».

حطّمتني ذرائعها هذه. لطالما بذلتُ قصارى جهدي لمفاجأة الأطفال بطريقة ما، لإثارة اهتمامهم. الآن شعرت بكل قواي تُستنزف. فقدتُ الرغبة في قول المزيد. رفعتُ نفسي على قدميّ وتركت الغرفة بلا كلمة أخرى. من زاوية عيني رأيتها تحرّك الأوراق بعصبية على طاولة مكتبها؛ كانت يداها ترتعشان. امرأة مسكينة.

كان لديَّ كل ما أحتاج إليه في الساموراي. وكان الغسق، الذي ينزل أمام عينيّ، في صالحي. إنه يُحابي أمثالي دائمًا.

***

حساء الخردل. سريع الإعداد، لا يحتاج إلى جهد، لذا كان جاهزًا في الموعد المحدَّد. أولًا نسخِّن قليلًا من الزبدة في مقلاة ونضيف بعض القمح، وكأننا سنعد الباشاميل. الدقيق يمتص الزبدة السائحة على

(1) الدوريان: فاكهة استوائية ذات رائحة نفاذة، واسعة الشعبية في شرق آسيا. (المترجم)

نحو رائع، ثم يلتهمها التهامًا، وينتفخ في رضًا. عند هذه النقطة نسكب عليه الحليب والماء، نِصف ونِصف. يضع هذا حدًّا للمرح بين الدقيق والزبدة، لسوء الحظ، لكن تدريجيًا يظهر الحساء؛ الآن يجب أن نضيف رشة ملح، وفلفل، وكراوية إلى هذا السائل الصافي، الذي لا يزال بريئًا، ثم نجعله يغلي ونطفئ النار. الآن فقط نضيف الخردل في ثلاثة أشكال: خردل «ديجون» الفرنسي ذو الحبوب الكاملة؛ الخردل البنّي الناعم أو الخفيف، النوع الكريمي؛ ومسحوق الخردل. مهمٌ ألّا نترك الخردل يغلي، وإلا فقدَ الحساء نكهته وصار مرًّا. أقدِّم هذا الحساء مع الخبز المحمّص، وأعرف كم يحبه ديزي.

وصل ثلاثتهم معًا، وتساءلت أي مفاجأة حملوها لي؛ ربما كانت لديّ ذكرى سنوية من نوع ما – كانوا في مزاج جاد. ديزي وبشائر ارتديا سترتين شتويتين جميلتين، متطابقتين، وخطر لي أنهما يمكن أن يشكّلا ثنائيًا لطيفًا، فكلاهما صغير وجميل، مثل اثنتين من زهور الثلج الرقيقة التي تنمو على جانب الطريق. أما غريب الأطوار فبدا مكفهرًا، وقضى وقتًا طويلًا وهو يراوح بين قدميه، ويفرك يديه معًا. كان قد جلب زجاجة من براندي توت الأرونيا، من إنتاجه المنزلي الخاص. لم تعجبني قطّ مشروباته الكحولية المصنوعة منزليًا؛ في رأيي كان يُقتِّر في السكّر وتترك مشروباته دائمًا مذاقًا مرًّا في اللسان.

الآن كانوا قد جلسوا إلى الطاولة. وإذ كنت لا أزال أحمّص الخبز، نظرتُ إليهم معًا، ربما للمرة الأخيرة. هذا بالضبط ما خطر ببالي – أن وقت الفراق قد حان. فجأة رأيت أربعتنا معًا بطريقة مختلفة – وكأن بيننا الكثير من المشتركات، وكأننا عائلة. أدركت أننا من ذلك النوع من الناس الذين يعتبرهم العالم بلا فائدة. لا نفعل شيئًا جوهريًا، لا ننتج أفكارًا مهمة، لا أغراض ولا مواد غذائية ضرورية، لا نزرع الأرض، لا نغذي الاقتصاد. لم ننجز أي تكاثر، باستثناء غريب الأطوار، الذي لديه

ابن، حتى لو كان المعطف الأسود ليس إلا. إلى الآن لم نقدّم للعالم أي شيء مفيد. لم نخرج بفكرة أي اختراع. لا نمتلك سلطة، لا نمتلك موارد باستثناء ممتلكاتنا الصغيرة. نؤدّي وظائفنا، لكنها ليست مهمة لأي شخص آخر. إذا اختفينا، لن يتغير شيء. لن يلاحظ أحد.

وسط صمت المساء وأجيج النار في موقد المطبخ سمعتُ صافرات إنذار تعوي في مكان ما بالأسفل، محمولة من القرية على ريح مهتاجة. تساءلتُ إن كانوا قد سمعوا هذا الصوت المشؤوم هم أيضًا. لكنهم كانوا يتكلمون بأصوات هامسة، وقد مالوا بعضهم على بعض، في هدوء.

وأنا أصبّ حساء الخردل في أطباق غويطة، اجتاحتني عاطفة قوية حتى إن دموعي بدأت تسيل من جديد. لحسن الحظ كانوا مشغولين بحديثهم فلم يلاحظوا. تراجعت خطوة لأضع المقلاة على المنضدة تحت النافذة، ومن هناك وقفت أراقبهم خلسة. رأيت وجه غريب الأطوار الشاحب المصفرّ، وشعره الرمادي الممشّط بتهذيب على أحد الجانبين، وخدّيه المحلوقين حديثًا. رأيت بشائر في هيئة جانبية، خطَّ أنفها ورقبتها الجميل، ووشاح ملوّن ملفوف حول رأسها، ورأيت كتفي ديزي، صغيرتين ومحنيَّين، في سترة مشغولة باليد. ماذا سيحدث لهم؟ كيف سيتعايش هؤلاء الأطفال.

وكيف سأتعايش أنا؟ في نهاية المطاف، أنا أشبههم أيضًا. حصاد حياتي ليس لَبِنات لبناء أي شيء، لا في زمني، الآن، ولا في أي زمن آخر، أبدًا.

لكن لماذا ينبغي علينا أن نكون نافعين، ولأي سبب؟ من ذا الذي قسّم العالم إلى نافع وغير نافع، وبأي حق؟ أليس لنبتة الشوك الحق في الحياة، أو الفأر الذي يأكل الحبّ في مستودع الغلال؟ ماذا عن النحل واليعاسيب، الأعشاب والورود؟ أي عقل يمكن أن يمتلك الوقاحة ليحكم أيها أفضل، وأيها أسوأ؟ شجرة كبيرة، معوجّة ومليئة بالثقوب،

تعيش لقرون من دون أن تُقطع، لأن لا شيء يمكن أن يُصنع منها. هذا المثال ينبغي أن يرفع معنويات أمثالنا. الجميع يعلمون المكسب الذي يُجنى من الشخص النافع، لكن أحدًا لا يعرف الفائدة التي تُجنى من غير النافع.

«ثمة وهج هناك بالأسفل، في القرية»، قالها غريب الأطوار، وهو يقف بجوار النافذة. «ثمة شيء يحترق».

قلت، فور أن اطمأننت أن عينيّ صارتا جافتين: «اجلسوا. سأقدّم لكم الخبز المحمّص».

لكنهم لم يجلسوا إلى الطاولة. وقفوا جميعًا بجوار النافذة، في صمت. ثم نظروا إليّ. ديزي بالتياع حقيقي، وغريب الأطوار غيرَ مصدِّق، وبشائر بنظرة محمومة، بحسرة كسَرَت قلبي.

في تلك اللحظة، رن هاتف ديزي.

صرختُ: «لا ترد. إنها مكالمة من التشيك، ستدفع دمَّ قلبِك».

أجابني ديزي: «لا أستطيع ألا أرد، أنا لا زلت أعمل مع الشرطة»، ثم قال في الهاتف: «نعم؟».

نظرنا إليه في ترقب. كان حساء الخردل يبرد.

قال ديزي: «سآتي على الفور»، واجتاحتني موجة من الهلع لدى التفكير في أن كل شيء قد ضاع، وأنهم الآن سيرحلون إلى الأبد.

«سَكَن الكاهن يحترق. الأب شَنشَن مات»، قالها ديزي، لكن عوضًا عن المغادرة، جلس إلى الطاولة وشرع يرتشف الحساء بشكل آلي.

عطارد عندي في وضع متراجع، لذا أعبّر عن نفسي بالكتابة أفضل من الكلام. كان يمكن أن أكون كاتبة بارعة. بيدَ أني أعاني من مشكلة في شرح مشاعري والدوافع التي تحرّك تصرفاتي. كان يجب أن أخبرهم، لكن في الوقت نفسه لم أستطع إخبارهم. كيف أصوغ كل ذلك في

كلمات؟ من باب الإخلاص المحض كان عليّ أن أشرح لهم ما فعلته قبل أن يكتشفوه من الآخرين. غير أن ديزي تكلّم أولًا.

قال: «نحن نعرف أنه أنتِ. لهذا جئنا اليوم. لنتخذ قرارًا».

وقال غريب الأطوار بصوت وكأنه خارج من القبر: «أردنا أن نأخذك بعيدًا».

وقال ديزي وهو يزيح الحساء نصف المشروب جانبًا: «لكننا لم نظن أنك ستفعلينها ثانية. هل فعلتِ ذلك؟».

قلت: «نعم».

أعدتُ المقلاة إلى سطح الموقد وخلعتُ مريلتي. وقفت بجوارهم، مستعدة للحكم.

قال ديزي بصوت خافت: «أدركنا ذلك عندما سمعنا كيف مات الرئيس. الخنافس. أنتِ فقط من يمكن أن يكون قد فعلها. أو بوروس، لكن بوروس كان قد رحل منذ فترة طويلة. لذا هاتفته لكي أتحقّق. لم يستطِع أن يصدق، لكنه اعترف أن بعضًا من فيرموناته الثمينة قد فُقدت منه فعلًا، الأمر الذي لم يجد له تفسيرًا. كان في الغابة ولديه حجة غياب. قضيتُ وقتًا طويلًا أتساءل لماذا؟ أي شيء كان بينكِ وبين الرئيس؟ لكني عدت وخمّنتُ أن الأمر لا بد متعلّق بصغيرتيك. وعلى أي حال، فأنت لم تُخفِ قط حقيقة أنهم كانوا يصطادون، أليس كذلك؟ كلّهم. والآن أستطيع أن أرى أن الأب شَنشَن كان يصطاد أيضًا».

همستُ: «كان مرشدهم الروحي».

«ساورتني الشكوك قبل ذلك، عندما رأيت ما تحملينه معك في السيارة. لم أخبر أحدًا بذلك. لكن هل تدركين أن الساموراي تَبَعك تبدو مثل عربة كوماندوز؟».

فجأة شعرت بأن الطاقة تتسرب من ساقيّ، وجلستُ على الأرض. غادرتني القوة التي كانت تدعمني، تبخرت مثل الهواء.

سألت: «هل تظن أنهم سيعتقلونني؟ هل سيأتون من أجلي الآن ويحبسونني في السجن ثانية؟».

قال ديزي: «لقد قتلتِ بَشرًا. هل أنتِ واعية بذلك؟ هل تفهمينه؟».

قال غريب الأطوار: «على مهلك الآن. على مهلك».

انحنى ديزي إلى الأمام، وأمسكني من كتفيّ وهزّني. «كيف حدث ذلك؟ كيف فعلتِها؟ لماذا؟».

على ركبتيّ، زحزحتُ نفسي إلى الخوان الجانبي، ومن تحت المفرش المشمّع سحبتُ الصورة الفوتوغرافية التي كنت قد أخذتها من بيت القدم الكبيرة. ناولتها لهم من دون النظر إليها. كانت محفورة في عقلي، ولم أستطع نسيان أدق التفاصيل.



XVI

الصورة الفوتوغرافية

نمور الغضب أوفر حكمة من خيول الإرشاد.

كان كل شيء واضحًا في الصورة. أفضل دليل على جريمة يمكن للمرء أن يتخيله.

هناك وقف الرجال في الزي الموحّد، في صفّ، وعلى العشب أمامهم رقدت جثث حيوانات مصفوفة بانتظام - أرانب برية، واحد بعد آخر، خنزيران برّيان، واحد كبير، وآخر أصغر، بعض الغزلان، ثم الكثير من طيور التَّدْرج والبط، البُركة والشرشير، مثل نقاط صغيرة، وكأنّ جثث الحيوانات هذه جملة كُتبت لي خصيصًا، حيث الطيور نقاطٌ وُضعت مكان عبارة محذوفة تقول: «هذا سوف يستمر، ويستمر».

لكن ما رأيته في زاوية الصورة جعلني أكاد أفقد الوعي، وجعل كل شيء يظلم أمام عينيّ. لم تلاحظ، يا غريب الأطوار، لأنك كنت مشغولًا بجثمان القدم الكبيرة، كنت تقول شيئًا بينما أقاوم أنا الغثيان. مَن ذا الذي كان سيعجز عن ملاحظة ذلك الفراء الأبيض وهاتِه البقع السوداء؟ في زاوية الصورة كانت تمدّدت ثلاثة كلاب ميتة، مصفوفة بانتظام، مثل تذكارات نصر. أحدها لم يكن مألوفًا لي. أما الآخران فكانا صغيرتيّ.

كان الرجال ينظرون بفخر للكاميرا في زيهم الموحّد، يبتسمون وهم يتّخذون وضعية التصوير. لم يصعب عليّ التعرف عليهم. في المنتصف كان المأمور، وبجواره الرئيس. على الجانب الآخر وقف مُصراني،

مرتديًا زي الكوماندوز، وإلى جواره كان الأب شَنشَن في ياقته الكهنوتية. ثم مدير المستشفى، ورئيس المطافئ، وصاحب محطة البنزين. أرباب عائلات، مواطنون نموذجيون. وراء هذا الصف من كبار الشخصيات، على الجانب قليلًا، وقف المساعدون ومهيّجو الطرائد متجاورين؛ لم يتخذوا وضعية للتصوير. هناك كان القدم الكبيرة، مواجهًا الكاميرا بثلاثة أرباعه، وكأنه كان يتمنّع، ثم دخل الصورة في اللحظة الأخيرة، وبعضٌ من ذوي الشوارب بأذرع مليئة بأغصان الأشجار لأجل النار الكبيرة التي يجهّزون لإشعالها. ولولا الجثث الراقدة عند أقدامهم، كان للمرء أن يظنّهم يحتفلون بمناسبة سعيدة، إذ بدوا في غاية الرضا عن أنفسهم. قدورٌ من يخنة الصياد، سجق وكباب في أسياخ خشبية، زجاجات فودكا تُبرَّد في دلاء. رائحة الذكورة المنبعثة من الجلد المدبوغ، البنادق المزيّتة، الخمر والعَرَق. علامات السيادة، شارات السلطة.

حفظت كل تفصيل عن ظهر قلب منذ النظرة الأولى، من دون حاجة إلى تفحّصها.

ولا عجب أني شعرت، فوق كل شيء، بالراحة. لقد اكتشفت أخيرًا ما حل بصغيرتيّ. كان بحثي عنهما قد استمر حتى الكريسماس، عندما فقدتُ الأمل. كنت قد ذهبت إلى كل مَضَافات السوّاح وسألت الناس؛ كنت قد علّقت إعلانات. «السيدة دوشيكو فقدت كلبتيها – هل رأيتهما؟». وكان الأطفال من المدرسة يسألون. كلبتان تبخّرتا في الهواء. لم تتركا أثرًا. لم يرهما أحد – وكيف يحدث ذلك وقد ماتتا؟ الآن صرت أخمّن أين ذهبت جثتاهما. كان شخص ما قد أخبرني أن مُصراني يأخذ بواقي الطرائد إلى المزرعة ويطعمها للثعالب.

كان القدم الكبيرة يعرف بالأمر منذ البداية، ولا بد وأنه استمتع بأساي. رآني أنادي عليهما، يائسة، وأسير طيلة الطريق إلى الجانب الآخر من الحدود. ولم ينطق بكلمة.

تلك الليلة المشؤومة كان قد صنع لنفسه وجبة من الغزال الذي اصطاده بشكل غير مشروع. للحقيقة، لم أفهم أبدًا الفرق بين «الصيد الجائر» و«الصيد المشروع». كلتا الكلمتان تعني قتلًا. الأولى بطريقة خفية، غير مشروعة، والثانية على الملأ، في إطار السيادة الكاملة للقانون. وكان قد اختنق بواحدة من عظامها. تلقّى العقاب المستحق. لم أستطع منع نفسي من التفكير فيه على هذا النحو - كعقاب. الغزلان عاقبته على قتلها بتلك الطريقة الوحشية. اختنق بلحمها. عظامها عَلقَت في حلقه. لماذا لم يحرّك الصيادون ساكنًا مع الصيد الجائر الذي كان يمارسه القدم الكبيرة؟ لا أعرف. أظنه كان يعرف الكثير عما يحدث بعد الصيد، عندما، مثلما يريد الأب شَنشَن أن نجعلنا نصدّق، كانوا ينخرطون في نقاش حول الأخلاقيات.

لذا بينما كنت تبحث عن إشارة للهاتف، يا شفيتوبِلك، عثرتُ أنا على هذه الصورة. وأخذتُ كذلك رأس الغزال لكي أدفن الرفات في مقبرتي.

في الفجر، عقب عودتي إلى البيت بعد تلك الليلة الرهيبة التي ألبسنا فيها القدم الكبيرة، عرفتُ ما يتعين عليّ فعله. كانت تلك الغزلان التي رأيناها أمام البيت قد خبّرتني. اختارتني من بين الآخرين -ربما لأني لا آكل اللحم وهي تستطيع استشعار ذلك- لكي أكمل الفعل باسمها. ظهرَت أمامي، مثلما ظهر الأيل للقديس هوبِرت، لكي تجعل مني يد القصاص العادل، خِفية. ليس فقط للغزلان، ولكن لبقية الحيوانات أيضًا. فهم لا يمتلكون صوتًا في البرلمان. بل وأعطتني سلاحًا، سلاحًا بارعًا. لم يخمّن أحد شيئًا.

جعلتُ أتعقّب المأمور لعدة أيام، ومنحني ذلك رضًا. رصدتُ حياته. لم تكن مثيرة للاهتمام. اكتشفتُ على سبيل المثال أنه يتردّد كثيرًا على ماخور مُصراني غير القانوني. ولم يكن يشرب إلا فودكا «أبسولوت».

في ذلك اليوم انتظرته كالمعتاد على طريق عودته من العمل. تعقبته

بالسيارة، وكالعادة لم يلاحظني. لا أحد يعبأ بامرأة عجوز تتجوّل بأكياس تسوّقها.

انتظرتُ وقتًا طويلًا أمام بيت مُصراني حتى يخرج، لكنها كانت ليلة مطيرة عاصفة، لذا عدت إلى البيت وقد شعرت بالبرد الشديد. مع ذلك، كنت أعرف أنه سيرجع عن طريق الممر، سالكًا الطرق الجانبية، لأنهما كانا يشربان بكل تأكيد. لم تكن لديَّ فكرة عما سأفعله. أردت أن أتكلّم معه، أن أقف أمامه وجهًا لوجه - بشروطي، لا بشروطه، مثلما حدث في مركز الشرطة، حيث كنت مجرد متوسّلة، امرأة مجنونة مثيرة للضجر فاقدة الأمل في كل شيء، مثيرة للشفقة، وباعثة على الضحك.

ربما أردت أن أُدخل الخوف في نفسه. كنت أرتدي عباءة من المشمع. بدوت مثل تمثال كبير لجنّي قزم. أمام البيت لاحظت الكيس البلاستيكي الذي كنت قد وضعت فيه رأس الغزال لدى عودتي، وعلقته على شجرة البرقوق؛ كان قد امتلأ بالمياه وتجمَّد. أنزلته وأخذته معي. لا أعرف إن كنت أخذته بنيّة استخدامه. المرء لا يفكر في مثل هذه الأمور أثناء حدوثها. كنت أعرف أن ديزي سيأتي ذلك المساء، لذا لم أستطع انتظار المأمور طويلًا. لكن فور وصولي إلى الممر، أقبلَت سيارته، واعتبرتُها علامة أيضًا. ترجّلتُ وقطعتُ الطريق ولوحتُ له بذراعيّ. آه، نعم، وقع الخوف في قلبه بحق. أنزلتُ قلنسوتي وأريته وجهي. واهتاج هو من الغضب.

صرخ فيّ، وهو يُخرج رأسه من النافذة: «ماذا تريدين الآن؟».

قلت: «أريد أن أريك شيئًا».

لم تكن لدي فكرة عما سأفعله. للحظة تردَّدَ، لكن لما كان ثملًا بعض الشيء، كان في مزاج مغامر. خرج من السيارة وسار ورائي مترنّحًا لمسافة قصيرة.

سألني: «ماذا تريدين أن تريني، يا امرأة؟».

«شيء له علاقة بموت القدم الكبيرة»، قلت أول شيء خطر ببالي.

«القدم الكبيرة؟»، سأل مرتابًا، ثم أدرك على الفور مَن المقصود، وانفجر في ضحكة بغيضة. «نعم، بحق، كانت لديه قدمان ضخمتان».

تبعني، بعد إذ ثار اهتمامه، بضع خطوات إلى اليسار، باتجاه الهشير والبئر.

«لماذا لم تخبرني أنك قتلت كلبتيَّ»، هكذا سألته، وأنا أستدير فجأة لأواجهه.

«ماذا تريدين أن تُريني؟»، قالها بغضب، محاولًا الاحتفاظ بسيطرته على الأمور. أراد أن يكون الشخص الذي يطرح الأسئلة.

صوبتُ إليه سبابتي مثل ماسورة مسدس ونخستُه في كرشه. «هل أطلقت النار على كلبتيّ؟».

ضحك، واسترخى على الفور. «ماذا تقولين؟ هل تعرفين شيئًا لا أعرفه؟».

قلت: «نعم. أجب على سؤالي».

«لم أكن أنا من أطلقت النار عليهما. ربما كان مُصراني، أو كاهن الأبرشية».

انعقد لساني. «الكاهن؟ هل يصطاد؟».

«ولماذا لا يصطاد؟ إنه المرشد الروحي. يصطاد مثل غيره».

كان وجهه منتفخًا، وظل يعدّل حزام بنطاله. لم يخطر لي قط أن لديه نقودًا هناك.

فجأة قال: «استديري يا امرأة، أريد أن أتبول».

كنا نقف إلى جوار البئر مباشرة عندما بدأ ينبش فتحة بنطاله. من دون تفكير، رفعتُ حقيبة الثلج المتجمد في وضعية من يرمي المطرقة. كانت الفكرة الوحيدة التي مرت ببالي مرورًا عابرًا هي: «هذه die kalte Teufelshand» – آه، نعم، من أين ذلك؟ ألم أخبركم أن الرياضة التي

ربحتُ فيها كل ميدالياتي كانت رمي المطرقة؟ كنت وصيفة بطولة العام 1971 على المستوى القومي. لذا تكيّف جسدي مع الوضع المألوف واستجمع كل قواه. آه، كم هو حكيمٌ الجسد. أستطيع القول إن جسدي هو من اتخذ القرار، تأرجح ووجه الضربة.

لم أسمع إلا طرقعة. لبضع ثوان ظل المأمور منتصبًا، متمايلًا، غير أن الدم بدأ يسيل على وجهه فورًا. لقد ضربته القبضة الباردة على الرأس. راح قلبي يدقّ بقوة وهدير دمي يصم أذنيّ. صار ذهني صفحة بيضاء. راقبته وهو يسقط بجوار البئر، ببطء، بنعومة، برشاقة تقريبًا، كرشُه يسدّ الفتحة. لم يتطلب الأمر جهدًا كبيرًا لكي أدفعه إلى الداخل. فعلًا.

وهذا كان كل شيء. لم أتوقّف للتفكير في الأمر. كنت متأكدة أني قتلته، وبدا لي أمرًا لا بأس به على الإطلاق. لم أشعر بوخز في ضميري. شعرت فقط براحة عظيمة.

شيء واحد آخر. كان معي في جيبي «إصبع الرب»، حافر الغزال، واحد من الأربعة التي وجدتها في بيت القدم الكبيرة. كنت قد دفنت الرأس والحوافر الثلاثة الأخرى، غير أني احتفظت بهذا لنفسي. لا أعرف السبب. استخدمته لصنع آثار أقدام في الثلج، الكثير منها، على نحو فوضوي. ظننتها ستظلّ هناك حتى الصباح لكي توحي بأن الغزلان كانت هنا. لكن لم يرها إلاكَ أنت يا ديزي. انهمرت المياه من السماء تلك الليلة ومحت كل الآثار. كانت تلك علامة أيضًا.

عدت إلى البيت وشرعت في إعداد عشائنا.

أعرف أني كنت محظوظة جدًّا، وهذا ما جرّأني. إذ كان يعني بكل تأكيد أني صادفت لحظة جيدة، لحظة حصلتُ فيها على إذن من الكواكب؟ كيف لم يتدخّل أحد لوقف كل هذا الشرّ المتفشّي في كل مكان؟ أيكون الأمر مثل مراسلاتي للمؤسسات؟ ينبغي عليهم أن يردّوا، لكنهم لا يردّون. أليست مطالبتنا بهذا النوع من التدخّل مقنعة بما

يكفي؟ يمكن للمرء أن يتحمل الأشياء التافهة التي لا تسبب مكروهًا، لكن ليس القسوة الحمقاء واسعة الانتشار، الأمر غاية في البساطة - إذا كان الآخرون سعداء، فنحن سعداء أيضًا. المعادلة الأبسط في العالم. وأنا أقود سيارتي باتجاه مزرعة الثعالب ومعي «القبضة الباردة»، تخيلت نفسي أشعل فتيل عملية سوف تعكس مسار كل ما هو شرير. تلك الليلة كانت الشمس تنتظر للدخول في برج الحمل وبدء عام جديد. إذا كان الشر هو من خَلقَ العالم، فلا بد للخير أن يدمّره.

هكذا، انطلقتُ لزيارة مُصراني عمدًا. أولًا هاتفته وقلت إننا يجب أن نلتقي؛ قلت إني رأيت المأمور قبيل وفاته وطلب مني أن أوصل له شيئًا ما. ووافق مُصراني على الفور؛ في ذلك الوقت لم أعرف أن المأمور كان يحمل نقودًا معه، غير أني أفهم الآن أن مُصراني راوده أمل لاستعادتها. قلت إني سأمرّ عليه في مزرعته عندما يصير وحيدًا هناك. ووافق. كان مصدومًا لموت المأمور.

في وقت سابق من ذلك اليوم، بعد الظهر، جهزت فخًا - أخذت بعض المصائد السلكيّة من سقيفة القدم الكبيرة. كنت قد فككتها مرات ومرات قبل أن أتقن طريقة عملها. تختار شجرة صغيرة زنبركيّة، وتلويها إلى الأرض؛ ثم تثبّتها تحت فرع شجرة متين. تثبّت فيها أنشوطة من السلك. عندما يعلَق الحيوان في الأنشوطة، يبدأ في المقاومة، فتنتصب الشجرة، كاسرةً عنق الحيوان. خبأتُ الأنشوطة السلكية وسط السراخس بعدما بذلت جهدي لليّ شجرة بتولا متوسطة الحجم.

في الليل، لا يبقى أي موظف في المزرعة. تُطفأ الأنوار وتوصَد البوابة. ذلك المساء كانت البوابة مفتوحة. لأجلي. التقينا في الداخل، في مكتبه. ابتسم لدى رؤيتي.

قال: «هل أعرفكِ من مكان ما؟».

لا يستطيع تذكّر لقائنا على الجسر. لا أحد يتذكّر مقابلة العجائز المتطفّلات مثلي.

قلت إننا يجب أن نذهب إلى الخارج، فالشيء الذي أخذته من المأمور موجود هناك، خبأته في الغابة. أخذ مفاتيحه وسترته ولحق بي. عندما جعلتُ أقوده عبر السراخس الرطبة، بدأ صبره ينفد، غير أني لعبت دوري جيدًا، وأخذت أرد على أسئلته اللحوحة بكلمات قصيرة.

أخيرًا قلت: «آه، إنه هنا».

نظر حوله متشككًا ورماني بنظرة وكأنه فهم الآن فقط. «ما الذي هنا؟ لا شيء هنا؟».

«هنا»، أشرت بذراعي، وتقدّم هو إلى الأمام خطوة واحدة، واضعًا قدمه في الأنشوطة. لا بد أن مظهره بدا هزليًا من الخارج - وهو ينفّذ ما أقوله له مثل طفل في روضة أطفال. ظننت أن فخّي سيكسر رقبته، مثلما يفعل مع الغزال. هذا ما أردته، لأنه كان قد أطعم صغيرتيَّ للثعالب. لأنه كان يصطاد. لأنه كان يجرّد الحيوانات من جلودهم. أظنه كان سيصير عقابًا عادلًا للغاية.

لسوء الحظ، لست خبيرة في القتل. قبضَ السلك على كاحله، وعندما ارتدّت الشجرة منتصبة، أسقطته وحسب. سقط وراح يعوي من الألم - لا بد أن السلك انغرس في جلده، وربما في العضلة أيضًا. كانت لدي خطة احتياطية، تقوم على استخدام الكيس. هذه المرة كنت قد جهّزته عمدًا، في المجمّد. سلاح القتل النموذجي لامرأة عجوز. الفتيات الكبيرات مثلي يتجوّلون دائمًا حاملين أكياسًا بلاستيكية، أليس كذلك؟ كان الأمر بسيطًا - ضربته بكل قوتي وهو يحاول النهوض، مرة، مرتين، ربما أكثر. بعد كل ضربة كنت أنتظر لحظة لأرى إن كنت لا أزال أسمع أنفاسه. أخيرًا سكن تمامًا. وقفت فوق الجسد الميت في الصمت والظلام، ذهني صفحة بيضاء. مجدّدًا لم أشعر إلا بالراحة. أخرجتُ

مفاتيحه وجواز سفره من سترته، ودفعتُ جسده إلى داخل الحفرة الطينية وغطيته بأغصان الشجر. عدت بهدوء إلى المزرعة ودخلت.

أتمنى لو كان بوسعي نسيان ما رأيته هناك. باكيةً، حاولت فتح الأقفاص ودفع الثعالب للخروج، غير أني اكتشفت ساعتها أن مفاتيح مُصراني لا تناسب إلا أبواب الساحة الأولى، التي تفتح على ساحة ثانية. لوقت طويل ظللت أفتش يائسة عن بقية المفاتيح، أنبش محتويات الخزائن والأدراج، إلى أن عثرت عليها أخيرًا. قلت لنفسي إني لن أترك هذا المكان إلا بعد تحرير الحيوانات. استغرق الأمر زمنًا طويلًا لفتح كل الأقفاص. كانت الثعالب حائرة، عدوانية، متّسخة، مريضة، وبعضها كان مصابًا بجروح في قوائمه. لم يرغبوا في مغادرة الأقفاص – لم يعتادوا على الحرية. عندما لوّحتُ لهم بيديّ زمجروا. أخيرًا خطرت لي فكرة – فتحتُ الباب المؤدي إلى العالم الخارجي على وسعه وانسحبت بسيارتي. لاحقًا عرفت أنهم هربوا كلهم.

في طريق عودتي إلى البيت رميت المفاتيح، وبعد حفظ تاريخ ومحل ميلاد مُصراني، أحرقت جواز سفره في حجرة الغلّاية. فعلت الأمر نفسه مع الكيس، ولو أني أحاول ألّا أحرق مخلفات البلاستيك.

وصلت إلى البيت من دون أن يلاحظني أحد. فور أن صرتُ في سيارتي لم أستطع تذكّر أي شيء. شعرت بالإرهاق، أوجعتني عظامي وظللت أتقيأ طوال المساء.

أحيانًا تعاودني الذكرى. تساءلت لماذا لم يُعثر على جسد مُصراني. تخيلت أن الثعالب التهمته، شفّت عظامه من اللحم، ثم جرّتها في أرجاء الغابة. لكنهم لم يمسّوه. لقد تعفّن، وهو في رأيي دليل على أنه لم يكن إنسانًا من بني البشر.

من وقتها فصاعدًا ظللت أحمل كل أدواتي في مؤخرة الساموراي. كيس مليء بالثلج في البرّاد المحمول، مِعوَل، مطرقة، مسامير، بل وحتى

بعض المحاقن لأجل غلوكوزي. كنت جاهزة للعمل في أي لحظة. لم أكذب عندما ظللت أصرّ على أن الحيوانات تنتقم من البشر. كانت حقيقة. وأنا كنت أداتها.

لكن هل ستصدقوني عندما أقول إني لم أفعل ذلك بوعي كامل؟ لقد نسيت على الفور ما حدث، وكأن ثمة آليات دفاعية قوية تحميني. ربما ينبغي أن أعزو ذلك إلى اعتلالاتي - ببساطة، من وقت إلى آخر، لم أكن جانينا، لكن بيلونا أو ميديا.

لا أعرف كيف ومتى أخذتُ قارورة الفيرمونات الخاصة ببوروس. هاتفني لاحقًا ليسأل عنها، لكني لم أعترف. قلت إنه لا بد ضيّعها، وأعربتُ عن تعاطفي مع شرود ذهنه.

لذا عندما قلت إني سأقل الرئيس إلى منزله، كنت أعرف ما سيحدث. كانت النجوم قد بدأت عدّها التنازلي. ولم يكن عليّ إلا الامتثال لها.

كان يجلس مستندًا إلى حائط، يحدّق ببلاهة في الفراغ. عندما دخلتُ في مجال رؤيته لم أظنه لاحظني على الإطلاق، لكنه سعل بصوت وكأنما يخرج من القبر: «أشعر أني لست بخير، يا سيدة دوشيكو».

هذا الرجل كان يعاني. «لست بخير» لم تكن تنطبق فقط على حالته البدنية الحالية بعد الإفراط في الشراب. كان معتلًّا عمومًا، الأمر الذي قرّبه منّي.

«كان عليكَ ألّا تفرط في الشراب».

كنت مستعدة لتنفيذ حكمي، لكني لم أتخذ القرار النهائي بعد. خطر لي أني إذا كنت على حق، ستسقط كل الأشياء في نصابها وسأعرف بالضبط ما يجب أن أفعله.

قال وسط أزيز أنفاسه: «ساعديني. خذيني إلى البيت».

بدا الأمر حزينًا. شعرت بالحزن لأجله. نعم، ينبغي أن آخذه إلى

دياره. أن أحرره من ذاته، من الحياة العفنة القاسية التي يعيشها. كانت تلك العلامة. وفهمتها على الفور.

قلت: «انتظر لحظة، سأرجع إليك».

ذهبت إلى السيارة وأخرجت كيس الثلج من البرّاد. الشاهد العابر كان يمكن أن يظنني أستعد لأصنع له كمّادة باردة للصداع النصفي. لكن لم يكن هناك أي شهود. معظم السيارات كانت قد انطلقت في ذلك الوقت. شخص ما كان لا يزال يصيح في المدخل الأمامي؛ وسمعت أصواتًا تتعالى.

في جيبي، كانت القارورة الصغيرة التي أخذتها من بورروس.

عندما عدت كان جالسًا ورأسه مائلًا إلى الوراء، يبكي.

قلت: «إذا ظللت تشرب كثيرًا هكذا، ستصاب بأزمة قلبية في يوم من الأيام. هيا بنا».

أمسكت به من تحت ذراعه وأوقفته على قدميه.

سألته: «لماذا تبكي؟».

«أنت طيّبة جدًّا...».

أجبته: «أعرف».

قال: «وماذا عنكِ؟ لماذا تبكين؟».

ذلك لم أعرفه.

توغّلنا في الغابة. ظللت أدفعه إلى الأمام وسط الأشجار؛ لم أتركه إلا بعد أن ابتعدت أضواء مركز الإطفاء ولم تعد مرئية إلا بالكاد.

قلت: «حاول أن تتقيأ، سيجعلك ذلك تشعر بتحسن على الفور. بعدها سأرسلك إلى الديار».

ألقى إلي نظرة شاردة: «ماذا تقصدين بأنك 'سترسليني' إلى الديار؟».

ربّتُ على ظهره مطمئِنة: «هيا، تقيّأ».

استند إلى شجرة ومال إلى الأمام. سال اللعاب من فمه. قال بأزيز: «تريدين قتلي، أليس كذلك؟».

شرع يسعل ويكحّ بقوة، لكني سرعان ما سمعت صوت غرغرة، وتقيأ. ثم قال في خجل: «أوه!».

عندها أعطيته قليلًا من فرمونات بوروس ليشربها في غطاء الزجاجة. «ستشعر بتحسن على الفور».

شربها من دون أن يطرف له جفن. وشرع ينشج: «هل سمَّمتِني؟».

قلت: «نعم».

ثم صرت متأكدة أن أوانه قد حان. لففتُ مَتاكتيّ كيسي حول يدي، ولويتُ جسدي لأتخذ أفضل وضعية ممكنة. ثم ضربته. ضربته على الظهر والرقبة، كان أطول مني بكثير، لكن الضربة كانت بالغة القوة حتى إنه سقط على ركبتيه. ومجددًا خطر لي أن الأشياء تسقط في نصابها مثلما هو مقدَّر لها. ضربته مرة أخرى، هذه المرة بنجاح. انقصم شيء ما، تأوه وسقط على الأرض. خامرني شعور بأنه ممتنٌّ لي على ذلك. في الظلام عدّلت رأسه لأتأكد من أن فمه مفتوح. ثم صببتُ بقية الفرمونات على رقبته وملابسه. في طريق العودة، رميت الثلج تحت مركز الإطفاء، وخبأتُ الكيس في جيبي.

هكذا حدثت الأمور بالضبط.

جلسوا بلا حراك. كان حساء الخردل قد بردَ منذ وقت طويل. لم ينطق أحد بكلمة، لذا وضعتُ ردائي الصوفي، وتركت البيت، وسرت باتجاه الممر.

من ناحية القرية سمعتُ صافرات إنذار تعوي؛ حملت الريح صوتها النوّاح الأسيان عبر الهضبة بأكملها. ثم ران الصمت على كل شيء. فقط رأيت أنوار سيارة ديزي تمضي في البعيد.

XVII

الغادة

كل دمعة من كل عين
تصير رضيعًا في عالم الخلود،
تتلقّفه الحوريات الحسان
وإلى بهجته الأولى يعود.

لا بد أن ديزي جاء في وقت مبكر من ذلك الصباح، وأنا لا أزال نائمة تحت تأثير حبوبي. وكيف كان لي أن أنام من غيرها بعد ما حدث؟ لم أسمع طرقَه على الباب. لم أرغب في سماع أي شيء. لماذا لم ينتظر أكثر؟ لماذا لم يطرق النافذة؟ لا بد أنه أراد إخباري بشيء مهم. كان في عجلة من أمره.

وقفتُ في الشرفة، مرتبكة، لكن كل ما رأيته على ممسحة الأقدام كان كتابًا لخطابات بليك، ذلك الذي اشتريناه في التشيك. لماذا تركه لي هنا؟ ماذا كان يحاول إخباري؟ فتحتُ الكتاب وتصفحته بذهن شارد، لكن لم تسقط منه أي ورقة، ولم ألاحظ فيه أي رسالة.

كان النهار مظلمًا ورطبًا. ورحتُ أجرجر قدميّ بصعوبة. ذهبت لأعد لنفسي بعض الشاي القوي، وعندها فقط رأيتُ أن إحدى صفحات الكتاب معلَّمة بورقة عُشب. قرأت النص، فقرة لم نكن قد عملنا عليها بعد، من خطاب إلى ريتشارد فيليبس، وُضع تحتها خط خفيف بالقلم الرصاص (كان ديزي يكره الشخبطة في الكتب):

«قرأت في (أوراكل آند ترو بريتون)، عدد 13 أكتوبر أن» –هنا كان ديزي قد أضاف بالقلم الرصاص «المعطف الأسود»– «طبيبًا تسبَّب، مدفوعًا بالغضب الروبسبيري البارد في أن تحجز الشرطة على فلكيّ، بشخصه وممتلكاته، وتودعه السجن. الإنسان الذي يستطيع قراءة النجوم يسقط غالبًا تحت تأثيرها، بدرجة لا تقل عن النبوتنيّ الذي لا يقرأ ولا يستطيع القراءة حين تعذّبه استدلالاته وتجاربه. نحن جميعًا معرَّضون للوقوع في الخطأ: فمن ذا الذي يجرؤ على إنكار أننا جميعًا معرّضون لارتكاب جريمة؟».

استغرق الأمر نحو عشر ثوانٍ لكي أستوعب، ثم شعرت بدوخة. استجاب كبدي بألم بليد أخذ يزداد شدة.

كنت قد بدأت أحشر أغراضي و«اللابتوب» في حقيبة ظهري عندما سمعت محرك سيارة، أو بالأحرى سيارتين على الأقل. من دون تفكير، اختطفتُ كل شيء وهرعت إلى الطابق السفلي ودخلت حجرة الغلّاية. لوهلة ظننت أني قد أجد ماما وجدّتي تنتظرانني هنا من جديد. وصغيرتيّ. ربما كان يجدر بي أن ألحق بهما. غير أني لم أجد أحدًا.

بين حجرة الغلّاية والكراج كان ثمة مخبأ صغير لعدّادات المياه، والكابلات، والمماسح. كل بيت يجب أن يحوي مخبأً مثل هذا، تحسبًا للاضطهادات والحروب. كل بيت. حشرت نفسي في هذا المخبأ ومعي حقيبة ظهري و«اللابتوب» تحت ذراعي، في منامتي وخفِّي المنزلي. وأخذ الألم في بطني يزداد حدة.

أولًا سمعت قرعًا على الباب، ثم صرير الباب الأمامي ووقع الخطوات في الصالة. سمعتهم يصعدون الدَّرَج ويفتحون كل الأبواب. سمعت أصوات المعطف الأسود والشرطي الشاب الذي كان يعمل مع المأمور والذي أجرى معي المقابلة لاحقًا. لكن كانت هناك أصوات أخرى، غير مألوفة، أيضًا. انتشروا في كل أرجاء البيت. حاولوا مناداتي:

«المواطنة دوشيكو! جانينا!»، والحقيقة أن ذلك كان سببًا كافيًا كيلا أرغب في الرد عليهم.

صعدوا إلى الطابق العلوي -لا بد أنهم جلبوا الطين في أحذيتهم- ودخلوا كل غرفة. ثم شرع واحد منهم في النزول، وبعد لحظات انفتح الباب المؤدي إلى حجرة الغلّاية. دخل أحدهم ونظر في الأرجاء نظرة فاحصة، بل واختلس النظر إلى حجرة الخزين، ثم عبر إلى الكراج. شعرت بعصفة هواء وهو يمرّ بي، على بعد سنتيمترات فحسب. كتمتُ أنفاسي.

«أين أنتَ يا آدم؟»، سمعتُ الصوت من الأعلى.

«هنا!»، ردّ صارخًا، بجوار أذني مباشرة. «لا أحد هنا».

أطلق أحدهم سبابًا من الطابق العلوي. سبابًا فاحشًا.

«بررر، يا له من مكان كريه»، قال الرجل في حجرة الغلّاية لنفسه، ثم أطفأ النور وصعد إلى أعلى.

سمعتهم يقفون في الصالة، يتكلّمون. كانوا يتشاورون.

«لا بد أنها أخلت المكان...».

«لكنها تركت السيارة. غريب، أليس كذلك؟ هل غادرت على قدميها؟».

ثم انضم إليهم صوت غريب الأطوار، منقطع الأنفاس، وكأنه كان قد لحق برجال الشرطة عدوًا.

«لقد أخبرتني أنها ذاهبة إلى شَتشين لزيارة صديق».

من أين أتى بتلك الفكرة؟ شَتشين! أمرٌ غريب!

«لماذا لم تخبرني من قبل يا أبي؟».

لا إجابة.

«إلى شَتشين؟ لها صديق هناك؟ ماذا تعرف يا أبي؟»، سأل المعطف الأسود مستغرقًا في التفكير. لا بد أن الأمر كان مؤلمًا على غريب الأطوار، أن يستنطقه ابنه بهذه الطريقة.

«كيف ستصل إلى هناك؟». بدأت مناقشة محتدمة، وسمعتُ صوت الشرطي الشاب من جديد: «آه، طيّب، لقد تأخرنا كثيرًا. وكنا قريبين للغاية من القبض عليها أخيرًا. لقد ظلّت تخدعنا لوقت طويل. وعندما أفكّر الآن كم مرّة كانت في قبضتنا!».

الآن كانوا واقفين في الصالة، وحتى من تلك المسافة شممت رائحة سيجارة أشعلها أحدهم.

قال المعطف الأسود: «يجب أن نتصل بشَتشين على الفور لنعرف كيف يمكن أن تكون وصلت إلى هناك. بالحافلة، بالقطار، بطلب توصيلة على الطريق؟ يجب أن نصدر أمر اعتقال».

وقال الشرطي الشاب: «لن نحتاج إلى فرقة مكافحة إرهاب لكي نعثر عليها. إنها امرأة عجوز مجنونة. مخبولة».

وقال المعطف الأسود: «إنها خطيرة».

غادروا البيت.

«يجب أن نختَم على هذا الباب».

«والأبواب في الأسفل. طيّب، إذًا. هيا بنا»، هكذا قالوا بعضهم لبعض.

فجأة سمعت صوت غريب الأطوار الرنّان: «سوف أتزوجها عندما تخرج من السجن».

وعلى الفور رد عليه المعطف الأسود غاضبًا: «هل فقدت عقلك تمامًا من طول العيش هنا في البرّية يا بابا؟».

هناك وقفت، محشورة في الزاوية، في ظلام شامل، لفترة معتبرة بعد رحيلهم، حتى اختفى هدير محركات سياراتهم. بعدها انتظرت ساعة أخرى أو نحو ذلك، وأنا أنصت إلى صوت أنفاسي. لم أعد مضطرة إلى الحلم. كنت بالفعل في حجرة الغلّاية، مثلما في أحلامي، في المكان

الذي يزوره الموتى. تهيأ لي سماع أصواتهم في مكان ما تحت الكراج، في أعماق التل، موكب عظيم يسير تحت الأرض. لكنها كانت الريح من جديد، تصفّر كالمعتاد فوق الهضبة. تسللتُ إلى الطابق العلوي مثل لصة وسارعت بارتداء ملابس مناسبة للرحلة. لم آخذ إلا حقيبتين صغيرتين - كان عليٌّ سيفخر بي. بالطبع كان هناك طريق ثالث للخروج من البيت، عبر السقيفة الخشبية، وانسللتُ خارجة من ذلك الطريق، تاركة البيت للموتى. انتظرت في السقيفة الملحقة ببيت البروفيسور إلى أن حل الظلام. لم تكن معي إلا الضروريات - كراساتي، بليك، أدويتي، و«اللابتوب» الذي يحتوي على حساباتي الفلكية. وكتاب «الدليل الفلكي» بالطبع، تحسبًا لأن ينتهي بي المطاف في المستقبل على «جزيرة صحراوية». كلما ابتعدت عن البيت وسط الثلج الضحل، الرطب، ازدادت معنوياتي ارتفاعًا. من الحدود استدرت لأنظر إلى هضبتي، وتذكرتُ يوم رأيتها لأول مرة -كنت مبتهجة، لكني لم أكن قد شعرت بعدُ بأني سوف أعيش هنا يومًا. إن عدم معرفتنا بما سيحدث في المستقبل لخطأ رهيب في برمجة العالم. ينبغي إصلاحه في أول فرصة.

في ذلك الوقت كانت الوديان التي تقع وراء الهضبة غارقة وسط عتمة كثيفة، ومن مكاني بالأعلى استطعت رؤية أضواء البلدات الأكبر -ليفين وفرانكتشتاين البعيدتين في الأفق، وكودزكو إلى الشمال. كان الهواء صافيًا والأضواء تتلألأ. هنا، من هذا العلوّ، لم يكن الليل قد حلّ بعد، وكانت السماء في الغرب لا تزال برتقالية وبنية، لا تزال تظلم. لم يُخِفْني هذا الظلام. مضيت في طريقي، باتجاه الجبال المسطحة، أتعثر في أكداس التراب وكتل العشب الجاف. شعرت بسخونة داخل ملابسي، وقبعتي، ووشاحي المصنوعة من الصوف، لكني عرفت أني لن أعود بحاجة إليها فور عبور الحدود. الطقس دائمًا أكثر دفئًا في التشيك، حيث لا شيء إلا السفوح الجنوبية.

وعندها فقط، في التشيك على الجانب الآخر، سطعَت الزُّهرة، غادتي، فوق الأفق.

كانت تزداد سطوعًا دقيقة تلو أخرى، وكأن ابتسامةً قد علت وجه السماء الداكن، لذا عرفتُ أني اخترت اتجاهًا جيدًا وأني أسير في الطريق الصحيح. توهَّجَت في السماء بينما أعبر الغابة بسلام وأتجاوز الحدود خلسة. كانت ترشدني. سرتُ وسط حقول التشيك، وأنا أواصل التقدم في اتجاهها، بينما جعلت هي تنزل أكثر وأكثر، وكأنها تشجعني على اللحاق بها وراء الأفق.

قادتني حتى الطريق السريع، ومن هناك رأيت بلدة ناخود. سرت على الطريق في مزاج رائق وسعيد - أيًّا كان ما يحدث الآن، سيكون صالحًا وطيبًا. لم أشعر بأي خوف على الإطلاق، ولو أن شوارع البلدة التشيكية كانت خاوية. لكن ممّ يخاف المرء في التشيك؟

وهكذا عندما توقفتُ أمام المكتبة، وأنا لا أعرف ماذا سيحدث بعد ذلك، كانت غادتي لا تزال معي، ولو أنها اختفت عن الأنظار وراء الأسطح. وعندها لاحظت وجود شخص ما في المكتبة على الرغم من الساعة المتأخرة. طرقتُ الباب، وفتح لي هونزا الباب، من دون أن تبدو عليه أي دهشة. قلت إني أحتاج إلى مكان للمبيت.

«نعم»، قالها، وأدخلني من غير أسئلة.

بعد بضعة أيام جاء بوروس ليقلّني، جالبًا معه بعض الملابس والبواريك التي كانت بشائر اللطيفة قد جهّزتها لي. الآن بدونا مثل زوجين مسنّين في طريقنا إلى جنازة، وكان ذلك صحيحًا بمعنى من المعاني - كنا ذاهبَيْن إلى جنازتي. بل وجلب بوروس معه أيضًا إكليلًا جميلًا من الزهور. هذه المرة كانت معه سيارة، ولو أنها مستعارة من بعض الطلاب، وقادها بسرعة وثبات. وقفنا عدة مرات في ساحات

الانتظار - كنت أشعر بأني مريضة حقًا. كانت الرحلة طويلة ومتعبة. عندما وصلنا إلى وجهتنا، لم أستطع الوقوف على قدميّ، لذا حملني بوروس واجتاز بي العتبة.

الآن أعيش في مركز أبحاث علماء الحشرات على حافة غابة بياوفيجا، ولأنني شعرت بتحسن تدريجي، صرت أحاول الخروج في جولتي القصيرة كل يوم. غير أني الآن أجد صعوبة في المشي. علاوة على ذلك، ليس لدي الكثير مما أعتني به هنا، والتوغل داخل الغابة مستحيل. أحيانًا، عندما ترتفع درجة الحرارة وتتذبذب مقتربة من الصفر، تظهر الذباباتُ وقافزاتُ الذيل ودبابيرُ الغال وتتحرّك متثاقلة على الثلج - في ذلك الوقت كنت قد تعلمت أسماءها. أشاهد كذلك عناكب هنا. مع ذلك فقد تعلّمت أن معظم الحشرات تدخل في بيات شتوي. في أعماق أعشاشها، تلتصق النملات بعضها ببعض في كرة كبيرة وتنام على ذلك النحو حتى الربيع. ربما بسبب اختلاف الهواء وخبراتي الأخيرة ازدادت اعتلالاتي سوءًا، لذا أقضي معظم الوقت جالسة أنظر من النافذة.

كلما ظهر بوروس، أحضر معه حساءً من صنف جديد في ترموس. شخصيًا، لا أقوى على الطبخ. كذلك يحضر لي الصحف، ويشجعني على قراءتها، بيدَ أنها تثير اشمئزازي. الصحف تعتمد على إبقائنا في حالة قلق مستمر، على صرف مشاعرنا بعيدًا عن الأشياء المهمة فعلًا بالنسبة لنا. لماذا ينبغي عليّ أن أستسلم لسلطتها وأتركها تخبرني فيمَ أفكر؟ أدور خببًا حول البيت الصغير، أسلك مسارات في هذا الطريق وذاك. أحيانًا لا أتعرف على آثار أقدامي في الثلج، فأتساءل: مَن ذا الذي يمكن أن يكون قد جاء من هذا الطريق؟ مَن ذا الذي ترك تلك الآثار؟ أظنها علامة طيبة ألا يتعرف المرء على نفسه. لكني أحاول استكمال تحقيقاتي. طالعي أنا هو الطالع رقم ألف، وكثيرًا ما أجلس لكي أتدارسه، أبذل جهدي لفهمه. مَن أنا؟ شيء واحد أكيد - أنا أعرف تاريخ وفاتي.

أفكر في غريب الأطوار، وكيف سيعيش وحيدًا على **الهضبة** هذا الشتاء. وأفكر في الخرسانة التي صببتُها - هل ستصمد أمام الصقيع؟ كيف سيصمدون جميعًا شتاءً آخر؟ **الخفافيش** في قبو البروفيسور. **الغزلان والثعالب**. بشائر تدرِس في فروتسلاف وتعيش في شقتي. ديزي هناك أيضًا - الأسهل أن يعيشا معًا. وأشعر بالأسف كوني فشلت في اجتذابه إلى الفلَك. كثيرًا ما أكتب له عبر بوروس. بالأمس أرسلتُ له قصة صغيرة. سيفهم مغزاها:

راهب وفلكيّ في العصور الوسطى -في الأيام التي سبقت تحريم القديس أوغسطين قراءة المستقبل من النجوم- تنبأ بموته هو ذاته في طالعه. كان مقررًا أن يموت بضربة حجر يسقط على رأسه. من وقتها جعل يرتدي طاقية معدنية تحت قلنسوته الرهبانية. إلى أن جاء أحد أيام «الجمعة الطيبة»، فخلعها مع القلنسوة، خوفًا من أن يجذب الأنظار في الكنيسة، لا حبًّا في الرب. في تلك اللحظة سقطت حصاة صغيرة على رأسه العاري، فأصابته بخدش سطحي. لكن الراهب كان واثقًا من أن النبوءة تحققت، لذا سوّى جميع شؤونه، ومات بعدها بشهر.

هكذا تسير الأمور، يا ديزي. لكني أعرف أنني لا يزال أمامي متّسع من الوقت.

من الكاتبة

استهلالات الفصول والاقتباسات داخل النص من كتب «أمثال الجحيم» و«نبوءات البراءة»، و«المسافر في العقل»، ومن خطابات وليام بليك.

موعظة الأب شَنشَن تجميعٌ من مواعظ حقيقية ألقاها مرشدون روحيون للصيد، جمعتُها من على شبكة الإنترنت.

أتوجّه بالشكر إلى «معهد هولندا للدراسات المتقدّمة» NIAS، على الفرصة التي وفّرها لي من أجل عمل هادئ مثمر.



رواية من المؤلفة الحاصلة على جائزة نوبل للأدب

في قرية بولندية نائية تقرر جانينا قضاء الشتاء في دراسة علم الفلك وترجمة شعر ويليام بليك بينما تعتني بالبيوت الصيفية لأثرياء وارسو.

طبيعتها الغريبة الانزوائية جعلت من تفضيلها لرفقة الحيوانات على البشر أمرًا مفهومًا. يأتي خبر مقتل جارها (القدم الكبيرة) وسرعان ما تُكتشَف جثث أخرى في ظروف غامضة متسارعة. مع تراكم الشكوك تنخرط جانينا في التحقيقات وتعثر على الفاعل، ولكن لا أحد يهتم بما تجده.

هذه قصة خيالية عميقة محفِّزة على التفكير لاستكشاف الحدود الفاصلة بين صحة العقل والجنون، بين العدالة والعرف والتقليد، بين التحكم بالمصير والقدر.

***

أحيانا تكون الجملة الافتتاحية على لسان الراوي جذّابة وآسرة لدرجة تجعلك راغبًا في قضاء أطول وقت ممكن مع صاحبها.. هذا هو الحال في هذه الرواية.. إنها قصة صادمة وشائكة وفوضوية التفاصيل عما يتطلّبه تحدي السلطات الراسخة الواثقة من وجودها.

Boston Globe

قصة بديعة.. غريبة.. غامضة... هذه ليست رواية في أدب الجريمة تبحث عن مجرم.. إنها حكاية فلسفية خيالية عن الحياة والموت تحاول أن تخبرنا أسرارَها.. أسرارٌ نستطيع إدراكها إذا أصخنا السمع إلى ما تقوله الأرض.

New York Times Book Review

تأتينا هذه الرواية في قالب مباشر بسيط لروايات الجريمة والألغاز، إلا أنها تخبئ في ثناياها حسًّا فكاهيًا قاتمًا وفواصل فلسفية كئيبة.. تفاصيل تميّز أسلوب مؤلفتها التي تفاجئنا بنهاية رائعة لروايتها.

إن السيدة توكارتشوك كاتبة صاحبة موهبة أصيلة وهذا ما لا شك فيه.

The Wall Street Journal


ISBN 978-614-472-198-8

